من..... جلجامش

إلى..... نيتشه

بحث في الثقافة العالمية

من جلجامش....

.....إلى نيتشه

بحث في الثقافة العالميــة

في ملحمة جلجامش	
بوذا	ديموستين
ماهافيرا	الفارابي
زارادشت	ابن خلدون
لاوتسة	فولتير
كونفوشيوس	نيتشة
أفلاطون في المدينة الفاضلة	

مصطفى صمودي

/من جلجامش إلى نيتشه "بحث في الثقافة العالمية"/

إعداد: مصطفى صمودي

الطبعة الأولى: ٢٠٠٧.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

الإخراج الفني: بشار الحلبي

تصميم الغلاف: فيصل الحفيان

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي

دار ومؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ـ تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

معادلـة ذات طـرفين.. إن ذكـرت أحـدهما عرفـت الثـاني مـن غـير حاجـة إلى ذكره. فما ذكر بلد قط إلا وارتسمت في مخيلتك أسماء عظمائه وما ذُكر عظيمٌ أيضاً إلا وقفز إلى ذاكرتك اسم بلده الذي ينتمي إليه والذي أبدع فيه أو ناضل من أجلـه واستـشهد في سبيله. فـ(كونفوشـيوس يـذكرك بالـصين والعكس صـحيح) و(شكسبير يـذكرك بـإنكلترا والعكس صـحيح أيـضاً) و(مـولـيير بفرنـسا) و(نـاظم حكمـت بتركيـا) و(بـابلو نـيرودا بالتـشيللي) و(غارسـيا لوركـا بإسـبانيا) و(بـوذا يذكرك بالهند) وهكذا دواليك.

* * * * *

من الباحثين من رأى أن الفلسفة نشأت في بلاد اليونان وأن الشرق القديم لم يكن سـوى فكـرٍ لاهـوتي ومـنهم مـن رأى أن هنـاك فلـسفة شـرقية مرتبطـة بالـدين حينـاً ومنفصلة عنه أحياناً إلا أن (ديوجينـوس اللايرتـي) كـان أول مـن أشـار إلى أن الفلـسفة نشأت عند الشرقيين القدماء.

* * * * *

سئل أحدهم: لماذا تقرأ كثيراً؟ أجاب: إن حياة واحدة لا تكفيني.. لأني أعيش في رحلتي مع الكتاب ألف حياة وحياة.. يكفي أني من خلال تحصيلي المعرفي أُثبِتُ هويتي وشخصيتي (أنـا أتثقـف.. إذا أنـا موجـود) فهـا هـو (المحاسـبي) عنـدما كـان علـى فـراش الموت، دخـل عليـه عـالم عائـد يـزوره فسأله المحاسبي: سمعـت منـك مـسألة كـذا فهـلاّ أعدتها عليَّ! نظر العائد إلى المحاسبي فرأى حاله يرثى لها فتشاغل عن الإجابة، قال له المحالسبي: والله لأن أموت وأنا عالمٌ بها خيرٌ من أن أموت وأنا جاهلٌ لها.

* * * * *

أكثرنا سمع بقصة الأمير الفارسي (زيمير) حيث طلب من العلماء أن يكتبوا له تاريخ بني الإنسان لكي يستفيد منه عندما يتولى الحكم. وبعد عشرين سنة عندما صار ملكاً جاءه العلماء باثني عشر جملاً على كلٍ منها خمسمئة جزء من كتاب تاريخ بني الإنسان فهاله ما رأى وأمرهم باختصار هذه المكتبة الكبيرة المتنقلة التي لو وهب حياته كلها للاطلاع عليها لما انتهى من قراءتها، فذهبوا وعادوا بعد فترة طويلة بِعِدَّةِ كتب على جملٍ واحد. فطالبهم بالاختصار ثالثةً، فذهبوا ثم عاد أخيراً العالم الوحيد الذي بقي منهم على قيد الحياة بكتاب ضخمٍ على ظهر حمار وكان الملك على فراش الموت فقال والحسرة تملؤه سأموت دون أن أعرف شيئاً عن تاريخ بني الإنسان أجابه العالم قائلاً: يا مولاي سأختصر لك ما قالوا بكلمات ثلاث ولدوا .. وعانوا .. وماتوا .. وها نحن نعيش معا في محراب من.....

ولـــدوا .... وعــانوا .... ومــاتوا ....

مصطفى صمودي

قراءة في ملحمة جلجامش

تروي سائر الأساطير ابتداء من السومرية مروراً بالمصرية القديمة وصولاً إلى الكوسموغونيا اليونانية أنه لم يكن في البدء سوى عماء وماء[1]. من هنا يمكننا

---

(١) تروي الأساطير السومرية أن الإله (نامو) كان الماء الأولى.ثم انجب ولدين (أن) و(كي) ولد من اتحادهما (إنليل ـ إله الهواء) الذي ضاق ذرعاً بالتحامه بأبويه ففصل بينهما وجعل (آن. سماء) (وأمه. كي. أرضاً). ولقد كان يلف (إنليل) ظلام دامس فأنجب (نانا= سين = القمر) ليبدد الظلام من حوله كون الظلام أسبق في الوجود من النور ثم أنجب (نانا) (ابنا اسمه شمش = الشمس) الذي فاق أباه وخلفه على عرش الماء.

وتروي الأساطير المصرية أيضا أن العماء البدئي كان (نون ـ نو) وهو الأقيانوس الذي كان قبل السماء والأرض ثم تشكلت كل الأشياء في داخلها فصار اسمها (أتوم ـ البدء أو الإكتمال) تشكلت في داخلها تحت اسم (أتوم ـ رع) أنجبت الهواء (شو) وتوأمه (تفنوت) أنجبا بدورهما (الأرض ـ جيت) و(السماء ـ نوت). وفي كتاب (تاو ـ تي ـ كنغ) يقول (لاوتسه): (شي ما. لا شكل له. موجود قبل السماوات والأرض. صامت وخاو. قائم وحده. لا ينتابه تغير. يدور على نفسه ولا يبلى إنه بحق أم هذا الكون. لا أعرف اسمه أدعوه (تاو) لا أستطيع وصفه فأقول العظيم. عظمته

القول: (**إن واجب الوجود قبل خلقه العالم أو قبل أن يفيض العالم عنه كان يلف الكون سديم هيولاني من عماء وماء**). وأن الميلاد كان ميلاداً مائياً (وجعلنا من الماء كل شيء حي) ولما فسر (فرويد) الأساطير تفسيراً (سيكولوجياً) رأى أن ولادة الكون من عماء مائي هي صورة لحالة الإنسان في الرحم قبل الولادة. وما بروز العالم والحياة إلى المحيط الأول إلا استعادة للحالة الأسطورية الكامنة في نفس صانع الأسطورة عند الخروج من رحم الأم ولما لدراسة الأساطير من بالغ الأهمية فلقد ركز (يونغ) تلميذ (فرويد) على دارستها دراسة فلسفية كونها نظاماً فكرياً استوعب قلق الإنسان الوجودي وتوقه الأبدي لكشف الغوامض فاستنتج من دراستها مناهج شتى. ومن يتناول (ملحمة جلجامش) بالدراسة لا بد من أن تتحرك فيه مكامن ابداعه فيستخلص منها صوراً وأفكاراً تضاف إلى جهود الأخرين ممن سبقوه حين دراستهم لها.

امتداد في المكان، والامتداد في المكان يعنى امتدادا بلا نهاية والامتداد بلا نهاية يعني العودة إلى نقطة البدء).

الكوسموغونيا اليونانية تقول: (الكاووس ـ الخواء القديم الشكل)

(جيا ـ الأرض حيث كانت غير مستقرة خرجت من الكاووس)

(ايروس ـ القوة الكونية التي فيها تلتقي الأشياء وتتوالد وتندمج)

ونقرأ في الحديث الشريف أيضاً أنه لما سئل محمد (ص) عن الله قبل خلقه العالم أجاب: (كان في عماء ما فوقه هواء... ولا تحته هواء... ثم خلق عرشه على الماء) **ونقرأ في حديث قدسي:** (كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق) وتقول التوراة: (**في البدء خلق الله السماوات والأرض وكانت خربة خالية وعلى وجه القمر ظلمة وروح الله يرف على وجه الماء**).

وتقول التوراة أيضاً: (كانت الأرض خربة خالية. فقال الله. ليكن نور فكان نور).

والآية الكريمة تقول: (هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) **هود /٦/**

ملحمة جلجامش[1]

السومرية المكتوبة بالأكادية البابلية، كما أكدت البحوث الأركيولوجية من أقدم الأعمال الإنسانية المحضة أن لم نقل أقدمها على الإطلاق وأكمل تحفه أدبية حيث أكدت هذه الأسطورة طابعها التجميعي لسائر شعوب المنطقة . ترجمت ــ لعظمها وسمو مراميها ــ إلى سائر اللغات الحية قديماً وحديثاً. كم أوغل في مجاهيلها المؤرخون والبحاثون، وغاص في أعماقها المتخصصون والمهتمون وتغنى بها ولها الموسيقيون والمطربون، وحلق في مجاهيلها الفنانون التشكيليون وهام في شكلها وفحواها الشعراء والمسرحيون، كل تناولها من زاوية حسب هواه محاولاً عصرنتها وذلك بجدل تولفية تحمل إسقاطاً يمس واقعاً معيشاً كونها (حمالة أوجه) إن صح التعبير. منهم من سماها (هو الذي رأى كل شيء) نسبة إلى مطلعها حيث كانت تسمي القصائد بأسماء المطالع[2] ومنهم من أطلق عليها (أوديسة العراق القديم). أما الأحلام المكتظة فيها فهي بمثابة رسائل تنبيهية كونها شاشات رادارية تُنْبِئ /جلجامش/ و/ أنكيدو/ بخبيء المجهول وتستشرف لهما مكنون الآتي حتى يغدو الغيب عياناً مرئياً لهما وكأنها في ملحمة تختص بتفسير الأحلام. ولما للذكرى من فائدة قصوى فسأورد فحوى الملحمة بعد غربلتها واختزالها اختزالاً مكثفاً مدروساًمزيلاً عنها الكثير من التكرار الممل مسقطاً منها الشوائب التي إن حذفت سمت بالنص مبنى من غير أن تؤثر في سياقه معنى، مركزاً على الجوانب المفصلية

---

(١) لا يعرف معنى اسمه فمنهم من يقول: الجلال أو العزة لجلجامش. والملحمة قصيدة مكونة من /١٢/ألف بيت من الشعر في اثني عشر لوحاً واللوح الثاني عشر مضافاً إليها لأنه من غير سياقها. دونت الملحمة في القرن /٢/ ق.م وفيها قطع تعود إلى /٤/ آلاف. ق. م ومنها ما هو أقدم من ذلك ويعود فضل اكتشافها، لم يصل سوى نصفها بحالة جيدة، إلى (أوستين هنري ليرد) و(هرمزسام) و(جورج سميث) /١٨٣٩- ١٨٥٣/. هذا وقد وجد السومريون في /٥/ آلاف ق. م والبابليون في /٣/ آلاف ق. م والأشوريون في الألف الأول ق. م وحضارة البابلين والأشورين مستمدة من حضارة السومريين وهذا يذكرنا بفضل اليونان على الرومان. وتعود الملحمة إلى القرن الألف الثاني ق. م.

(٢) كذلك سميت ملحمة الخلق (اينوما إيليش) بـ (عندما كان في الأعالي) نسبة إلى مطلعها.

التي لا يمكن إغفالها لأنها المتن واللحمة والسَّدَى، آملاً بهذا الاختزال المركز أن أبلغ عتبة الكفاية.

ملخص الملحمة: جلجامش بطل ميثولوجي ثلثاه إله وثله بشر... أحسن الله العظيم خلقه حباه بالحسن (شمس ـ إله الشمس) وخصه بالبطولة (أدد ـ إله الرعد والأمطار) أعلى أسوار (أوروك[1] ـ الوركاء حالياً).

بنى معبد (إينانا = عشتار). ظالم لا يترك ابناً لأمه ولا عذراء لحبيبها. شكى الجميع ظلمه إلى الآلهة فاستدعى (آنو ـ إله السماء كبيرهم) الذي بعد أن سمع مقالهم استدعى بدوره (أرورو ـ إحدى الإلهات الخالقة وخالقة جلجامش) وأمرها أن تخلق غريماً له يضارعه قوة وبأساً ليحل الأمن والرخاء في أرجاء (أوروك)...أخذت (أورورو) قبضة من **الطين** وخلقت منها (أنكيدو) الجبار من نسل (ننورتا ـ إله الحرب). كبر (أنكيدو) وصار **يأكل العشب** مع الظباء. رآه الصياد مراراً على مورد الماء فانتابه الهلع. هرع الصياد إلى أبيه وقص عليه ما رأى فطلب منه أبوه أن **يخبر** جلجامش بذلك ليعطيه بَغِياً تروضه ففعل.

أرسل جلجامش مع الصياد بغياً لتكشف (لأنكيدو) عن صدرها ومفاتن جسدها وتعلمه فن وظائف المرأة، رأى (أنكيدو) مفاتن البغي فانجذب إليها مسحوراً **وعاشرها ستة أيام وسبع ليال** وبعد أن ارتوى وقضى وطره منها رأته الحيوانات فولت هاربة منه ولما هم باللحاق بها خانته قواه إلا أنه أصبح واسع الفهم لامتلاكه عظمة المعرفة.سارعت به البغي إلى جلجامش و(أنكيدو) يتهدد ويتوعد ويتحدى معلناً أنه الأقوى. وقتها رأى جلجامش **حلمين** رأى في **الأول** كواكب السماء حيث سقط عليه منها شهاب لم يستطع رفعه عنه إلا بمساعدة أهل (أوروك)، ورأى في **الثاني** (فأساً) انحنى عليها كما ينحني على امرأة. فسرت له أمه (الإلهه البقرة الوحشية نينسون) مغزى الحلمين وأن الشهاب والفأس ما هما إلا رجل سيحنو عليه

---

(١) أوروك. من أهم المدن السومرية محاطة بسور عظيم /٩/ ق. م وهو اول سور مدينة في التاريخ. وهو من أعمال جلجامش. فيها اخترعت الكتابة التصويرية ثم المسمارية. تضم معبد (إنانا = الزهرة) إلهه الأمومة الكبرى وكانت وثيقة الصلة بـ (دموزي = تموز).

ويتخذه صديقاً وقت الضيق. وصلت البغي (بأنكيدو) إلى مائدة الرعاة. ووضعوا أمامه خبزاً وشراباً فلم يعرف كيف يأكل، قالت البغي: (**كل الخبز يا أنكيدو فإنه مادة الحياة واشرب من هذا الشراب فإنه عادة أهل هذه البلاد**) فأكل وشرب سبعة أقداح ثم **مسح جسده بالزيت فصار إنساناً**. دخل عليهم رجل يشكو اقتحام جلجامش ـ على قرع الطبل ـ البيت المخصص للعرائس ليختار الرجل العروس التي يشتهيها قبل أن تكون لعريسها فامتقع وجه(أنكيدو) وسار خلف البغي إلى (أوروك) لملاقاة (جلجامش). رآه أهل (أوروك) فوجدوا فيه شبهاً لجلجامش إلا أنه أقصر قامة وأقوى عظماً وفرحوا بمقدمه فرحاً عظيماً كونه قوة تحد من جبروت وظلم (جلجامش). كان (جلجامش) آنئذ متوجهاً إلى مخدع (إشخارا ـ إلهة من آلهات الحب وشكل من أشكال عشتار) (تقوم بدور الاتصال الجنسي) ليضاجعها فاعترض سبيله (أنكيدو) وتقاتلا كثورين هائجين طويلاً وعندما حاول جلجامش رفع (أنكيدو) هدأ غضبه فاستدار يروم الذهاب، ناداه (أنكيدو) قائلاً: لقد رفع (أنليل) رأسك عالياً إلى السماء وقدر عليك الملكية على البشر ثم صارا صديقين حميمين. طلب /جلجامش/ من /أنكيدو/ أن يسافر معه إلى غابة الأرز حيث يسكن وحش الغابة /خمبابا/ لقتله **وإزالة الشر من الأرض**، حاول /أنكيدو/ أن يثني عزمه عن هذه الرحلة الخطرة لأنه يعرف مخاطر هذه الغابة يوم كان حيواناً، ويعرف (خمبابا) الذي لا يصد له هجوم حيث ينفث النار من فمه ولقاؤه يعني لقاء الموت بعينه.

أجاب (جلجامش) (أنكيدو) قائلاً: يا صديقي... **من الذي يستطيع أن يرمي أسباب السماء؟ الآلهة وحدهم هم الذين يعيشون إلى الأبد مع (شمس) أما أبناء البشر فأيامهم معدودات وكل ما عملوا لهو ولعب. وإذا هلكت فسيخلد اسمي...** ثم صمما على القيام بهذه الرحلة معاً. سار جلجامش في شوارع (أوروك) معلناً عن بدء الرحلة.

أمر صانعي السلاح أن يصنعوا له أسلحة قوية تتناسب وحجم هذه الرحلة الخطرة. حذره من هذه الرحلة أيضاً شيوخ (أوروك) كما حذره (أنكيدو) من قبل إلا أن ذلك لم يثن من عزمه. دخل وصلى للإله (شمش) طالباً منه المساعدة والنصر. ثم نصحه شيوخ (أوروك) أن لا يعتمد على قوته المفرطة فقط وأن على (أنكيدو) أن يسير أمامه

لمعرفته بمجاهيل الغابة ناهيك عن أن **من يمشي في المقدمة يحمي صاحبه** راجين له النصر طالبين أن يذكر دائماً (لو كال بندا) ليقف بجانبه. طلب (جلجامش) من (أنكيدو) أن يدخل معه إلى معبد (إي كال ماخ) للمثول أمام أمه (البقرة الإله نينسون) لتسدي له النصح، سجد أمامها وشرح لها مبتغاه وطلب منها أن تشفع له عند (شمش) ففعلت وصلت من أجله وطلبت من (آي = آية) آلهة الصباح زوجة (شمش) أن تذكره بحماية ابنها آملة من (سين = إله القمر) أن يحرسه . وبعد مسير طويل وصل الاثنان إلى باب الغابة فقتلا عفريتاً عيَّنه (خمبابا) لحراسته. تخطى (أنكيدو) عتبة باب الغابة فشُلَّت قواه بتأثير سحر الباب وحذر (جلجامش) من الدخول لكن (جلجامش) لم يأبه لتحذيره فدخل ليتابعا السير معاً وليحمي كل منهما الآخر قائلاً: **(إذا سقطنا يا صديقي في المعارك فسيكتب لاسمينا الخلود الأزلي)**.[1]

أوغلا في الغابة مُتَقَفِّين خطوات (خمبابا) حتى وصلا إلى عرش الإلهة (إيريني = عشتار) وعند مغيب الشمس حفرا بئراً قرباناً لـ (شمش) كما أوصاه شيوخ (أوروك) وسكب الماء المقدس وقرب الطعام ودعى الجبل أن يريه **حلماً** يبشره بالفرح فرأى بدل الحلم حلمين ولما استيقظ قص حلميه على صديقه (أنكيدو) حيث رأى أنهما يقفان على جبل يتصدع ثم تداعى ذلك الجبل . وفي **المنام الثاني** أنهار ذلك الجبل. فسر له (أنكيدو) الحلمين بأن الجبل الذي تصدع ثم انهار هو (خمبابا) وأنهما سينتصران عليه. بدأ (جلجامش) بقطع **أشجار الأرز في الغابة**. سمع (خمبابا) الضجيج. فهاج وماج وزمجر فدب الرعب في قلب البطلين وتضرعا إلى (شمش) طالبَيْن عونه فاستجاب لهما وأرسل على (خمبابا) ريحا صرصراً عاتية شلت **حركته فتوسل (خمبابا) اليهما طالباً** منهما أن يبقياه حياً ويكون خادماً لهما. رق قلب (جلجامش) وكاد أن يبقي عليه لولا أن حرضه (أنكيدو) على الخلاص منه فقتلاه وعادا منتصرين إلى (أوروك). غسل (جلجامش) شعره المنساب على كتفيه وارتدى الحلة المزركشة البهيجة وتاج الملك وغدا في غاية الجمال والجلال رأته (عشتار) فراق لها منظره البهي فتاقت لعناقه ووصاله ونادته: ((تعال إلي يا (جلجامش) وكن

---

(١) **ويذكرنا ذلك بالآية الكريمة** (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا.. بل أحياء عند ربهم يرزقون).

حبيبي أقدم لك مركبة من اللازورد والذهب)). لكن (جلجامش) لم يأبه لشبقها لأنه يعرفها أنها دائمة البحث عن العمل الجنسي فقبحها وذكرها بسيئات أعمالها وكيف أنها لم تخلص ولم تبق على أحد من عشاقها حيث أساءت إليهم جميعاً بعد أن قضت وطرها منهم. استشاطت (عشتار) غضباً من رد (جلجامش) وصعدت إلى أبيها (آنو) وأمها (آنتم) وطلبت من أبيها أن يخلق لها ثوراً سماوياً مجنحا يهلك (جلجامش) وهددَتْ أباها بأنه إذا لم يستجب لطلبها فستحطم باب العالم السفلي وستجعل الموتى يقومون ليأكلوا الأحياء. أجابها (آنو) قائلا: لو لبيت طلبك لحلت سبع سنين عجاف. ثم سألها: (هل جمعت غلة تكفي الناس والماشية هذه المدة؟) قالت: (نعم).. فأنزل (آنو) الثور السماوي المجنح وبأول زمجرة له قضى على مئة ثم مئتين ثم ثلاثمئة. إلا أن (جلجامش) بمساعدة (أنكيدو) استطاع قتل الثور السماوي واقتلاع عينيه وتقديمهما قرباناً للإله (شمش). فما كان من (عشتار) إلا أن علت أسوار (أوروك) لتقذف اللعنات على من دنسها وأهانها وقتل ثور السماء. فقطع (أنكيدو) فخذ الثور وقذفه في وجه (عشتار) وقال مهدداً: (**لو قبضت عليك لجعلت مصيرك كمصير هذا الثور**). ثم غسل كل منهما يديه في نهر الفرات وسارا إلى(أوروك). تجمهر الناس ليروا البطلين الجبارين، فأقام (جلجامش) حفلاً مهيباً في قصره ثم استراح الاثنان وناما. رأى (أنكيدو) حلماً فحواه أن الآلهة العظام (آنو = إنليل = شمش السماوي) قد اجتمعوا يتشاورون بشأن من قتل (خمبابا) و(الثور السماوي). قال: (آنو): (**يجب أن يموت "جلجامش"**)، قال (إنليل): (**يجب أن يموت "أنكيدو"**) وقال (شمش): (**أنكيدو بريء**) أجابه (إنليل) حانقاً: **لأنك يا شمس تنزل كل صباح على الأرض فقد صرت تدافع عن البشر وكأنك واحد منهم.** أصيب (أنكيدو) بالحمى وأحس بالوهن يدب في أوصاله بكى وبدأ يلعن الصياد الذي قاده إلى البغي ويلعن البغي التي زينت له المجيء إلى (أوروك) ليتمتع بالحياة المدنية. ثم رأى حلماً آخر فقصه على (جلجامش) حيث ظهر له مخلوق مخيف كطير الصاعقة (زو) عرّاهُ من ثيابه وأمسكه بمخالبه وأخذ بخناقه حتى أخمد أنفاسه وأخذه إلى مسكن (أركلا: من أسماء آلهة العالم السفلي) إلى الدار التي لا يرجع منها من دخلها. حيث الموتى هناك مكسوون بالريش. التراب طعامهم والطين قوتهم. هناك تحكم

(أريشكيجال) ملكة العالم السفلي وليس هناك سوى العظام نواب (إنليل) يقدمون اللحم والشواء. وعندما بلغ المرض (بأنكيدو) مبلغاً عظيماً قال (لجلجامش) متثاقلاً: **(لقد حلت علي اللعنة لأني سأموت في فراشي ميتة الرجل الذليل ولم أمت ميتة رجل سقط في ساح الوغى لأن من يسقط في ساح الوغى مبارك)** وبعد أن صمت (أنكيدو) صمتة لم يعد بعدها قادراً على إتقان لغة الأحياء، صاح (جلجامش) سأنوح عليك نواح الثكالى ويبكيك ماء الفرات يا من كنت ساعدي وسندي. أي سِنَةٍ من النوم غلبتك وتمكنت منك؟ وبعد بكاء (تراجيدي) استعرض من خلاله أهم مآثر (أنكيدو) في حياته أمر الصناع أن يقيموا له تمثالاً يخلد ذكراه. ثم خلع (جلجامش) ثيابه المزركشة ولبس جلد الأسود، وهام على وجهه في البراري هارباً من شبح الموت متسائلاً: ترى!! هل سيكون مصيري كمصير (أنكيدو)؟ فيمم وجهه ـ وحيداً هذه المرة ـ شطر (أوتونابشتيم). تملكه الرعب في الطريق من الأسود. ذلك الذي لم يكن يخاف حتى من (خمبابا) هزه الموت فصلى لـ (سين) ليحفظه ويحميه ثم استلقى ونام. رأى في المنام السباع وقد اجتمعت حوله فانقض عليها كالسهم. وبعد أن استيقظ.. سار طويلاً حتى بلغ جبل (ماشو). حيث هناك (البشر العقارب) تحرس الشمس في طلوعها ومغيبها. خاف منهم (جلجامش) فسأله أحدهم عن سبب مجيئه أجابه (جلجامش) إنه يقصد (أوتونابشتيم) ليسأله عن لغز الحياة والموت. فتح البشر العقارب له الباب ودخل فسار في ظلام دامس طويلاً طويلاً حتى آنس بعد لأي ضوء الشمس فرأى أشجاراً قطوفها دانية وثمارها أحجار كريمة، رأته (سيدوري) حارسة الحانة الإلهية فأوصدت في وجهه الباب ولما عرفها بنفسه سألته عن سبب حزنه فأخبرها بقصة (أنكيدو) وكيف أن الدود قد وقع على وجهه وأنه يريد الحياة. أجابته(سيدوري): الحياة الأبدية التي تبغي لن تجدها لأن الموت مقدر على البشر وهو ضريبة الولادة وأن الآلهة وحدها قد استأثرت بالحياة الأبدية طالبة منه أن يملأ كرشه ويأكل حتى يشبع ويلهو ويقضي حياته القصيرة في الملذات وإشباع الرغبات ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. لكن (جلجامش) سأل حارسة الحانة عن الطريق الموصلة إلى (أوتونابشتيم) فشرحت له صعوبة ما يطمح إليه حيث عليه أن يقطع بحراً لم يقطعه أحد قبله. ثم ما عساه يفعل عندما يبلغ مياه الموت التي عليه أن يمر بها قبل

وصـوله إلى (أوتونابـشتيم). ثـم دلتـه علـى (أورشـنابي) مـلاح (أوتونابـشتيم) الـذي بإمكانه ـ وحده فقط ـ أن يوصله إلى ما يبغي. فإذا وجده فليتابع الرحلة معه وإن لم يجده فالأولى له أن يعود. تابع سيره حسب إرشادات (سيدوري) فرأى (أورشنابي) ودار بينهما الحوار الذي دار مع (سيدوري) ثم استقلا سفينة وقصدا (أوتونابشتيم) رأى (أوتونابشتيم) السفينة فسأل (جلجامش) عن سر امتقاع وجهه فأعاد عليه الإجابة التي أجاب بها (سيدوري) و(الملاح أورشنابي) وأن السبب هو موت (أنكيدو) وأنه لا يريد لنفسه مصيراً كمصير صديقه أجابه (أوتونابشتيم) الدهر لا يرحم.. والموت قدر محتم.. ولا يميز بين العبد والسيد إن جاء أجلهما وأن الآلهة لم تكشف سر الموت العصي على أحد.

تفرس (جلجامش) في وجه (أوتونابشتيم) فرأى فيه شبيهاً له في الهيئة فقام يسأله: ماسر خلودك وأنت مثلي ؟.

ساعتها كشف (أوتونابشتيم) لـ (جلجامش) سر لغز خلوده وأنه حدث مستثنى ولا تنطبق عليه قاعدة الموت التي تطال البشر. قال (أوتونابشتيم): (**عندما قررت الآلهة دمار العالم وعلى رأسهم (إنليل) لمحق الفاسدين على الأرض أزمعت طوفانا وكان معهم (أيا)**) فنقل كلام الآلهة تلميحاً إليه عن طريق مناداته كوخ القصب حين خاطبه: (اسمع يا كوخ القصب وافهم يا حائط "والكلام هنا موجه لأوتونابشتيم" اصنع الفلك بأعيننا وإحمل عليه من كل زوجين إثنين من بذرة كل شيء حي واحمل أهلك أيضاً). فانصاع (أوتونابشتيم) إلى الأمر.

ولما حانت ساعة الطوفان ركب السفينة ومن معه فأمطرت السماء وتفجرت عيون الأرض واستمرت الزوابع والأمطار ستة أيام وسبع ليال حتى غطى عباب الطوفان الأرض وفي اليوم السابع هدأت الرياح فأقلعت السماء وغاضت الأرض واستقر الفلك على جبل(نصير). أرسل (أوتونابشتيم) (حمامة) فعادت لعدم وجود مكان تحط به ثم أرسل (سنونو) وعاد أيضاً ثم أرسل (غراباً) ولم يعد فعرف أن الطوفان قد انتهى. فأطلق من كان على السفينة في الاتجاهات الأربعة وبذلك كتب له (أي لأوتونابشتيم) الخلود وصار مثل الآلهة ثم خاطب (أوتونابشتيم) قائلاً:

(لجلجامش): أما أنت. فمن يجمع الآلهة من أجلك؟ وطلب من(جلجامش) أن لا ينام ليقنعه بأنه بشر وأن النوم والموت مقدران عليه فوافق (جلجامش) وما هي إلا لحظة حتى أخذته سِنَةٌ من الوسن. ولما أيقظه (أوتونابشتيم) قال له (جلجامش) مستاء والنوم ما زال بعينيه: لم تمسسني سنة النوم حتى أيقظتني لم فعلت ذلك؟ فطلب منه (أوتونابشتيم) أن يعد الأرغفة التي صنعتها زوجه حيث كانت تصنع رغيفاً في كل ليلة ينام بها وإذْ بها (ستة أرغفة) والسابع مازال ساخنا. عنَّفَ (أوتونابشتيم) ملاّحه (أورشنابي) لأنه جاء بـ (جلجامش) إليه وأمره بأن يذهب به ليغسل أدرانه ثم يعود به من حيث أتى. ولما ركب السفينة أخذت (أوتونابشتيم) الشفقة فعرض عليه حلاً وسطاً. حيث توجد في قاع البحر (نبتة غريبة) هي سر من أسرار الآلهة لا تعطى الخلود لكنها تجدد الشباب وتطيل العمر. ربط (جلجامش) في قدميه حجراً ثقيلاً وغاص في الأعماق واقتلع النبتة الشوكية وصعد بها إلى الشاطىء ثم أبحر مع (أورشنابي) قاصداً (أوروك) فرحاً بما أنجز. كان اليوم حاراً جداً فنزل واستحم ببركة ماء شمت الحية رائحة النبتة فاختطفتها. وبينما هي عائدة نزعت عنها جلدها واستعادت شبابها. لحظتها لف اليأس والقنوط (جلجامش) وانهد صرح طموحه وتساءل مستسلماً حزيناً وهو عائد إلى (أوروك):

لمن شقيت؟ لمن تعذبت وتعبت؟ لمن نزفت دم قلبي ولم أجد لنفسي مغنماً ما؟!! ترى!! أكل ما جنيت.. كان من أجل حية التراب؟..

نهاية تلخيص الملحمة

وهكذا كانت دورة حياة (جلجامش).. كانت عوداً على بدء.. حيث خلق من التراب وسيرد إلى التراب.. وطعامه الطين والتراب.. وحتى يوم كان في عز جبروته وعلى الرغم من أن ثلثيه إله.. لم يكن سوى ملك بشري آدمي لصيق بالتراب..

تلخيص لوح ١٢

لوح ١٢ فيه وصف لشجرة (الحلبو) على ضفاف الفرات التي اقتلعتها الرياح فرأتها (إنانا) وأخذتها إلى البستان المقدس في (أوروك) وغرستها واعتنت بها لتصنع من خشبها سريراً وكرسياً لها. نمت الشجرة فأقامت في أسفلها حية وفي وسطها العفريت

(ليلا) وفي أعلاها الطائر (زو) فتألمت لذلك (إنانا). سمع (جلجامش) بذلك فهب إلى الشجرة وقتل (الحية) ولما شاهد الطائر (زو) ما حدث فر بفراخه هرباً وتبعته (ليلا)، قطع (جلجامش) الشجرة وقدمها إلى (إنانا) لتحقيق رغبتها فصنعت له مكافأة آلتين موسيقيتين (بكو) (من أسفل الشجرة) و(مكو) (من أعلى الشجرة).

و عندما كان (جلجامش) يقوم بطقوس سحرية لإعادة (أنكيدو) إلى الأرض سقطت الآلتان إلى العالم السفلي فحزن عليهما (جلجامش) فتراءى له (أنكيدو) يعده بأنه سيحضرهما إليه فطلب (جلجامش) من (إنليل) أن يخرج (أنكيدو) من العالم السفلي فلم يستجب له. ذهب إلى (سين) أيضاً فلم يستجب لطلبه ثم ذهب إلى (إيا) فخاطب (إيا) البطل(نرجال) بفتح الهوة التي تلاصق العالم السفلي ففتحها وخرجت روح (أنكيدو) فسأله: (جلجامش) عن العالم السفلي فيصف (أنكيدو) له ذلك العالم بأنه صورة قاتمة في عالم الأموات ثم صرخ (ياويلتاه) ورمى نفسه التراب.[1]

توصيف لبعض عناصر الملحمة : قبل أن أدخل فلك التوصيف. وأقدم ومضات إشارية لبعض عناصر الملحمة أذكر بمسألة هامة هي أنه لا يمكن أن ندخل الأسطورة في دائرة (الإيتولوجيا ـ علم تعليل الأسباب) ونخضعها للمعايير المنطقية والنقد المنهجي الموضوعي كونها قوة حطمت أطر الزمان والمكان كالحلم تماماً فهي مرتع خصب للمشاعر الإنسانية اللاإرادية وتعبير عن لا وعي الإنسان، وتراكمات كمية موغلة في القدم ممتدة نحو الحاضر ما أمكنها الامتداد. ولقد اعتبر(فريزر) أن مرحلة الأسطورة مرحلة متقدمة إذا ما قيست بمرحلة السحر التي سبقتها حيث كانت مرحلة الأسطورة إرهاصاً لظهور الفكر الفلسفي ثم العلمي.. وكما تصارع الموجة العرضية عوامل تلاشيها ما أمكنها.. فإن الأسطورة أيضا تبقى سابحة في ملكوت الخيالات المجنحات طاردة عوامل فنائها وكل ما يحد من اتساعها حتى يؤطرها التَّبْتُ من خلال تدوينها لتكون بالتالي مرآة للشعب الذي ابتدع نواتها وللشعوب التي شاركت في صياغتها وأضافت إليها من عندياتها.

---

(١) انظر ملحمة جلجامش. طه الباقر.

شخصية جلجامش

عينة كونية تتمتع بقدرات كمونية خارقة، فرد جبار استنفذ حدود الممكن فتاق يبغي المستحيل. (جامع للمتناقضات، مرة تراه ظالماً مستبداً.. وأخرى واعظاً حكيماً وثالثة مغامراً جسوراً. غير واضح المعالم) .. لا نعرف كيف صار بشرياً وإلهياً في آن معاً. وأنا لا أبغي من وصفي هذا رسم شخصية، حيث نوهنا قبل قليل أن الأسطورة.

لا تخضع للمنطق وإنما قصدت بهذا التوصيف إعطاء فكرة عامة عنه قبل أن أتحدث عنه كطرف ضمن معادلتين على الصعيدين الداخلي والخارجي.

فعلى الصعيد الداخلي: كان هو طرف المعادلة الأول وطرفها الثاني كان الشعب في البداية ثم صار (أنكيدو) الطرف الثاني بعد تعرفه عليه وقد استمد (جلجامش) قوته في المعادلة الأولى من مصادر أربعة ـ من قوته البد نية التي تكاد تصل إلى درجة التفرد منذ نشأته والتي تشكلت منها (أناه) الواحدية التي فاقت (النرسيسية).

ـ من طاقته الإلهية.. إذ كان ثلثاه إلهاً وثلثه بشراً. ومن يملك طاقة إلهية غير عادية قلما يستطيع أن يتغلب عليه كائن انساني ولو كان غير عادي.

ـ من حاكميته المطلقة حيث كان ملكاً فرداً مستبداً مقتدراً غير عظيم[1] مطلق الحرية فيمن شاء وكيف يشاء. (والحرية المطلقة ـ كما يقول/اللورد أكتن/: ـ مفسدة مطلقة). الحرية المقيدة محذوفة من قاموس مفرداته وأساسيات حياته.

ـ استمد قوته بشكل غير مباشر من شعبه المتخاذل المسكين الوداع المستكين الذي إذا بلغ به اليأس غاية مداه اكتفى بشكوى حاكمه وظالمه إلى السماء. ناهيك عن أن بعضهم قد تطوع من تلقاء ذاته وأبلغه بقدوم (أنكيدو) ليكون من (أنكيدو) على حذر (مثال الصياد وأبيه) وهذا يذكرنا بقول الشاعر(خليل مطران):

كـــل قـــوم صـــانعو نيرونهـــم　　　قيـــصر قيـــل لـــه أم قيـــل كـــسرى

---

(١) المقتدر: قد يكون مقتدراً بذاته أو عن طريق أدوات قمعية تكسبه القدرة. أما العظيم فعظمته تنبع من ذاته وإمكاناته الشخصية وليس من صفاته الظلم.. لذا.. فإن كل عظيم هو مقتدر لكن ليس كل مقتدر بعظيم.

كما أن شيوخ (أوروك) قد طلبوا منه السير خلف (أنكيدو) ليكون (انكيدو) بمثابة(فوج هندسة) في العصر الحديث مضحياً بنفسه في سبيل سلامة مليكهم المقتدر الظالم (جلجامش) وحتى عندما بلغ الصراع أشده بين الجبارَيْن فقد وقف الشعب من الصراع موقف المتفرج. هذا الشعب الذي فرح أشد الفرح بقدوم (أنكيدو) ليكون قوة تحدّ من جبروت وطغيان (جلجامش). هذا الشعب لم يكن موجوداً على مسرح الفعل لحظة وجوب وجوده وكأنه غير معني بالأمر وأن الرابح والخاسر عنده سيان. إذ لم يحاول أي واحد منهم توجيه دفة الصراع لصالح الشعب من خلال مساعدة ما يقدمها (لأنكيدو) وكأن هذا الشعب قد اقتنع بأنه لا يستطيع قهر قوي، والأَوْلى له أن يبقى(استاتيكياً= سكونياً) ونسي أنَّه يستطيع نصرة ضعيف.. فكيف بهذا الشعب لو نصر(انكيدو)الجبار؟! ولو أنه ساعد (أنكيدو) لحظة احتدام الصراع لا ستطاع أن يحدث تغييراً نوعياً في معادلة السلطة والشعب. إلا أن هذا الشعب فيما يبدو كان ينتظر خلاصه على يد غيره بلا ثمن ولا تضحيات، وإن شعباً ينتظر خلاصه على يد غيره. لهو شعب مآله لانتهاء وفناء، وكأني (بأنكيدو) بعد انتهاء الصراع مع (جلجامش) عندما كان مستلقياً على الأرض قد مسح ذلك الشعب الملتف حوله والمتخاذل حتى درجة الإمّحاء.. مسحه بنظرة فاحصة ساخرة ساقطة وكأنه يقول له: إن شعباً أتقن لغة (الصمت بل السكوت) يستحق أن يفعل به (جلجامش) ما يشاء. استجمع (انكيدو) قواه وخاطب (جلجامش) بجملة وكأنها خلاصة الخلاصات قائلاً: (يا جلجامش).. لقد رفع (إنليل) رأسك عالياً وقدر عليك الملكية على البشر.

أما على الصعيد الخارجي: فلقد كان طرف المعادلة الثاني هو العفريت (خمبابا) حارس غابة الأرز[1] إذ بعد أن تجرأ على (جلجامش)، ولأول مرة في تاريخ حكمه، رجل صارعه في الساح على مرأى ومسمع، وهذا الموقف لوحده بالاستغناء عن نتائجه، كفيل بإسقاط قدره وقدرته في أعين شعبه مادياً ومعنوياً. وقد أدرك ذلك (جلجامش) تمام الإدراك.

---

(١) **يقال: إن سورية هي بلد الأرز الأول كما أنها البلد الأول في زراعة الزيتون.**

كما أدرك أن هناك قوة قد انوجدت في (أوروك) تماثله بأساً متمثلة (بأنكيدو) الممثل للشعب ولم يعد بعد وجود هذه القوة مطلق اليد في كل شيء. كما شعر ضمناً بموقف شعبه السلبي لحظة احتدام الصراع بينه وبين (أنكيدو) إذ لم يتقدم احد من رعيته للدفاع عنه لذا فقد وجد (جلجامش) أن من صالحه وضع استراتيجية جديدة يستطيع أن يفرغ من خلالها شحنته السلطوية ومخزون قوته الجبارة فهداه تفكيره إلى أن يوجه نظره إلى خارج أسوار (أوروك) فاختار صراع (خمبابا)[1].

صحيح أن (خمبابا) قوة لا ترد وجبروت لا يحد إلا أن (جلجامش) أيضاً ـ على الرغم من أنه أقل قوة ـ كونه إلهياً وبشرياً إلا أنه أيضاً قوة لا يستهان بها. ألم يصمم على لقاء (خمبابا) لوحده قبل موافقة (أنكيدو) على مرافقته ؟ فكيف بهذه القوة وقد أضيف إليها قوة (أنكيدو) لتولد من اتحادهما قوة جديدة تقف في وجه (أحادي القطبية ـ خمبابا). ولو قدر للصراع بينهما أن يقع لشهدنا معركة لاهبة تحرق الأخضرين لا يمكن مقارنتها بالصراع الذي احتدم بين (جلجامش وأنكيدو) من قبل على الرغم من أنهما (اقتتلا كثورين وحشيين هائجين وكسرا لحظة عراكهما قائمة الباب وارتج من صراعهما الجدار). إلا أن يد العناية الشمشية ـ من مبدأ الجبرية والقدرية ـ حيث يشكل القدر طرفاً في الصراع، قد تدخلت وحسمت الصراع بلمح البصر لصالح القوة المتحدة فأرسلت ريحاً صرصراً عاتية شلت حركة (خمبابا) وأزالته عن مسرح الوجود.

لغز الحياة والموت عند جلجامش: اعتقد السومريون أن الموت شبيه النوم ولما طلب (أوتونابشتيم) من (جلجامش) أن لا ينام ـ وهو يعرف مسبقاً أنه سينام ـ ولقد طلب منه ذلك كما يقول كتاب (منعطف المخيلة البشرية بحث في الأساطير). ليقول له: إنك (يا

---

(١) تخبرنا الروايات أن ملك كيش (أجا) شعر بنوايا (جلجامش) التوسعية وقام بمهاجمة (جلجامش) وأعطاه مهلة محددة للاستسلام والخضوع وإلا فإنه سيدمر اوروك، لكن جلجامش بعد موافقة شعبه رفض الإنذار الموجه إليه فقرر المقاومة والدفاع عن مدينته فقام الملك (أجا) ملك (كيش) بتجميع جيوشه وحاصر (أوروك) حصاراً لم يدم طويلاً نتيجة اتفاق تم بين الملكين (جلجامش) و(أجا)، اتفاق نجهل مضمونه. انظر كتاب هندسة المبنى في السرد الأسطوري في ملحمة جلجامش. د. قاسم المقداد ط١/ دار السؤال. دمشق.

جلجامش) لا تستطيع مقاومة النوم.. فكيف تستطيع مقاومة النوم النهائي؟ ولعل تشبيه النوم بالموت نستشفه من خلال الآية الكريمة التالية (هو الذي يتوفاكم في الليل ويعلم ما جرحتم بالنهار) يس/٣٧/ ألم يسمِّ أجدادنا النوم بـ (الموتة الصغرى)؟..[١]

لقد كان الناس ـ قديماً ـ يموتون في عز شبابهم نتيجة المخاطر والأهوال المحدقة بهم ولم يدرك الأحياء من حولهم أن الموت ظاهرة طبيعية كما يقول (ول ديورانت) في كتابه (قصة الحضارة) وأن الموت قدر إلهي على البشر إلا أنه بعد أن انتقل الإنسان إلى مرحلة الاستقرار النسبي صار الموت شغله الشاغل لأنه أدرك أن لا محالة فانٍ، وأنه عائد إلى رحم أمه الأرض كما تقول (آنيا تيار) في كتابها (الأحلام)/١/. قال (نيتشه): (حذار من القول إن الموت مضاد للحياة). ولئن كان الموت عند (شوبنهور) هو الموضوع الأساسي للفلسفة فإن الفلسفة برمتها عند (أفلاطون) هي تأمل للموت. أما (سقراط) فقد قال: (علينا أن نغتم بالحياة ونفرح بالموت لأننا عشنا لنموت ونموت لنحيا) وحري أن نقف عند تساؤل (أبيقور) في هذا الصدد عندما قال: (نحن لا نخاف الزمن الذي يسبق وجودنا.. فلماذا نخشى الزمن الذي يلي موتنا؟ فإذا أتى الموت.. لم أعد موجوداً.. وإذا كنت موجوداً فالموت غير موجود).[٢]

محاولة الهروب من الموت: رغم أن الموت قدر محتم وهو ضريبة الولادة فلقد حاول الكثيرون التخلص من هذا القدر. لقد حاول (دهاق الفارسي) كما يروي (الأفستا) في (الأبستاق) العثور على شجرة الخلد فطاف شرقاً وغرباً ولم يتمكن من العثور على تلك الشجرة. ولقد حاول (أفرسياب) التركي سد سائر منافذ شقوق قصره إلا أن الموت قد دخل عليه متخطياً سائر الحدود والسدود. لقد فعل الكثيرون كما فعل (جلجامش) إلا أن كلاً منهم عاد خالي الوفاض مستسلماً لقدره. ألم يقل السيد المسيح: (في صميم الحياة تكمن خميرة الموت)؟ وقال(بولس) (بموتكم تتوحد

---

(١) ولعل اللوح الثاني عشر بعد سقوط الآلتين الموسيقيتين(بكو) و(مكو) يعبر أصدق تعبير عن حياة العالم السفلي /٢/ - لغز عشتار. فراس السواح. ص /١٨١/.

(٢) من وجهة نظر إسلامية هذا التساؤل مرفوض لأن المرء سيحاسب على أعماله (يوم تجزى كل نفس ما كسبت) لذا فإن ما قبل أمر مختلف جداً عما (سيلي موتنا).

حيواتكم مع المسيح في الرب).

ألم يقل الشاعر:

وإذا المنيــــة أنــــشبت أظفارهـــــا	**ألفيـــت كـــل تميمـــة لا تنفـــع**

وقول طرفه بن العبد:

لعمـرك إن المـوت مـا أخطـأ الفتـى	**لكــالطِّوَلِ المرخــى وثِنيــاه باليـــد**
متــى مــا يــشأ يومــاً يقــده لحتفــه	**ومـــن يـــك في حبـــل المنيـــة ينقـــد**

ولقد وردت كلمة (الموت) ومشتقاتها في القرآن الكريم /١٦١/ مرة[1] مما يدل على أن الإسلام قد أولى الموت اهتماماً خاصاً. (أينما كنتم يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) (إنك ميت وإنهم ميتون)(كل من عليها فان). ولقد حاول (جلجامش) قطف ثمرة الخلود ليجعل من ثلثه البشري ثلثاً إلهياً حتى يغدو بالتالي إلهياً كله ليتخطى جذب الموت بحيث لم تعد تنطبق عليه عوامل الفناء لامتلاكه أكسير الحياة الذي يدفع عنه قدره الفاني، إلا أنه أدرك أخيراً أن الخلود هو خلود المنجز الإنساني. ولعل سر الخلود كان محور الأساطير في الديانات الرافدية وآدابها حتى أن (آدم) قد أنزل إلى الأرض قبل أن يهتدي إلى شجرة الخلد بعد أكلة من شجرة المعرفة المحرم عليه أكلها ـ كما يقولون ـ وعلى سبيل التندر: قيل لأحدهم: مالك لا تجاهد؟. فقال: (والله إني أكره الموت وأنا على فراشي فكيف أسعى إليه على قدمي؟).

البعث بعد الموت: آمن السومرين بالحياة بعد الموت وأن موتاهم سيعيشون في العالم السفلي مع (كور) كما آمن البابليون بأن موتاهم سيعشون في العالم السفلي مع (أريشكيجال). وكان الكنعانيون يؤمنون أن البكاء على (أدونيس) وتمثيل عذاباته وموته سوف يعينه على فك قيوده والصعود به من عالم الموتى.ذلك أن العلاقة بين الإنسان القديم والآلهة لم تكن علاقة اعتماد على طرف واحد بل كانت علاقة اعتماد متبادل. والمصريون أيضاً آمنوا بالبعث بعد الموت فلجأوا إلى تحنيط موتاهم ووضعوا معهم كل المستلزمات التي يحتاج المرء إليها حين عودته ثانية إلى الحياة

---

(١) انظر الموت في الديانات الشرقية. حسين العودات ص /٣٣/١/./ ص. /٢٠-٢١/.

فقالوا في (الكا) و(البا):

ـ **الكا:** من مستلزمات البشر وهي الجزء الأثيري في الجسم تلازمه في المقبرة وترجع إليه متى فني الجسد.

ـ **البا:** هي الجزء الحي الذي يترك الجسد عند الوفاة محلقاً نحو الآلهة ثم تهبط وتلتصق بالجسد، لذلك كانوا يتركون فتحة في قبور موتاهم لدخول وخروج (الكا) و(البا).

ـ **وفي المسيحية:** يقول السيد المسيح: (من آمن بي ولو مات فسيحيا) (كل من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد) انجيل يوحنا /١١/

ـ **وفي الجاهلية:** على الرغم من وجود بعض الحنفاء الذين تألهوا قبل الإسلام ((أي قالوا: لا إله إلا الله)). فقد كان البعض منهم ينكر البعث بدليل الآية القرآنية (إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) وخاطبهم القرآن الكريم قائلاً: (أفحسبتم أنا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون).

لقد أكد الإسلام على البعث بعد الموت (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) و(يوم تجزى كل نفس ما كسبت) و(يوم يبعث من في القبور) و(السلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً) و(ثم أنكم بعد ذلك لميتون وأنكم يوم القيامة تبعثون) (إنا إلينا إيابهم. ثم إنا علينا حسابهم) كما اعتقد اليونان بأنهم سيعشون بعد الموت مع (هاديس) وأنهم سيحاسبون على أعمالهم التي اقترفوها في حياتهم. وهناك أسطورة رواها (جان بران) في كتابه (أفلاطون والأكاديمية) تقول: (إنه في عصر (كرونوس) وبداية حكم (زيوس) كان الأحياء الباقون يحاكمون الأحياء الذاهبين إلى الموت قبل موتهم، ولا يصدرون حكمهم عليهم إلا في اليوم الذي سيموت فيه هؤلاء. ولم تكن أحكامهم عادلة فقرر (زيوس) أن يبدل الطريقة فحرّم في البداية على البشر معرفة الساعة التي بها يموتون، ثم صاروا يحاكَمون عراة بعد موتهم كي لا يؤثر ثراء ملبسهم على القاضي الذي يحاكمهم. وأخيراً لم يعد البشر هم الذين يحاكِمون من سيموتون بل يحاكمهم قضاه عراة موتى مثلهم. لقد استطاع الإنسان التفوق على سائر الكائنات حتى بعد موته إذ إن كثيراً ما يوصي البشر بعد موتهم بممتلكاتهم ـ منعاً أو منحاً ـ

لأحد ذويه أو المقربين إليه وتتطبق وصيته بعد وفاته.

والطريف في الأمر: أن الأقدمين كانوا يعتقدون بإمكانية إرسال رسالة إلى الموتى عن طريق الأحياء إذ كان الملك يأتي بعبد ويلقنه فحوى الرسالة حتى يحفظها ثم يقطع رأسه ليوصل الرسالة إلى عالم الأموات، وكثيراً ما كان ينسى الملك بعضاً منها فيأتي بعبد آخر يلقنه ما نسي ويكون بمثابة ملحق للرسالة الأولى فيقطع رأسه ليلحق بالأول ليبلغ الموتى فحوى ما حمل. (ومرة كان لدى الملك وزير لئيم حقود كاره لكل من لم يطعه طاعة عمياء فكان كلما حقد على احد ذكره للملك ليرسل عن طريقه رسالة إلى الأموات بالطريقة السابقة، وذات يوم كانت لدى الملك رسالة مطولة يريد أن يرسلها إلى الأموات فلم يجد أفضل من وزيره حنكة وفهما وذكاء.

فكان الوزير في هذه المرة هو الرسول والرسالة.. وكانت القاضية).[1]

فكرة الموت عند جلجامش: لسنا بصدد التناقض الذي وقعت فيه الملحمة. إذ أن من يقرأ جمل (جلجامش) بعد فقده لصديقه (أنكيدو) يتوقع أن (جلجامش) لم يكن يعرف الموت من قبل إلا أنه عندما يقرأ الملحمة يجد أن (جلجامش) قد خاطب (أنكيدو) حين حذره (أنكيدو) من ملاقاة (خمبابا) قائلاً له: (الآلهة هم الخالدون في مرتع شمس. أما البشر فأيامهم معدوات على الأرض وكل ما فعلوا لهو ولعب) لقد حاول (جلجامش) تجاوزما قاله طاغور: (آه يا روحي.. لا تطمحي إلى الخلود بل استنفذي حدود الممكن) لكن السؤال الجوهري هنا: لم هز الموت (جلجامش) من الداخل بعد وفاة (أنكيدو)؟!!! هل لأنه شعر بالوحدة؟! لا أبداً.. فلقد كان فرداً واحداً لا واحد إلاه قبل ظهور (أنكيدو) والفارق بين الحالتين هو التالي: يقول باسكال (إنني في حالة جهل تام بكل شيء فكل ما أعرف هو أنني لا بد أن أموت يوماً ما... ولكنني أجهل الموت الذي لا أستطيع تجنبه).

لقد كان الموت بالنسبة (لجلجامش) كما هو بالنسبة لـ (باسكال) يعرف الموت لكنه لا يستطيع تحديده ولا إدراك كنه جوهره. أقول يعرف وكلمة يعرف تخضع لسلطان المعرفة التي تنتمي إلى الفكر، وبالتالي فإن الموت كان مرتسماً في حاسة

---

(١) فكرة نهاية الوزير، كانت من عندي وقد أضفتها لتكون بمثابة نص مسرحي، أقوم بتأليفه.

شعوره وفكره.. يتذكره أحياناً مثلنا جميعاً، نعرف أن الموت لا بد من أن يدركنا عاجلاً أو آجلاً، إلا أنه عندما نفقد غالياً فإننا نبكيه بكاءً مراً وقد نبكي من خلال بكائنا عليه (المتوفى فينا مستقبلاً) إلا أنه ـ وفي هذه اللحظات بالذات ـ ينتقل الموت ـ بالنسبة إلينا ـ من سدة الفكر إلى عتبة الحس، وهنا تكمن الإجابة، فلقد انتقل الموت ـ بالنسبة (لجلجامش) ـ بعد وفاة صديقه (أنكيدو) من سدة الفكر ودخل فلك الحس، والفارق جد كبير بين الفكر والحس. يقول (هوراس): (الحياة ملهاة لمن يفكر.. ومأساة لمن يحس).

أنكيدو: قوة جبارة خام غير مؤدلجة مرت بمرحلتين:

ـ المرحلة الحيوانية: يوم كان يأكل العشب مع الظباء. كان سريعاً لا يشق له غبار. عظم منكبيه كعظم وحش. يخاف منه كل من يراه. يكسو جسمه الشعر.. جدائل شعره كشعر (نصابا ـ إله الحبوب والغلال) ولباس جسمه مثل (سموقان ـ إله الماشية).

ـ المرحلة الإنسانية: إذ استطاعت البغي أن تخرجه من حظيرته الحيوانية وتدخله الدائرة البشرية الإنسانية وبالتالي فقدت هذه القوة الجبارة الخام جزءاً كبيراً من قوتها يوم خسرت حيوانيتها وربحت إنسانيتها حيث تحول جزء كبير من القدرة الجسدية إلى قوة معرفية (خسارة مادية لقاء ربح معنوي)، ولو كان صراع (أنكيدو) مع (جلجامش) يوم كان حيواناً لكان لنتائج اللقاء بينهما شأنٌ آخر.

إن الحيوانات ـ بعد أن ذاق (أنكيدو) اللذة العظمى على يد البغي ـ صارت تخاف (أنكيدو) رغم أنه كان واحداً منها فقد أدركت بحسها الغريزي أنه لم يعد من فصيلتها ولما هم باللحاق بها خانته قواه ولم يعد يستطيع العدو كأمسه الحيواني نلحظ هنا مستنتجين:

- أن (أنكيدو) خلق مباشرة من الطين بعكس (جلجامش) الذي ولد من أبوين.
- التروي وعدم الإفراط في المتع والملذات الجنسية. إذ بعد أن ضاجع (البغي) ستة أيام وسبع ليال لم يعد قوياً كالأمس. والحياة الجنسية ليست بالطليقة من كل قيد حتى في عالم الحيوان كما يقول (ول ديورانت)[1] إذ ترفض أنثى الحيوانات الذكر ولا

---

(١) قصة الحضارة. ص./٧٩/.

تقبله إلا في فترات التهيج أما الإنسان فيختلف عن الحيوانات كما يقول: (بومارشيه) (الإنسان يأكل بغير جوع ويشرب من غير ظمأ ويتصل بالجنس الأخر في كل فصول السنة). إي يمارس الجنس على مدار العام ولهذا عليه إدراك هذه المسألة.
ويذكرنا ذلك بقول الشاعر:

واحفظ منيك من الفناء فإنه ... ماء الحياة يراق في الأرحام

- لقد دخل (أنكيدو) عن طريق الخبز والخمر والجنس دائرة الإنسانية بينما الكثير من الناس يخرجون من إنسانيتهم عن طريق الخمر والجنس لتمارس حيواتها بشكل وحشي.

- إحساس (أنكيدو) بمسألة الزمن. الحيوانات لا ماضي ولا مستقبل لها.. إنها آنية الحس والتصرف لكن بعدما غدا (أنكيدو) إنساناً وبلغ به المرض مبلغاً عظيماً بدأ يلعن الصياد الذي قاده إلى (البغي) ويلعن (البغي) التي قادته إلى (أوروك) حيث استنشق عن طريقها عبق المرأة السحري وذاق طعم حلاوة المدنية وأدرك لذة الكشف فأحس بدنو أجله وأنه لم يعد يملك متسعاً من الزمن ليتمتع بلذيذ الحياة.. فصار يعض أصابع الندم على ماض لا ألذ ولا أحلى إلا أنه صار حلماً لماض لن يعود. **((وإدراكه للماضي والراهن هو إدراك لمسألة الزمن))**

ـ الحيوانات آكلة العشب: إذا كان الماء قاسماً مشتركاً بين الإنسان والحيوان والكائنات كلها فإن الإنسان والحيوان لا يتفقان في تناول سائر الأطعمة بل حتى الحيوانات فيما بينها لا تتفق على تناول طعام واحد.. فالطعام مختلف ألوانه ومختلفون آكلوه.

- ولقد كان (أنكيدو) كما تخبرنا الأسطورة آكلاً للعشب مع الظباء ولم يكن يقتات باللحم الحيواني الذي قد يصعب ترويض آكله أحياناً كما أنه لم يكن يقتات باللحم الإنساني وإلاَّ لكان من المستحيل ترويضه. لهذا سهل على (البغي) ترويض (أنكيدو) لتقذف به في وجه (جلجامش) لأن الحيوانات آكلة العشب مسالمة بطبيعتها ولذا فإن كثيراً من الزهاد والنساك والفلاسفة قبل (المعري) وقبل (كونفوشيوس) اكتفوا بأكل ما تنتجه الأرض فكانوا

(نباتيين) فحرموا على أنفسهم حتى أكل اللحم الحيواني الحلال . وموقفه وهو على فراش الموت حين قال (يا صاحبي لقد حلت بي اللعنة ، فلن أموت ميتة رجل سقط في ساح المعركة) ألا يذكرنا هذا القول بقول خالد بن الوليد (ر) حين قال: (ليس في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح، وها أنذا أموت على فراشي كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء)؟.

البغاء المقدس: ((يا أخت هارون ما كان أبوك امرء سوء وما كانت أمك بغيا)) قرآن كريم

لا يمكن أن نقيس بمعيار أخلاقي واحد مصطلحاً أو مفهوماً وجد في حقبتين وبيئتين مختلفتين بينهما من البعد الزماني والمكاني ما بينهما. إذ أن للزمان والمكان دوراً هاماً في تغيير كثير من المفاهيم والمصطلحات. فكلمة (العصابة) مثلاً... مصطلح كان يطلق على ثلة الشرفاء كقول الشاعر (لله در عصابة نادمتهم....) ثم تحول المصطلح فصار يطلق على (قطاع الطرق) ولعل كلمة (البغاء) تؤكد ما نقول بشكل أعمق. إذ عندما تبدت عجائب جسد المرأة للإنسان القديم.. تصور أن هذه العجائب مرتبطة بالقدرة الإلهية (فقدس الدافع الجنسي واعتبره قبساً إلهياً يربطه بالمستوى النوراني الأسمى). ولم يكن الفعل الجنسي عنده متعة فردية ونشاطاً معزولاً ، بل كان طقساً يربط الإنسان المتناهي بالملكوت اللامتناهي. وبما أن الجنس قديماً يشارك في دائرة المقدس كما يقول (ميرسيا ايلياد) فقد كانت النساء البابليات تقضي كل واحدة منهن يوماً في الهيكل لممارسة البغاء المقدس بدافع رغبة العطاء من الذات نيابة عن كل النساء وعلى كل امرأة في معبد (عشتار) أن تستسلم لأول غريب يطلبها فتأخذ منه أجراً رمزياً غير محدد وتسلمه إلى الهيكل هبة منها لآلهة الحب وتوكيداً على انعدام الأهداف الغريزية لفعلها الجنسي. ولم تكن المرآة بقادرة على أن تعود إلى بيتها قبل أن يمر بها ذلك الغريب. ولذا كان فناء المعبد مليئاً على الدوام بنسوة في الانتظار ولربما قضى بعضهن سنوات قبل أن يقع عليهن اختيار أحد. ألم يفخر (شاروكين ـ صارغون)[1] بأنه ابن (بغي مقدسة) حين قال: (أمي كانت إحدى

---

(١) **مؤسس أول إمبراطورية عظيمة امتدت من حدود (إيران) حتى شواطىء المتوسط أواسط القرن /٣/ ق.م.**

كاهنـات المعبـد، ولم أعـرف لـي أبـاً. وضـعتني أمـي في سـلة وأحكمـت غطاءهـا ثـم أسلمتني للنهر الذي حملني، التقطني (آكـي) نـاظر مـاء القـرابين وتبنـاني: ربـاني حتـى شبيت فصرت أعني ببستانه، هنـاك رأتني (عشتار) فـأحبتني وجعلتني ملكـاً)[1] لقـد كانت بكارة المـرأة كمـا يقـول (ول ديورانـت)[2] ملكـاً للآلهـة (عشتار) حيـث كانـت تهب عـذريتها في المعبـد حيـث ممارسـة (البغـاء المقـدس) تحـت رعايـة إلهيـة قبـل أن تلتـزم الحياة الزوجية. كمـا عنـد الفينيقـيين أن علـى كـل فتـاة أن تخـدم في معبـد (أفروديـت) كبغـي مقدسـة تعطـي جسـدها للغربـاء فـترة مـن الـزمن قبـل أن تتـزوج حيـث كانـت تمارس (البغاء) بكل أبهة الطقس الديني. ويروى أن (سيرينياس الفينيقـي) ملـك قـبرص الأسطوري هو الذي أوجد هذه الطقـوس عنـدهم وكانـت بناتـه بمثابـة(بغايـا) في المعبـد. إن البغاء المقدس كـان شـائعاً في سـائر حضـارة الشـرق القـديم يقـول (هيرودوتـس): (إن كل الشعوب القديمة ـ ماعدا الإغريق والمصريين ـ كانـت تمـارس الجـنس المقـدس في المعابد)[3]. تقول (عشتار) عـن نفسـها: (أنـا العـاهرة الحنـون)[4] (أنـا مـن يـدفع الرجـل إلى المرأة والمرأة إلى الرجل). ولقد كـان العـرب في جـاهليتهم يعتقـدون أن (العـزى = الزهـرة) مثيرة للجنس والشهوة وقد لعنهـا الرسـول (ص) وأسماهـا الحمـيراء يقـول (ص): (طلعـت الحمـيراء فـلا أهـلاً ولا سـهلاً) إلا أن الإمبراطـور البيزنطـي (قسطنطين) ألغـى (البغـاء المقدس) في بعلبك وهدم معبد (عشتار) وبنى فوقه كنيسة.

ويضيف المؤرخان (هيرودوتس وسترابو) في فترة نضج المجتمع الـذكوري الإغريقـي أن العـروس في ليلـة زفافهـا كانـت تـضاجع كـل مـن يجلـب لهـا هديـة زواج فكانـت تضاجع أقارب العريس دفعة واحدة مبتدئة بأكثرهم قرابة فإذا انتهى الأقـارب جـاء دور الأصدقاء وأخيراً يأتيها عريسها لأول مرة فتصبح صالحة للاتصال الزوجـي[5] وفي هـذه الممارسة توكيد على حق القبيلة قبل حق الزوج الذي يحتكر جسدها طيلة حياتها لأن

---

(١) نرى أن قصة وضعه في صندوق من قبل أمه ووضعه في النهر تشابه قصة (موسى)/ع/.

(٢) قصة الحضارة ج٢ ص/٤٠/.

(٣) لغز عشتار. فراس السواح. ص/١٩٣/.

(٤) المصدر نفسه ص/١٩١/.

(٥) قصة الحضارة ص/١٩٢/.

الأقدمين يعتقدون أن المرأة لم تعط كل جمالها وفتنتها لتبلغ أرذل العمر في أحضان زوجها. والزواج كما يقول (ول ديورانت)[1]: هو من ابتكار أجدادنا الحيوانات وهو أعمق في التاريخ من الإنسان ومفهوم الزنى لم يأت إلا في وقت متأخر[2]. (**ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً**) قرآن كريم، وما البغي التي روّضت (أنكيدو) إلا بمثابة رسولة (عشتار) لأنها قامت بدورها التي رسمته لها الملحمة (علّميه وظائف المرأة) ولقد لعبت دورها ضمن خطة مؤدلجة كون المرأة هي المعلم الأول في التاريخ الحضاري فأحدثت في (أنكيدو) قفزة نوعية من خلال نقله من الهمجية إلى الحضارة.

الخبز: (علام يا (أنكيدو) تلعن البغي؟.. تلك التي علمتك كيف تأكل الخبز اللائق بالألوهية) (كل الخبز يا (أنكيدو)... فإنه مادة الحياة). (من الملحمة)

علّمنا أهلنا مذ كنا صغاراً احترام الخبز فإن وجدناه مرمياً على الأرض علينا أن نحمله ونضعه في مكان مرتفع بعد تقبيله تقبيلاً يصل إلى مرحلة التقديس أما إذا لمسناه بأرجلنا ولو كان ذلك سهواً أو عَرَضا فعلينا أن نتضرع ونستغفر والويل لنا إن لم نفعل ذلك، لكنهم ما علمونا أن نرفع مثلاً قطعة البطاطا ونقدسها كما نقدس قطعة الخبز على الرغم من أنهما طعامان يدخلان في ما يسمى بـ (النعمة) بعدها بلغنا مرحلة اليفاعة واستمر احترامنا وتقديسنا للخبز وقد أضفنا إلى السبب الأول الذي ذكرناه سبباً آخر حيث بدأنا نتصور جهد الفلاح ابتداء بحراثة الأرض فبذارها فريِّها حتى تغدو الحبة سنبلة ثم حصادها فدرسها فطحنها فعجنها فخبزها ولا تصل إلينا لقمة الخبز إلا بعد عملية صعبة مركبة يذوق الفلاح من خلالها الأَمـرَّيْن ويبذل دم قلبه من أجل وصولها إلينا. لكن بعد أن أخضعنا الأمر للدراسة والتحليل تبين لنا أن القمح يعود تقديسه إلى أيام ضاربة جذورها في أعماق التاريخ.إذ عندما اكتشف الإنسان القمح البري بدأت مرحلة استقراره النسبي ودخل الخبز في نظامه الغذائي وغيّر من عاداته الاجتماعية ونمط تحركاته السكانيّة فآثر حياة الاستقرار وكان الرغيف برزخاً عبر الإنسان من خلاله من المرحلة الهمجية إلى المرحلة الحضارية.

---

(١) قصة الحضارة ج٢/ ص /٦٦-٦٧.

(٢) دراسات إسلامية معاصرة. د. م احمد شحرور. ص/٥٤/.

تروي أسطورة الآلهة الابن أن اكتشاف الزراعة في العصور النيوليتية لم يكن نتيجة فعل بشري بل نتيجة عون سماوي.

وسنبلة القمح الأولى التي زرعتها لم تكن سوى جسد الإله الابن القتيل التي أرسلت به الأم الكبرى إلى العالم السفلي. فهو الإله الميت الحي الذي يهبط إلى باطن الأرض في الخريف ثم يعود متشحاً بخضرة الربيع مكملاً دورة حياته السنوية التي تركزت حولها حياة المستوطنات الأولى وديانتها وطقوسها.

و(عشتار = عيش الأرض) لم يكن هبوطها إلى العالم السفلي موتاً ولم يكن صعودها بعثا لأنها سيدة العالمين معا. تمكث في العالم العلوي جزءاً من السنة تهبه الخبز والبركة والحياة ثم تهبط إلى العالم السفلي في جزء السنة الأخير لتحكم مملكة الأموات تاركة عالم الأحياء في جفاف[1].

كما أن (أوزوريس) كما تقول الأساطير المصرية القديمة هو أول من نقل المصريين من مستوى الوحوش البدائية إلى مستوى البشر وذلك عن طريق تعليمهم زراعة القمح وأكل الخبز، وقد دعى المصريون (إيزيس) (إيزيس الخضراء سيدة الخبز) (ودعاها اليونان سيدة السنابل) وفي الأساطير الإغريقية نجد أن (ديميتر = هي آلهة الحبوب) بعامة والقمح بصورة خاصة. وهي التي اكتشفت زراعة القمح لكن ربيبها الشاب (تربتليموس) هو الذي قام بنشره في شتى أنحاء العالم بتوجيهها ومساعدتها، وقد دعوها بالآلهة الشقراء كناية عن سنابل القمح الصفراء الناضجة. إن اكتشاف (ديميتر) لزراعة القمح ونقلها إلى البشر ليس إلا إشارة إلى كونهاهي نفسها روح القمح القديمة فكانوا يدعونها بـ (آلهة القمح وسيدة السنابل). و(سيريس) عرفت أيضاً بـ (أم المحاصيل) والتي لعثورها على ابنتها (بيرسفوني) أعطت الناس قمحاً وخبزاً بعد أن كانوا يلتقطون جذور البلوط البسيط طعاماً.

تقول الأسطورة: لقد خطف (هاديس) (بيرسفوني) فسمعت أمها (ديميتر) صرخات ابنتها فهبت لنجدتها ولما عجزت عن معرفة مكانها حيث التحمت الأرض فور نزولها إليها أشارت إليها(هيقات) أن تستشير الآلهة (هيلوس) فأخبرتها بما فعل

---

(١) لغز عشتار. فراس السواح.ص/١١٨.

(هـاديس) فقـررت (ديمـيتر) الانتقـام مـن مجمـع الآلهـة لـسماحهم بمـا حـدث لابنتهـا، فمنعت قواها الإخصابية عن الأرض فتحولت إلى حقول مالحة ثم جاءها الآلهة واحداً واحداً وعلى رأسهم (زيوس) كبيرهم يرجوهـا أن ترفـع لعنتهـا عـن الأرض فاشـترطت عودة ابنتها. أمر (زيوس) (هرمز) أن يمضي إلى (هـاديس) ليبلغـه برجـوع (بيرسفوني) إلى أمهـا فـأطلق (هـاديس) (بيرسـفوني) لكنـه أعطاهـا طعامـاً يعيـدها إلى العـالم السفلي فور خروجها. عرفت (ديميتر) بأمر الطعام فلم تنفذ وصيتها ثم اتفق الجميـع علـى أن تقـضي (بيرسـفوني) مـع زوجهـا (هـاديس) في العـالم الـسفلي جـزءاً مـن الـسنة وجزءاً مع أمها (ديميتر) في العالم العلوي، وعنـدما أعطـت (ديميتر) أوامرهـا للطبيعـة صـارت تتحـول (ديمـيتر) إلى (بيرسـفوني) عنـدما تهـبط إلى العـالم الأسـفل وتتحـول (بيرسفوني) إلى (ديميتر) عندما تصعد إلى العالم العلوي وهنا نجد أن الإله (اقنومـان) في واحد وتجليان للجوهر نفسه (الأم وابنتها) ومثلما تتحـول (ديمـيتر) إلى (بيرسـفوني) و(بيرسفوني) إلى (ديميتر) يتحول قمح السنة الماضية الـذي هـبط إلى بـاطن الأرض إلى قمـح الـسنة الجديـدة الـذي خـرج مـن الأرض. إن (ديمـيتر) هـي قمـح الـسنة الماضـية و(بيرسفوني) هي قمح الـسنة الجديـدة[1]. لـذا فـإن دورة حيـاة القمـح ليـست سـوى دورة حياة الآلهة التي تقضي جزءاً من السنة في العالم الـسفلي وجـزءاً في العـالم العلـوي. إن بذرة القمح تختزل سر الطبيعة كلها وسر الحركـة الإلهيـة الكـامنـة وراءهـا يبـذرها الزارع في باطن الأرض فتظهر في الربيع ثم تتحول في الصيف إلى سنابل ناضجة.

وفي المسيحية: يقول القديس (أمبروزي) (في رحم مريم المقدس زرعت حبـة واحـدة ونحـن نـدعوها بـ (بستان القمـح). ونقـرا في انجيـل(يوحنـا) علـى لـسان الـسيد المسيح: (الحـق أقـول لكـم...إن لم تقـع حبـة الحنطـة علـى الأرض وتمـت فإنهـا تبقـى وحـدها. لكـن إذا ماتـت تـأتي بخير كـثير.. مـن يحـب نفسه يهلكهـا لأنـه في صـميم الحيـاة تكمن خميرة الموت وفي غياهب الموت تكمن بذرة الحياة). ويقول أيضاً: (أنا هـو خبـز الحياة من يقبل إلي لا يجـوع ومـن يـؤمن بـي فلـن يعطـش أبـداً) ويقـول في إنجيـل يوحنـا /٦/: (أنا هو خبز الحياة، أباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا. هذا هو الخبـز النـازل

---

(١) لغز عشتار. فراس السواح . ص/١١٩-١٢٠-١٢١/.

من السماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت. أنا هو خبز الحياة نزل من السماء إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد، والخبز الذي أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم) يوحنا /٣٥ـ٤٨ـ٥١/. فجسد السيد المسيح الذي وهبه من أجل البشرهو قمح الحياة الأبدية وفي ليلة العشاء الأخير، يقوم بتقديم جسده قرباناً للتكفير عن خطايا البشر: وفيما هم يأكلون، أخذ يسوع الخبز وبارك وأعطى التلاميذ وقال: (خذوا كلوا هذا هو جسدي) وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلا: (اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد يسفك من أجل الكثيرين لمغفرة الخطايا) **ألم يقل السيد المسيح:**

(ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان)؟ وقال تعالى في كتابه العزيز (.... مثله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة). لقد كان إله الخصب الميت (زيبي) في حضارة (الآزيتيك) بأمريكا الوسطى مازال ينشد عند اقتحام الأوريبين للعالم الجديد (ربما سأموت وأتلاشى وأغيب، أنا عود القمح الطري، ولكن قلبي جوهرة خضراء، لذا سأعود أخضر كما كنت، ولسوف يولد البطل كرة أخرى[(١)].

الزيت: (مسح جسده بالزيت فصار إنساناً) من الملحمة

سورية الطبيعية أول من عرفت زراعة الزيتون منذ أكثر من /ستة آلاف عام/ ثم انتقلت إلى اليونان عبر الأناضول ويؤكد ذلك ما وجد من جرار الزيت والزيتون في موقع (إيبلا) الأثري.

قدس الأقدمون جميعاً شجرة الزيتون مصدر الزيت الذي كان المادة ـ التي تكاد تكون الوحيدة ـ التي يستضاء بها. ولعل تقديس (البابليين) لشجرة الزيتون قد دفع شاعرهم (طالي كرناش) ليكتب قصيدة على لسان الشجرة يقول فيها: (أنا أطولكن عمراً وأصبركن على الجدب وأقواكن على ضرر القشف الكائن من العطش لأن عودي صليب دهني، وورقي ثابت لا ينسلخ عني كما تنسلخ أوراقكن عنكن وأنا التي إن أحرقت النار شيئا من أجزائي كان في رماده من المنافع والعوض ما هو أكثر من عدمي.....

---

(١) **لغز عشتار. فراس السواح ص/٢٨٧/.**

وأنا الدهنية التي دهني يشبه لون الذهب وفيه شفاء من ثمان وتسعين علة ومرض وأنا المباركة.. التي من نظر إلي كل يوم عند طلوع الشمس واحتضنني بيديه وانضم إلـي سررته وفرحته ودفعت عنه ـ بإذن الآلهة ـ يومه ذلك جميع الأوصاب والهموم والعاهات والأحزان كلها ، والخيالات الردية.

أنا اسم إلهي (زحل) الأعظم الأكبر أنا التي سكنت في كل أرض مقدسة مباركة ومن أجلي ولموضعي تقدست بعض البلدان وتباركت بعض البقاع. أنا التي يأنس بي كل مستوحش.. حزت الشرف كله، وكمل في الفضل، وتم لي الكمال. فمن عبدني فاز. ومن أعرض عني خاب). (نقلتها بتصرف) استعملها الرومان رمزاً للسلام في فتوحاتهم[1]. وبعد اكتشاف أمريكا عام /١٤٩٢/ م انتقلت زراعة الزيتون إليها. وتستطيع شجرة الزيتون التكيف مع ظروف بيئية مختلفة وقد سُمِّيَتْ بـ (**الشجرة المباركة**).

تقول أسطورة يونانية إنه في ليلة واحدة على مقربة من نبعة ماء نبتت شجرة زيتون ضخمة فأرسل الملك (عرافة دلفي) ليعرف سبب ذلك أجابته العرافة: (إن شجرة الزيتون هي الآلهة آثينا)[2] وإن نبعة الماء هي الإله (بوزيدون). لقد ذكر الإنجيل أن نوحاً/ع/ بشر باليابسة بغصن زيتون حين عادت إليه الحمامة. ألم يقسم بها المولى عز وجل (والتين والزيتون) وليس هناك أدل على عظمة هذه الشجرة المباركة مما ذكرته الآية الكريمة التالية: (اللهنور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاةفيهما مصباح المصباح في زجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور). وقال (ص): (كلوا الزيت وادهنوا به ففيه شفاء من سبعين داء ومنها الجذام) لذا فلا غرو أن نجد أن (أنكيدو) عندما مسح جسده بالزيت صار إنساناً.

الماء: ((احفر بئراً في الأصيل، ولتكن قربتك ملأى بالماء النقي على الدوام، قرب الماء البارد من شمش.. فحفر بئراً تقرباً للإله شمس)) من الملحمة.

إن ولادة كل ما في الكون من ماء كاف لإدراك سر العظمة الجلى لهذا الأكسير. (و كان عرشه على الماء) (وجعلنا من الماء كل شيء حي) هي نبض الموت بسر

---

(١) أسرار زيت الزيتون. محمد فائز أصفري. ط ١ /١٩٩٧/ ص/٦-٧-٨/.

(٢) لغز عشتار. فراس السواح. ص/٣٧/.

الحياة ومن قطراتها تخصب الأرض بالخير وتتراقص الأزهار نشاوى كأنها باقات من قوس قزح. (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت)... منها خُلِقَ الحيوان: (والله خلق كل دابة من ماء) ومن هذا العنصر السحري خُلِقَ الإنسان (فلينظر الإنسان مم خلق. خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب) ولما لاحتواء الماء على سر الخلق فقد خص الله نفسه بهذا السر المقدس وتحدى الناس بسؤاله الاستنكاري في قوله تعالى: (قل إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين؟) ولقد ذكر القرآن الكريم كلمة الماء في (ثمان وستين آية) صراحة في مواضيع مختلفة يركزبها على عملية الخلق والحياة. وكان المصريون القدماء ينادون (أوزوريس) قائلين النيل نبعه نضح يديك.. جعلوه هو والنيل شيئاً واحداً فقالوا: أنت النيل. الآلهة والبشر يحيون من جريانك.

ويقول شوقي عبد الحكيم في كتابه (الفولكلور والأساطير العربية)[1]: (لقد قدس الساميون بعامة موارد المياه واعتبروها مهبط عرش الآلهة. وإن إقامة الإله (بعل أو هبل) على بئر ماء لَهُوَ إشارة إلى علاقته بالرزق والإخصاب عند العرب وكذلك عرف بكونه الإله واهب النعم) وإذا اعتبرت الثقافة الهندية أن المرء يولد ولادة ثانية عندما يغدو مثقفاً فإن المسيحية قد اعتبرت أن الإنسان يولد ولادة ثانية بعد أن يتعمد بالماء أسوة بالسيد المسيح الذي ولد ولادة ثانية بعد تعميده. قال يوحنا المعمدان: (أنا أعمدكم بماء التوبة لكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني الذي لست أهلاً لأن أحمل حذاءه هو الذي سيعمدكم بالروح القدس) وبعد أن تعمد السيد المسيح إذ بالسماوات قد فتحت له فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتيا عليه[2].

قال السيد المسيح: (الحق الحق أقول لكم إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن ينفصل عن ملكوت الله).

و إن طقس التعميد كان معروفاً في الديانات السورية ويرجع أصله إلى عبادة إله الماء (السومري ـ البابلي) (إيا) ويعني اسمه (إله بيت الماء)[3]. ولقد حظي الغرقى ـ في

---

(١) ص/٣٣/.

(٢) إنجيل متى/٣/.

(٣) وكانوا يرمزون إليه بحيوان خرافي نصفه الأعلى جدي ونصفه الأسفل سمكة وكانوا يرمزون

عصور الإنحطاط ـ بكرامات خاصة لابتلاع الماء لهم بحيث يدعى الغريق بـ (السيد) أو (المحمود) لأنه مات في رحم الماء روح الكائنات كلها، لذا فلا غرو أن يحفر (جلجامش) بئراً تقرباً للإله (شمس).

الطوفان: رأى الآلهة العظام أن يحدثوا طوفانا وقد زينت لهم قلوبهم ذلك، فاجتمعوا وكان معهم (أنو) أبوهم/ و(أنليل) البطل مشيرهم / و(ننورتا) (مساعدهم ـ وزيرهم) و(أنوكي ـ حاجبهم). وكان حاضراً معهم (نن ـ ايكي ـ كو ـ أيا) فنقل كلامهم إلى كوخ القصب وخاطبه: (يا كوخ القصب... يا جدار.. اسمع يا كوخ القصب وأفهم يا حائط يا رجل (شروباك) يا ابن (أوبارا/ توتو)، قَوّض البيت وابْنِ لك فلكاً، تَخَلَّ عن مالك وانْجُ بنفسك، انبذ الملك وخلص حياتك، واحمل في السفينة بذرة كل ذي حياة (السفينة التي ستبني.. عليك أن تضبط مقاييسها، وليكن عرضها مثل طولها). من الملحمة

الطوفان حَدَثٌ عالمي جلل حل بأكثر الشعوب ـ إن لم نقل بسائرها ـ كما تروي الأساطير والمعتقدات الدينية وكل يروي أسطورة طوفانه بصورة كيثرا ما تماثل وقليلاً ما تخالف العرف السائد. فـ (ابن خلدون) يذكر في (مقدمته) حين حديثه عن الجبابرة أن شخصية جبارة خرافية اسمها (عوج بن عنان) يقال إنها المخلوق الوحيد الذي لم يهلكه الطوفان، وأسطورة الطوفان الهندي تحدثنا عن السمكة (غاشا) وبطل الطوفان (مانو = نوح).

تقول الأسطورة: (إنه عندما أحضروا الماء لـ(مانو) كي يغتسل أمسكت يده بسمكة وقالت له: (سأنقذك من طوفان يحمل معه سائر المخلوقات. لذا عليك أن تحفظني داخل وعاء فإذا كبرت وضاق بجسمي الوعاء فخبئني داخل الأرض[1] وإذا

لبرج (أنكي) السماوي بالحيوان نفسه ـ (برج الجدي) وعرف الإله (أنكي) في الفترات المتأخرة بـ (أوانيس) ويلفظ باليونانية(ايوانيس) وباللاتينية (يوحانيس) وبالعبرية (يوحنان) ومن هنا ندرك العلاقة السرانية بين إله الماء (أنكي) وبين (يوحنا المعمدان). انظر لغز عشتار. فراس السواح. ص/٤٠٠/ وذلك نقلاً عن (جوزيف كامبيل).

(١) نلحظ هنا كأن هذه السمكة هي سمكة (برمائية).

كبرت خذني واطرحني في البحر وعندما كبرت (غاشا) وصارت أكبر أنواع السمك (أي صارت بحجم الحوت). أخبرت (مانو) بزمن الطوفان وأن عليه أن يحضر إليها راكباً سفينة بحيث إذا أتى الطوفان فستكون منفذته.

الطوفان التوراتي: وقال يهوه لنوح في سفر التكوين السادس والسابع (ها أنا آتٍ بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء كل ما في الأرض يموت ولكن أقيم عهدي معك فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين. و(فعل نوح حسب ما أمَرَهُ به الله) وبنى الفلك من خشب(جفر) كما تروي التوراة. وقد نجد تشابها قد يصل إلى درجة التماثل بين الطوفان التوراتي والطوفان الذي حدثنا عنه القرآن الكريم: (فكذبوه فأنجيناه ومن معه في الفلك) الأعراف /٦٤/ ويونس /٧٣/ (فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين) المؤمنون /٢٧ ـ٢٨/ (فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون) الشعراء /١١٩/

الطوفان اليوناني:

يماثل أسطورة الطوفان الرافدية كونه مقتبساً منها تقول الأسطورة (إنه بعد أن مُلِئت الأرض جوراً وطغياناً بحيث صار الجور يهدد الآلهة قرر (زيوس). إهلاك الحياة على الأرض وذلك بإرسال طوفان يمحو كل شيء فأوضح (زيوس) لـ (برومثيوس) ما بيت عليه بشأن الطوفان فأخبر (برومثيوس) ابنه (دوكاليون) عن طريق حورية المحيط[1] (كليمنته) ونصحه بأن يبني مركباً يلتجيء إليه مع زوجته (بيرا)[2] وبعد أيام الطوفان التسعة[3] رست السفينة على جبل (البرناس = أرارت = نصير).

---

(١) نلحظ هنا إخبار (دوكاليون) عن طريق الحورية يماثل إخبار (أوتونابشتيم ـ هو الذي رأى الحياة) عن طريق كوخ القصب.

(٢) ويقال: إن اسمها (فرحة).

(٣) ومنهم من يقول: إن الطوفان استمر خمسة وأربعين يوماً ومنهم من يقول /٤٠/ يوماً ومنهم من يقول /١٥٠/ يوماً.

الطوفان الصيني: أسطورته ملفتة للنظر، تقول الأسطورة: إنه عندما فاض (النهر الأصفر) وآتى بالطوفان هرع (طايو) وشرع ببناء السدود وفتح القنوات فيها ليتحكم بالماء لري الأراضي الصينية. ومن يستقرىء هذه الأسطورة يستنتج أن (طايو) لم يستسلم للطوفان بصنع سفينة لينجو بثلة من صحبه بل حاول الاستفادة من الطوفان ليس من مبدأ الضرورات تبيح المحظورات فقط بل من حيث أن الضرورات تصنع المعجزات فحاول (طايو) بل قل استطاع أن يحيل الدمار إلى عمار والفناء إلى بقاء. إلا أن الطوفان العالمي القادم ـ إذ حدث لا قدر الله ـ فسيكون طوفاناً ذرياً مدمراً ساحقاً ماحقاً لن يبقي ولن يذر على الأرض من دابة ولا نبات ولا بشر ولا حياة.

الحية: (ترى.. أَكُلُّ ما جنيت.. كان من أجل حية التراب؟!). من الملحمة

كان القدماء طوطميين يعبدون العجل والثعبان لاعتقادهم بأن لهما قوة إلهية[1]. كما ربطوا بين المرأة والأفعى معتقدين أن المرأة في أصلها كانت أفعى والأفعى كانت إمرأة[2]. واعتقدوا أيضاً أن الحية والشيطان والمرأة وجه واحد للبطل نفسه[3]. فاسم الحية ـ في العربية ـ مشتق من الحياة ـ واسم (حواء) أيضاً يعني الحية أو سيدة الحياة. كما اعتقدوا أن أصل الحية من الجن وأنها خالدة لا تموت كونها تجدد جلدها كلما هرمت. وهي إحدى العناصر المسؤولة عن خسارة الخلود مثال (الحية مع آدم وحواء) و(الحية مع جلجامش). والحية أم الغواية اعتبرتها التوراة أحيل الحيوانات جميعاً. ألم يختر الملاك (لوسيفر) انتحال شخصيتها لإغواء أول بشريين في الجنة؟[4]

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت ج/١/ص /١٠٦/.

(٢) لغز عشتار. فراس السواح ص/١٣٦/.

(٣) الفلكلور والأساطير العربية. شوقي عبد الحكيم ص/١٣٦/.

(٤) تقول نظرية التكوين المسيحية انطلاقاً من العهد القديم إنه قبل ظهور المكان وجريان الزمان بأمر من الكلمة خلقت أولى الكائنات الحية المفارقة للطبيعة الإلهية وهم الملائكة أولئك المخلوقات النورانية حيث احاطت بالنور الأعظم في هالات وكل هالة تدل على رتبة من رتب الملائكة وأعلاها (الكيروبين) و(السرافيم) وصولاً إلى الملائكة العاديين ومن بين ملائكة الطبقة الأولى ملاك اسمه (لوسيفر) ـ (حامل الضياء). وكان هذا الملاك فائق الجمال واعياً أشد الوعي لملكاته وقدراته وجماله معتقداً أنه من الصعب على الخالق أن يصنع ما هو أعظم منه لأنه مثال على معجزة الخلق. كان

والأفعوانان المتقابلان عند السومريين هما رمز (لعشتار) وهما عند المصريين حارسان للميت[1] والأم الكبرى (تعامت) البابلية كانت على هيئة تنين أو أفعى. كما اعتقد الهنود بقدرة الأفعوانين الملتفين على إعطاء الخصوبة للعاقرات. لقد كان اليهود يعبدون الحية ويدعونها (نحشتان)[2] ويدلنا ذلك على قبيلة (لاوي = لوياثان = الحية).

أما في الميثولوجيا الإغريقية فنجد أن معبد (دلفى) كان مكرساً للأرض الأم (جيا) وكانت تحرسه الأفعى العملاقة (بيثون) إلى أن جاء (أبولو) وقتلها واغتصب المعبد وبقيت موكلة بالنبوءة في معبد (أبولو) وبقيت محافظة على أسمها (بيثون). والأفعى التي علمت (اسكليبيوس) إله الطب أسرار النبات والأعشاب بحيث غدا قادراً على إحياء الموتى وكان مديناً ببراعتة للأفعى التي علمته أسرار النبات وخصائصه. ولما انقص (اسكليبيوس) عدد الموتى قضى عليه (زيوس) بصواعقه المميتة. كما أن هناك أفعى[3] أخرى أعطته ـ بعد موتها ـ دمها الذي يشفي ويميت

(لوسفير) دائم التحديق في مركز النور الأعظم حتى صار يشاركه في رؤى المستقبل فعرف أن الإله يعد لإيجاد مخلوق يفوق مرتبة (السرافيم والكيروبين) من لحم ودم (يعني الإنسان) وأن امرأة من هؤلاء ستغدو مليكة عليه ففضل أن يلتزم مجده الملائكي الذي وهبه الرب إياه ويظهر تمرده على الله رغم علمه الكامل بما سيجره عليه هذا التمرد من لعنة. فأدار ظهره لنور الخالق وأخذ على عاتقه إحباط صنائع الله وإفساد البشر الذين أعدت لهم تلك المكانة العالية. وبعد خلق الله لآدم أمره أن لا يأكل من ثمرة المعرفة. تسلل (لوسيفر) إلى الجنة في هيئة أفعى والتف حول شجرة المعرفة، وأغوى حواء بالأكل من الشجرة المحرمة. ولما مر الإله عرف فعلتهما فقال لآدم: هل أكلت من الشجرة التي أمرتك أن لا تأكل منها؟ قال: إن المرأة هي التي أعطتني. قالت المرأة: الحية هي التي أغوتني. فقدر الرب على حواء ومن يليها من نسل البشر أن يلدن أولادهن بالوجع والألأم وأن يكن تبعاً لأزواجهن. ومنذ ذلك التوقيت ظهر الموت إلى الوجود وظهر الألم، وظهر الشر مخالطاً لنسيج الوجود (انظر كتاب لغز عشتار. فراس السواح. ص/٣٩٣-٣٩٤-٣٩٥/ وقارن هذه القصة بقصة آدم وحواء وإبليس في كل من (التوراة) و(القرآن الكريم) الكيروبيم ـ الثيران الطائرة. السرافيم ـ الحيات. انظر كتاب درة الدين اليهودي. موفق عابدين ص/١٥/ ط ١ /١٩٩٧/. دار الكنوز الأدبية. بيروت/١/.

(١) عبده الصفر. الأن نادوا ص/١٩/.

(٢) سفر الملوك الثاني ٤/٣/١٨ ومنها جاءت كلمة (حنش) العاميّة.

(٣) اعتقد اليونان أن عدد أضلاع الحية يعادل أيام الشهر القمري.

وهـي المـرأة الأفعـى (ميـدوزا) الـتي قتلـها نـصف الإلـه (بـيروزوس) وأعطـى دمهـا لــ (اسـكليبيوس) الـذي جمـع دمـاء أوردتهـا اليمنـى في وعـاء ودمـاء أوردتهـا اليـسرى في وعاء آخر. فدماء الجهة اليمنى شافية ودماء الجهة اليسرى قاتلة، ثم صارت الحية في اليونانيـة رمـزاً للإلـه (اسـكليبيوس) إلـه الطـب. إن كـثيراً مـن الآلهـة ـ كمـا تخبرنـا الأسـاطيرـ قـد صـارعت حيـات فـ (مـردوخ صـارع الحيـة لايـو) و(زيـوس صـارع الحيـة طيفون) و(أبولو صارع الحية بيثون) و(يهوه صارع الحية لوياثان) و(شبه الإله بيروزوس صارع الحية ميدوزا) ثم جرى أخيراً إنزياح ميثولوجي فصار رمز الحية الملتفة يدل على الطب بعامة ونلحظ ذلك على سائر أبواب الصيدليات أنى وجدت.

البقرة: لا غرابة في أن تكون الآلهة البقرة (نينسون) أُمَّاً (لجلجامش) فالبقرة ذات شأن في سائر الأساطير العالمية فهي في الأساطير المصرية القديمة أم الآلهة جميعاً من قبل أن توجد الأشياء وهي التي أنجبت إله الشمس (رع) ثم أتبعته ببقية الآلهة فـ (إيزيس) و(هـاتور)[1] كانـا يظهـران علـى هيئـة رأس بقـرة[2] والإلـه (نـوت ـ قبـة السماء) كانت تصور في هيئة بقرة كاملة والأم المصرية (نيت) كانت تدعى البقرة السماوية والإلـه (عنـاة) لقبـت بـ (العجلـة) وفي صـلاة سـورية لـ (إنانـا) في عهـد (صـارغون الأول). تقول: (أيتها البقرة الجموح.. أنت أعظم من كبير الآلهة (آن) = إله السماء)[3]. ومنذ أن رأى الإنسان في القمر تجسيداً (لعشتار) ربط في ذهنه ـ رمزياً ـ بين قرون البقرة وقرني الهلال[4]. وتروي الأساطير اليونانية أن (ديونيزيوس) جاء كمولود ذي قرون كونه مولوداً من بقرة. كما تروي الأساطير اليونانية أيضاً أنه كان يحكم (أراجوس) الملك (إيتاخوس). وكان لهذا الملك ابنة جميلة اسمها (أيو) تعمل عند الإلهة (هيرا) زوجة (زيوس) فأحبها (زيوس) ولما عرفت زوجته (هيرا) بهذا الحب أراد (زيوس) أن يخفي حبه عن زوجته فحول هذه الفتاة إلى (بقرة) فطلبت منه (هيرا) أن يهديها هذه البقرة

---

(١) شكل من أشكال (إيزيس).

(٢) شكل من أشكاله.

(٣) المصدر نفسه ص/٧١/.

(٤) شكل من أشكال (إيزيس). انظر لغز عشتار. فراس السواح ص/٧٢/.

ففعل ووضعت (هيرا) لحراستها وحشاً له عيون كثيرة. لكن (زيوس) ألقى النعاس على هذا المخلوق فما كان من (هيرا) إلا أن سلطت عليها حشرة ضارية. فكانت تهيج كلما لدغتها هذه الحشرة حتى بلغت في جريها أرض مصر فلمسها (زيوس) فأنجبت له (أبافوس ـ المولود من اللمس) وهو أول ملوك مصر. ولا يزال الهنود يقدسون البقرة فلقد كانت عندهم قديماً تجسيداً لكل من الإله (اندرا) والإله (شيفا) وما تقديسها سوى رواسب طوطمية مازالت ماثلة للعيان حتى الآن.

الطين: (غسلت (أرورو) يديها ، وأخذت قبضة من الطين... وخلقت في البرية أنكيدو الصنديد). (من الملحمة)

لسنا بصدد دراسة فلسفية شمولية حتى نتطرق لنظرية (داروين) بشأن أصل الإنسان[1] لذا نقول: (إن أكثر المعتقدات الدينية والأسطورية قد أجمعت على أن خلق الإنسان الأول كان من الطين.

والجنس البشري ـ كما تقول الأسطورة الأمريكية ـ قبل أن يظهر إلى الوجود عاش فترة زمنية في باطن الأرض لأن نموه لم يكتمل بعد. فكانت هذه المرحلة شبيهة بوجود الجنين في رحم الأم. ويورد العالم السيكولوجي (أوتوبانك) فيضاً من النماذج عن خلق الإنسان. وفي الملحمة التي نحن بصددها تؤكد على خلق (أنكيدو) من الطين. والتوراة تؤكد أيضاً على أن خلق الإنسان كان من الطين فتقول: (وجعل الرب الإله آدم تراباً من الأرض. كما يؤكد القرآن الكريم أيضاً على أن خلق الإنسان كان من الطين وذلك في كثير من الآيات. (وخلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار) (وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) (هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلها) (وخلقنا الإنسان من سلالة من طين). أما الأسطورة اليونانية فتؤكد على أن (زيوس) قد خلق أول إنسان من الطين أو من طين

(١) دينياً: (خلق الإنسان إنساناً) ـ أي جاء في أحسن تقويم.

علمياً: (صار الإنسان إنساناً) ـ النظرية الداروينية. (والفارق بينهما فرق بين الكينونة والصّيرورة)

مشوي، وتذكر رواية أخرى أن (زيوس) قد خلق الإنسان من رماد[1] الآلهة (التيتان) الأشرار بعد أن أحرقهم (زيوس) بصواعقه المدمرة لأنهم أكلوا الطفل البريء الإله (ديونيزيوس). **فجاء الإنسان مكوناً من طبيعتين:**

١. **خيرة.. هي طبيعة الإله يمثلها العقل.**

٢. **شريرة.. هي من طبيعة الآلهة (التيتان).**

وتقول أسطورة ثانية: عندما خلق (بروميثوس) الإنسان من الطين كان غاية في الجمال والكمال بحيث خاف (بروميثوس) عليه من أن يختطفه أحد الآلهة المشهورين بنزواتهم فخبأه في مكان أمين، ولكن الإله (إيروس - إله الشبق) قد وشى بالسر إلى (زيوس) كبير الآلهة الذي بعث رسوله (هرمس) لإحضاره فلما رأى جماله دعاه لشرب أكسير الحياة الأبدية وصار من الخالدين وهو يسبح في السماء أبداً على شكل كوكب (جوبيتر)[2]. كما تقول أسطورة أخرى أيضاً: عن (زيوس) بعد أن أحدث الطوفان الذي أتى على كل شيء في العالم ما عدا (دوكاليون وزوجته بيرا) أرسل رسوله (هرمس) ليسألهما عن أمنيتهما بعد أن لم يبق في العالم سواهما فأجاباه: (إنهما يرغبان في أن يلتقيا عظام جدتهما لأن (دوكاليون) قد أدرك أن عظام جدته لم تعد سوى حجارة الأرض فنفذ لهما رغبتهما وكانت ولادة جديدة للعالم إذ نشأ الذكور من الحجارة التي ألقاها (دوكاليون) ونشأت الإناث من الحجارة التي ألقتها زوجه (بيرا) فكان الإنسان الجديد أكثر صلابة وشجاعة من الإنسان الأول[3] حتى أن الإغريق اعتقدوا أن القمر قد جبل من أديم الأرض أيضاً فكانوا يطلقون عليه اسم (الأرض العليا) إلا أنهم اعتقدوا أن (أفروديت) قد ولدت من زبد البحر[4].

---

(١) الرماد يماثل التراب.

(٢) لغز عشتار. فراس السواح. ص/٥٠/.

(٣) والحجارة هي نوع من أنواع التراب الصلب فإذا طحن عاد إلى ما كان عليه تراباً.

(٤) يعتقدون أن الأم الأرض الكبيرة قد ساعدت ابنها (كرنوس) على إخصاء زوجها (أورانوس - إله السماء) ورمي أعضائه التناسلية في البحر ومن تلقيح دم (أورانوس) في مياه البحر ولدت (أفروديت) من زبد البحر.

أما مـردوخ في الأسـاطير البابليـة فنـراه قـد صـنع الإنـسان مـن دم (كنغـو) زوج (تعامت)[1]. ويقول سكان (نيوزلنده ـ الماء وريون): إن الإله (تيكـي) حينمـا قـرر خلـق الإنسان أخذ ترابـاً أحمـر وعجنـه بيديـه ثـم نفـخ في فمـه فبعـث فيـه الحيـاة فجـاء علـى صورته فسماه: (تيكي أهوا).

اما عن قصة لون الإنسان فتقول الأسطورة الفيلبينية: إن الإلـه قـد وضـع حفنـة من الطين في الفرن ليصنع الإنسان وعندما أخرجه قبل النضج كان أبيض وعنـدما احترق الطين وأخرجه كان أسود لكـن عنـدما أخذ الطين كفايتـه مـن النـار كـان الفيلبيني البرونزي.

وفي أسطورة لإحدى القبائل الإفريقية نـرى أن اللـون ينـسب إلى نوعيـة الطـين المخلوق منه الإنسان باعتبار أن الخالق (جودك) قد شـكل النـاس جميعـاً مـن التـراب وعنـدما كـان يتجـول في أنحـاء العـالم وجـد في الـبلاد ترابـاً مختلفـة ألوانـه فـصنع الأبيض من تراب ورمل أبيض، ومر على مصر فشكل الإنسان فيها مـن طمـي النيـل فجـاءت بـشرتهم سمـراء، ودخـل أخـيراً إلى أرض (الـسكوك) فوجـد تربـة سـوداء

---

(١) تقول الأسطورة: (إنه قبل أن تكون الأرض والسماء والكون كانت (تعامت) أم الوجود بما فيه من آلهة.بدأ الآلهة بمخالفتها وإزعاجها بالصخب الدائم من حولها فضايقوها بضجيجهم وحركتهم فقررت أن تدير قواهم ونشاطهم لتعود الطمأنينة إليها والسكون إلى الوجود المحيط بها فهيأت (تعامت) قواها للقتال ووضعت على رأس جيوشها زوجها (كنغو) وسلمته (لوحات الأقدار وأهلته بها لأن يتسلط على جميع قوى الكون الناشطة والساكنة معاً. وبالمقابل فقد جهز الآلهة الفتيان أنفسهم للقتال وسلموا قيادتهم للإله القوي (مردوخ) الذي يفعل المعجزات بسلطة الكلمة والتي فوض رفاقه أمرهم إليه. وكانت نتيجة الحرب أن تغلب (مردوخ) بجرأة على (تعامت) وشطرها نصفين، نصف جعله الأرض ونصف صنع منه السماء، وأجرى الرياح تفصل بينهما. نظم (مردوخ) الكون وجعل منه النجوم تقويماً لمعرفة الزمن. ولكي يكافئ الآلهة الذين أولوه ثقتهم وحاربوا إلى جانبه قرر أن يخلق الإنسان ليحمل عبء وكدح الآلهة وشقاءهم ويعفيهم من الأعمال الحقيرة. ثم عقد الإله (مردوخ) محكمة للنظر في قضية حرب (تعامت) فاتهم مجلس المحكمة الإله (كنغو) بالجريمة وحكم عليه بالموت فأعدم وقطعت شرايينه ومن دمه المسفوح صنع الإنسان وفرض عليه الكدح والشقاء للتكفير عن ذنب (كنغو) المجرم ولتحرير الآلهة من الآلام والمشاق. انظر كتاب. الإنسان والحضارة. يوسف حوراني. ص/٢٥-٢٦/

فشكل السود منها. أما(ابن خلدون) فقد نسب (اللون) في (مقدمته) إلى عوامل الطقس ونحن إذ نتحدث عن اللون فإننا لا نعني العرق. كالعرق الآري.. وغيره لأن هذه النظرية مرفوضة أصلاً ففي كل لون مبدعون وعاديون إلا أن الدماء التي تجري في عروقهم جميعها تنتمي إلى لون واحد.

الأحلام: (سكب الماء المقدس وقرب الطعام ودعا الجبل أن يريه حلماً يبشره بالفرح) من الملحمة...

لن أدخل في دهاليز التفسير الفرويدي للأحلام لأن ذلك بحاجة إلى بحث كامل مستقل لكنني أرى أنه من المفيد ـ قبل حديثي عن الأحلام في الملحمة ـ تقديم موجز لبعض الآراء المتباينة والتي تنوس بين التبني المطلق للأحلام وبين النفي المطلق لها. يقول (شارل فيروللو) في كتابه أساطير (بابل وكنعان): ص/٤٣/. (كانت الأحلام تعرف الناس بمراد الآلهة. وليس على المرء أن يتعلق بكل الأحلام. فحلم منفرد أو عاجل لا يسترعي الانتباه، لكن إذا تكرر الحلم أو بالأحرى حلمان متشابهان أو متممان لبعضهما لا سيما إذ احتويا تتابعاً مزجياً أو معاً في ليلة واحدة فإن ذلك بمثابة إنذار يحسب حسابه). ولقد اعتقد الشرق القديم أن الحلم ذو أصل إلهي ووظيفته تنبُّئية وإنذارية لدرجة أنها لا تترك مجالاً للقيام بأية تفاسير علمية. ولقد قام (اكسينوفانيس) بثورة على مثل هذه الآراء فنقد (هرمز) و(هزيود) اللذين كانا يعتقدان أن الأحلام رسل الآلهة وأطفال الليل القاطنة في العالم السفلي، فـ (سقراط) /٤٦٩ـ٣٩٩ ق.م/ رأى أن الحلم تمثيل لصوت الضمير.

و(أفلاطون) /٤٢٧ـ٣٤٧ ق. م/ رأى أن الحلم تطهير للدوافع المكبوتة في حال اليقظة و(أرسطو) /٣٨٤ـ٣٢٢/ ق. م رأى أن الأحلام هي حياة الروح أثناء النوم وأنها شكل للفاعلية المستمرة، إلا أن (شيشرون) /١٠٦ـ٤٣ ق.م/ قد شك بالأحلام من مبدأ أنه من الأحرى ـ من وجهة نظره ـ أن تتصل الآلهة بإنسان صاح واع حاد السمع والبصر من أن تتصل بإنسان يشخر غير مالك لإرادته. أما (أغسطس) /٦٣ـ١٢ ق. م/ فقد أخذ الأحلام على محمل الجد وأصدر قانوناً مفاده بأن كل من يحلم حلماً يتعلق فحواه بالدولة، عليه أن يروي ذلك الحلم في الساحة العامة على مرأى من الناس

ومسمع.ثم سادت في العصور الوسطى التفسيرات الرمزية للأحلام والتي غالباً ما اتخذت الشكل الترفيهي والتنجيمي[1] (كذب المنجمون ولو صدقوا).

أما في مرحلة ما بعد الكنيسة فقد غلب على الأحلام المذهب العقلي وفي أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر نجد أن الأحلام وتفسيراتها كادت تختفي عن وعي المجتمع إلى أن جاء (فرويد) /١٨٩٤م/ فأصبح الحلم جزءاً من تشخيص العلاج فلكل حلم معنى عند (فرويد) والحلم ـ من وجهة نظره ـ حارس للنوم ومحافظ عليه وكل منام يتم العثور به على أحداث اليوم السابق. فاستطاع أن يعيد الأهمية الفائقة للحلم كتعبير مباشر للنفس والخافية.[2]

إلا أن المنام عند (أبيقور) تعكير لصفو النائم. والآلهة التي تتغذي من رحيق الوجود ـ في رأيه ـ لا تحلم لأنها لا تنام. ويرى (بوفانيك) أن النوم ما هو سوى استرجاع للحياة الفعالة في النهار، إلا أن (ميدارد بوس) الذي أنكر وجود (اللاشعور) ذهب إلى أن الحلم شكل الوجود للإنسان ذاته[3][4]. أما الأحلام السبعة الواردة في الملحمة فهي

---

(١) نذكر هنا ما أورده سفر التكوين التوراني /إصلاح /٣٧/ فقرة /٥/ كيف أن يوسف رأى حلمين إذ رأى في الأول أن حزمته التي جمعها في الحقل قد وقفت وأحاطت بحزم إخوته وسجدت الحزم لها. فعرف من خلال المنام أنه سيسطر عليهم ثم رأى في المنام الثاني ـ من السفر نفسه ـ الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً قد سجدوا له فعرف أن الشمس والقمر هما أبواه وأن أحد عشر كوكباً هم إخوته. ونقرأ حلمي فرعون ـ في السفر نفسه أيضا ـ إصلاح /٤١/ فقد رأى في الحلم الأول سبع بقرات سمان حسنة المنظر قد أكلتها سبع بقرات رقيقات قبيحة المنظر. وراى في المنام الثاني سبع سنابل سمينة وسبع سنابل رقيقة. وفي كتابي (قراءآت مسرحية) طباعة اتحاد الكتاب العرب فيه بعض ما يتعلق بالأحلام حين دراستي لمسرحية (صعود العاشق).

(٢) نلحظ حلم (كالبوريد) قبل اغتيال (يوليوس قصير) والرؤى الثلاث لـ (إيزيس) حين بحثها عن جسد (أزوريس).

(٣) انظر مجلة المعرفة السورية عدد /٣٩٠/آذار /١٩٩٦/ ص/٧٥-٩٧/.

(٤) ونجد في الإسلام صلاة الاستخارة والاستخارة هي طلب الخير من الله تعالى فيما يقصد من الأمور فيقال خار الله لك ـ إي أعطاك ما هو خير. وأعمال الخير والمحرمات لا استخارة فيهما فهما أمران بينان. وعن جابر (ر) أنه قال. كان (ص) يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها. انظر كتاب وصايا الرسول. إعداد وتخريج محمد إدريس. ص/٣٢١-٣٢٧/.

كما قال د. (قاسم مقداد) في كتابه (هندسة المعنى في السرد الأسطوري الملحمي ـ جلجامش) أحلام (مسبقة الصنع) لأنها تنبيك بما يعتلج في نفس رائيها قبل رؤيتها.

* * *

أحلام الملحمة السبعة (موضوعها، تفسيرها، تحليلها)

لقد فسرت له أمه الآلهة البقرة (نينسون)[1] المنام الأول والذي رأى فيه كوكباً يقع على صدره ولم يستطع رفعه إلا بمساعدة أهل (أوروك). فسرته بأنه سيكون له صديق قوي يعينه وقت الضيق. ألا يدل هذا المنام ـ إذا ما أردنا تحليله ـ على قلق نفسيته واضطراب أحاسيسه وعدم استقراره لأن الضغط الذي كان يمارسه على شعبه لا بد إلا وأن يولد انفجاراً قد يكون هو ضحيته الأولى. فهو يعلم علم اليقين ـ ولم يأبه لهذا العلم ـ بأن الحاكم من غير مساعدة شعبه ما هو سوى رقم من الأرقام وصفر على اليسار ليس إلا. وما تفسير المنام الثاني ـ من قبل أمه أيضاً ـ والذي رأى فيه فأسا وقد انحنى عليها كما ينحني على فتاة إلا دليل على خوائه الداخلي وفراغه المروع وحاجته القصوى إلى صديق حميم يبثه شكواه ويسمع سره ونجواه لأنه ـ كما قلنا آنفاً ـ كان فرداً مستبداً لا أحد إلاه. ولعل أمه (نينسون) كانت أدرى بما يعانيه (جلجامش) ويدلنا على ذلك ما قالته الملحمة: أن (نينسون) كانت متبحرة في معرفة (جلجامش).

---

(١) يدلنا ذلك على ما كان للمرأة من شأو وشأن في ذلك الوقت أما رؤيته في الحلم الثاني للطائر (زو) الذي نزل به إلى العالم السفلي فقد كان نتيجة لما أحدثته حمى الموت فيه إذ شلت تفكيره عن كل شيء باستثناء الهلوسات التي تملكته وقد تغيرت أشكالهم واستعادوا بعضا من هيئة الطيور وملامحها. وهو يصارع شبح الموت متمثلا ب (زو) الذي سينتزع منه روحه ثم يحمله إلى العالم السفلي. و(زو) لم يكن غريبا عن ذاكرة (أنكيدو) فهو في مخيلته يوم كان صحيحا معافى. مرة يتصوره وأخرى يتذهنه شأنه ـ في ذلك ـ شأن سائر الذين يعانون سكرات الموت وبخاصة في حالة النزع الأخير حيث تتراءى أمام أعينهم صور (لملك الموت).

أما الحلمان الثانيان: حيث تضرع للجبل لكي يريه مناماً يبشره بالفرح[1]، فرأى أنه يقف على هوة جبل ثم سقط الجبل وتصدع، وقد فسره له صديقه (أنكيدو) بأنه سقوط (لخمبابا) (ولا نعلم من أين تعلم (أنكيدو) تفسير الأحلام) أليس هذا المنام تأكيداً على ما كان يعتلج في صدر (جلجامش) من أنه كانت لديه ثقة شبه عمياء تؤكد له على أن النصرعلى (خمبابا) من خلال إصراره ومساعدة (أنكيدو) له أمر حاصل لا محالة؟. أما حلم (أنكيدو) باجتماع الآلهة وهم يتشاورن بشأن من قتل (خمبابا) و(الثور السماوي) وأن على قاتلهما أن يموت ـ هذا الحلم الذي لم يفسره أحد ـ ما هو سوى دليل على ما تكنه (خافيته = لا شعوره) وحتى (واعيته = شعوره) من تساؤلات كانت تقض مضجعه، فحواها: ترى ما هو موقف الآلهة منا بعد قتلنا ل (خمبابا) الذي لا يقهر؟!.. بل ما هو موقفها منا بعد قتلنا الثور السماوي؟.. أليس قتلنا الثور السماوي قتلاً لرسول الآلهة.. ألا يهز مقتل هذين العملاقين على أيدينا عرش الآلهة خوفاً من أن تطال أيدينا الآلهة أنفسهم لذا فليس غريباً ـ بل أمر جد طبيعي ـ أن يتبدى له غضب الآلهة ويحتل كيانه وينفلت منه عند انفلات (خافيته) لحظة لا رقيب عليها. أما رؤيته في الحلم الثاني للطائر (زو)[2] الذي نزل به إلى العالم السفلي فقد كان نتيجة لما أحدثته حمى الموت فيه إذ شلت تفكيره عن كل شيء باستثناء الهلوسات التي تملكته وهو يصارع شبح الموت متمثلا بـ (زو) الذي سينزع منه روحه ثم يحمله إلى العالم السفلي. و(زو) لم يكن غريباً عن ذاكرة (أنكيدو) فهو في مخيلته يوم كان صحيحاً معافى. مرة يتصوره وأخرى يتذهنه شأنه ـ في ذلك ـ شأن سائر الذين يعانون سكرات الموت وبخاصة في حالة النزع الآخير حيث تتراءى أمام أعينهم صور (لملك الموت)، وقد تختلف هذه الصور باختلاف الصورة المأخوذة عنها منذ اليفاعة (طائراً.. ملكاً.. شبحاً) لكن

---

(١) بإمكانك أن تقارن ذلك بصلاة الاستخارة التي نو هنا عنها في الصفحات السابقة.

(٢) (زو) طائر مزيج من إنسان وطائر. يعتقد أنه كان إله العالم السفلي و(مردوخ) هو الذي حطم رأسه فكان النسر الذي يعيش على جثث الموتى وهو رمز للأم الكبرى (عشتار) في وجها الأسود. وفي الأساطير المتعلقة بالعالم الأسفل نجد أن عفريت الموت قابض الأرواح هو طائر. كما نجد الموتى هناك وقد تغيرت أشكالهم واستعاروا بعضاً من هئية الطيور وملامحها.

الجميع متفقون أن صورة قدومه مخيفة، وما الحلم الأخير الذي رآه (جلجامش) وهو في أشد حالاته يأساً وبؤساً بأنه يصارع الأسود ـ ولم يفسره أحد أيضاً ـ إلا بمثابة (صحوة موت) كان يعاني منها وكأنه يقول لنفسه: إن لم تستجمع قواك يا (جلجامش) وتعُدْ جباراً كما كنت فلا بد أن تطالك يد (البوار والثبور والهلاك).

جماعة القول: نؤكد ما قرأناه في كتاب الأحلام ل (أنيا تيار) بأن الحلم (مسرح نحن فيه منصة التمثيل والممثلون والرواية والنقاد والجمهور).

التشابه بين الأساطير

عندما تجول في رحاب الأساطير العالمية يلفت نظرك التشابه فيما بينها إذ يصل في بعض الأحايين إلى درجة التطابق. فتضطر ـ على الرغم من إقرارك بعالمية الثقافة وأن صانعي الأسطورة قد مروا بمراحل متشابهة مع مراحل الأسطورة الأخرى ـ تضطر إلى أن تقر بالفضل ـ شئت أم أبيت ـ إلى الأسطورة الأسبق في الوجود زمناً.

لذا بإمكاننا القول: إن الأساطير الأخرى قد انتحلت بعض أفكار ملحمة (جلجامش) كما انتحلت شخصيته تحت أسماء مختلفة ونسبت أعماله أيضاً إلى أحد أبطالها.

تقول الملحمة: (الآلهة وحدهم هم الخالدون في مرتع شمش أما البشر فأيامهم معدودات). يقول سفر الجامعة في التوراة (ما الفائدة للإنسان من كل تعبه تحت الشمس دور يمضي وأخر يجيء والأرض قائمة إلى الأبد). تقول الملحمة ـ على لسان (سيدوري) حارسة الحانة الإلهية ـ: (أما أنت يا جلجامش، فاملأ بطنك وارقص وافرح ليلك ونهارك). يقول سفر الجامعة التوراتي أيضاً: (اذهب.. وكل خبزك بفرح واشرب خمرك) ثم ألا يذكرنا هذان القولان بالنظرية (الهيدونية) وذلك من خلال موقف (ابيقور) /٣٤١ـ٢٧٠ ق. م/ والذي اعتمد ـ على صعيد المعرفة ـ وعلى المذهب الحسي. وجعل اللذة هي الخير الأول، خير يصدر عن ذاته، وأن اللذة هي هدف الحياة وغايتها وما الألم سوى شر خالص[1]. ثم ألا يشبه (جلجامش) (نمرود) التوراة الذي كان

---

(١) انظر الموسوعة الفلسفية العربية مجلد /٢/ ط ١٩٨٨/٢/ص/١٢٢٤/.

جبار صيد أمام الرب؟ كما نجد في الميثولوجيا اليونانية أن (آخيل) في (إلياذة هوميروس) قد أنجبته آلهة مائية ثانوية اسمها (تيتيس) وزوجها (بيلوس) ملك صقيلة فكان مزيجاً من آلهة وبشر.

حاولت أمه أن تهبه نعمة الخلود وتغمسه في ماء (ستيكس) الإلهي الذي يذهب بالجزء الفاني من الجسد البشري ويبقي على الجوهر الخالد. ثم.. ألم يكن (هرقل) بطلاً رياضياً يقتل الأسود وإليه يعزو اليونانيون الألعاب الأولمبية. لقد أراد (هرقل) أن يكون مساوياً للآلهة فعرضت عليه الآلهة (اثني عشر عملاً) إذا فعلها يبلغ مراده ففعل الأحد عشر وفي الثاني عشر طلبت منه الألهة النزول إلى العالم السفلي ولما فعل انقضت عليه صاعقة أحرقت جسده الفاني.

كما تشابه (جلجامش) مع (ثيثيوس) حيث ولد من عائلة ملكية إذ كان (بوزيدون) إله البحر عاشقاً لأمه قبل ولادته عن طريق (بوزيدون). فنقل الدم الإلهي إلى (ثيثيوس) بحيث كان متفوقاً على جميع الرجال في قوته الجسدية فكان أقرب إلى الآلهة من البشر. قتل (ثيثيوس)(الميناتور ـ الثور الكريتي المتوحش) كما قتل (جلجامش) (الثور السماوي) الذي أرسله (آنو) بناء على رغبة ابنته (عشتار)، وقد هبط (ثيثيوس) مع صديقه المخلص (بروميثوس) حيث لازمه ملازمة (أنكيدو) لـ (جلجامش).

جولة عجلى طفت فيها في رحاب هذه الملحمة الرائعة آملاً أن أكون قد وقفت في تقديم ولو فكرة جديدة أضيفها إلى جهود من سبقوني في تناولها بالدراسة، لأن هذه الملحمة ـ الثابتة توثيقاً والمتغيرة تناولاً وتداولاً من خلال رؤية الناظرين إليها....................

ـ سيتناولها اللاحقون بالدراسة آتين بالمزيد المزيد بكل تأكيد.. وهذا ما نطمح إليه وما نريد.. لأن جل ما في العالم قديم ونحن من ينفث الحياة فيه من جديد.

* * * * *

يقول (ميرلوبونتي):

صحيح أن العالم قديم....... لكن علينا أن نتعلم كيف نراه

مكابدات بوذا......
وانطفاءات النيرفانا

(تباركت يا محرك العقل البشري.. يا من بيده مصائر الهند، المجد المجد المجد لك) تلك بداية ونهاية النشيد الوطني للهند والذي كتبه شاعرها العظيم (طاغور)/١/.

والهند اسم مشتق من السند ذلك النهر الجبار الذي يجري فيها بطول ألف ميل. و(سندو) في الهندية معناها (النهر) وقد حور الفرس كلمة (سندو) إلى (هندو) حيث أن حرف (س) في السنسكريتية يقابلها حرف (هـ) في الفارسية مثل (سوما = هوما = شراب مقدس) وأطلقوا كلمة (هندو) على الهند الشمالية كلها (و هندوستان ـ بلاد الأنهار) ومن الكلمة الفارسية (هندو) نحت الإغريق الغزاة كلمة (هند) والتي ما زالت باقية حتى اليوم /٢/.

والهند[1] رقعة فسيفسائية غير متجانسة مناخاً وطبيعةً وسكاناً ولاهوتاً وحتى لغة. فشعوبها ليست أمة واحدة لكنها تعيش وتتعايش في مجتمع واحد هو مثال عالمي على الديمقراطية، إذ يوجد فيها أكثر من ثلاثة ملايين طائفة /٣/ ويدين بـ الهندوسية[2] أغلب سكانها. و(الهندوسية) كالإسفنجة تمتص كل ما يدخل إليها من دون أن تغير شكلها فهي قادرة على الامتصاص والهضم والتمثل (كاللغة الإنكليزية حيث يعرفونها بأنها مجموعة لغات) فكل ما يدخل إليها وتقبله مجتمعاتها سرعان ما يصبح جزءاً لا يتجزأ من كيانها ولعل هذه المرونة هي سر بقائها /٤/ (و الهندوسية) من أقدم الديانات العالمية بل هي أقدم الأديان التي يمارسها أهل الأرض حتى الآن. و(الهندوس) يعبدون النار ظناً منهم بأن أحد الكهنة قد أحضرها من السماء إلى الأرض (يذكرنا ذلك بسرقة بروميثيوس النار من الآلهة) ولهذا فعلى عابدي النار أن يرسلوا القرابين إلى السماء. و(إيمان البرهمي)[3] بتقديم القرابين نابع من كون القربان هو الشيء الوحيد الذي يجعل صلة الوصل بينه وبين براهما قريبة. فالقربان حنين للعودة إلى الاندماج في جسم البداية الأولى /٥/

---

(١) مساحة الهند تعادل حوالي مليوني ميل مربع /٣،٢٨٧،٢٦٣/ كم٢ وهي أكبر من بريطانيا التي كانت صاحبة السيادة عليها بحوالي عشرين مرة. يخترقها مدار السرطان. وفيها جبال (هيمافات ـ هيملايا) حيث (أفرست) أعلى قمة في العالم وعدد سكانها /٩٠٣،٠٠٠،٠٠٠/ نسمة انظر أطلس الوطن العربي والعالم ص /٢٠٨/ ويحتمل اشتقاق اسم الهند من اسم الإله (إندرا). مقارنة بين الأديان (د. أحمد شبلي ص /٢١/) وفيها نحو /٢٤٠/ لغة و/٣٠٠/ لهجة مما مهد الطريق للغة الإنكليزية لتكون لغة عامة بجوار هذه اللغات المحلية. (المصدر نفسه ص/٢٧/). وبعد التقسيم اتخذ الدستور الهندي اللغة الهندية لغة رسمية للبلاد وهي لغة قامت على أنقاض السنسكريتية.

(٢) عندهم أقانيم ثلاثة (براهما يخلق ـ فشنو يحفظ ـ شيفا يهلك) ومثل هذه الأقانيم نجدها عند المصريين (أزوريس ـ إيزيس ـ حورس) وعند أهل صور (عشتار ـ أدونيس ـ ملكرت).

(٣) البراهمة ليسوا نسبة إلى إبراهيم (ع) بل نسبة إلى كاهن يقال له (برهم) حيث عهد لهم نفي النبوات.. والبراهمة عماد الهندوسية وقد عنفهم بوذا قائلاً لهم: (ما نفع نظافة ثيابكم وتجديل شعوركم؟ أنتم لا تطهرون سوى مظهركم ووجهكم نجس). انظر كتاب الملل والنحل. للشهرستاني ج/٢/ مطبعة الأهرام /١٢٧٠/ ط/١/.

وتقديسهم للبقرة جاء عن طريق رواسب طوطمية ففي المهابهارتا (ملحمة هندية طويلة تحكي غزو الهند وهي مرشد للحياة في أبعادها كافة) نجد أن (الهندوسي) يمسك بذيلها قبل وفاته أملاً بدخول الجنة بعد الموت ومن يقتلها قديماً فإن مصيره جهنم وبئس القرار ومن يقتلها حالياً يعاقب بالإعدام[1].

وإذا أردنا فهم أقدم تفكير هندي علينا أن نتجه إلى أسفار (الفيدا ـ المعرفة)[2] فالهند لها من العقائد الدينية ما يمثل كل مراحل العقيدة في الطوطمية وعبادة الثعبان. مروراً بالوثنية والبربرية إلى أدق عقيدة في وحدة الوجود روحانية. ولها من الفلاسفة من عزفوا على وتر التوحيد من أسفار (اليويانيشاد) في القرن ٨ ق.م إلى (شانكارا) في القرن ٨ ب.م ./٦/ (اليوبانيشاد = يوبا ـ بالقرب/ ونشاد = يجلس/ ـ أي يجلس قرب المعلم) و(شانكار) من أبرز المعقبين على الفيدا.

---

(١) (غاندي) فضل البقرة على أمه لأن أمه ترضعه عامين مقابل خدمات أما البقرة فتعطيه الحليب طيلة عمرها ولا تطلب منه شيئاً حتى ولو مرضت. ويعتبر الهندوسي (الفيدا) كتاباً مقدساً نزل بوحي من الآلهة.

(٢) يقابلها في اللاتينية (فيديو) ومنها أخذ اسم الجهاز الحديث (فيديو) ويعتبر الهندوسي (الفيدا) مقدسة نزلت بوحي من الآلهة وهي أربعة أسفار.

(١) سفر (رج فيدا) ـ المعرفة الملكية ـ معرفة الترانيم والثناء وهو أقدمها وينتمي إلى الأدب. وهو مكون من مقطعات شعرية مرفوعة إلى إله أو أكثر.

(٢) سفر (ساما) ـ معرفة الأنغام ٣ ـ سفر (ياجور) ـ الصيغ الخاصة بالقرابين للآلهة ٤ ـ سفر (أتارفا)ـ معرفة الرقى السحرية وكل واحد من هذه الفيدات يقسم إلى أربعة أقسام:

١. مانترا ـ الترانيم.
٢. براهما ـ قواعد الطقوس والدعاء والرقى لهداية الكهنة في مهنتهم.
٣. أرانيكا ـ نصوص الغابة ـ خاصة بالقدسيين والرهبان.
٤. يوبانيشاد ـ المهارات السحرية. مخصص إلى الفلاسفة.

وقد مرت الهند بـ /٤/ مراحل:

- المرحلة الفيدية /١٥٠٠/ ق.م حتى /٧٠٠/ ق.م.
- المرحلة الثانية /٨٠٠/ ق. م حتى /٢٠٠/ ق. م.
- مرحلة السوترا /٤٠٠/ ق.م حتى /٥٠٠/ ب.م شرح المتون /٤٠٠/ ب.م حتى /١٧٠٠/ ب.م.
- مرحلة النهضة منذ عام /١٨٠٠/ ب. م.

فعلى صعيد وحدة الوجود

نرى بعض أسفار (يوبانيشاد) تعزي خلق العالم إلى خالق أول قهار. يقول السفر: (حقا إنه لم يشعر بالسرور، فواحد وحده لا يشعر بالسرور فطلب ثانياً.. كان في الحق كبير الحجم حتى ليعدل جسمه رجلاً وامراة تعانقا ثم شاء لهذه الذات الواحدة أن تنشق نصفين. فنشأ من ثم زوج وزوجة فضاجع زوجته وبهذا أنسل البشر[1]. سألت نفسها الزوجة قائلة كيف استطاع مضاجعتي بعد أن أخرجني من نفسه؟ فلأختف. واختفت في صورة البقرة فانقلب هو ثوراً. فزاوجها ومن زواجهما ولدت الماشية، فاتخذت لنفسها هيئة الفرس واتخذ لنفسه هئية الجواد ثم صارت حمارة فصار حماراً وصارت عنزة فصار كبشاً حتى بلغ في التدرج أسفله إلى حيث النمال، وقد أدرك هو حقيقة الأمر فقال: حقا إني أنا هذا في الخلق لأني أخرجته من نفسي. ومن هنا نشأ الخلق /٧/ ألا نلمس في ذلك بذرة مذهب وحدة الوجود وتناسخ الأرواح وأن الخالق وخلقه شيء واحد؟ كما آمنوا بالخلود الشخصي فالروح بعد الموت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت. فإما أن يلقيها (فارونا ـ حارس القانون الأخلاقي ومنقذه): في هوة سحيقة أو في سعير جهنم، وإما أن يتلقاها (ياما) ـ أبو البشر وحاكم العالم السفلي) ويرميها إلى جنة النعيم حيث هناك كل صنوف اللذائذ إلى أبد الآبدين /٨/.

وبما أن المثنويات موغلة في القدم فإننا نرى في أحد أسفار (اليوبانيشاد) أيضاً نقيضاً لذلك حيث نجد فريقاً من العدميين الماديين كانوا يسخرون من الكهنة ويشبهون رجال الدين المتشددين في تمسكهم بالعقيدة آنذاك بموكب من الكلاب أمسك كل منهم بذيل سابقه، كما نجد تصريحاً بأنه ليس هناك جنة ولا نار ولا تناسخ ولا عالم آخر، وكان أتباع مدرسة (شارفاكا) يضحكون من سخف الرأي

---

(١) (ياما) أول إنسان مات فصار إله الموتى وحاكمهم على أفعالهم. انظر كتاب الأديان الحية. أديب صعب ص/٣١/. و(ياما) أبو البشر. ويشبه أزوريس عند المصريين القدماء و(يامي) أم البشر ويقال: أنهما أخوان وقد أغوت (يامي) أخاها (ياما) بمضاجعتها على الرغم من تحريم الاتصال الجنسي بين أفراد الأسرة الواحدة زاعمة أن كل ما تريده هو استمرار الجنس البشري وهذا يذكرنا بما ادعته التوراة من زنى لوط بإبنتيه. انظر سفر التكوين. إصحاح/٩/ فقرة/٢٠ حتى ٢٧/.

القائل: (إن أسفار الفيدا قد احتوت على الحق كما أوصى به اللّه) وقال فريق من هذه المدرسة: (إن ما لا تدركه الحواس ليس له وجود، وما الروح سوى وهم من الأوهام والآلهة أبطولة من الأباطيل والمادة وحدها هي الحقيقة التي لا حقيقة سواها)[1] وما العقل إلا مادة تفكر والجسم ـ لا الروح ـ هو الذي يشعر ويسمع ويفكر[2] فمن ذا الذي رأى روحاً موجودة مستقلة عن الجسم؟. وأن الطبيعة لا تأبه لخير أو لشر، لفضيلة أو لرذيلة فهي تشرق بشمسها على الأوغاد والقديسين، وغاية الحياة والحكمة هي أن تعيش سعيداً /٩/[3] كما كان فيها نظام فارنا ـ نظام الطبقات وكلمة (**فارنا = اللون**) أي أن هذا النظام يقوم على اختلاف اللون.

- **براهما** ـ الطبقة العليا ـ الكهنة والقديسون والحكماء[4] يختارون أسماء لأطفالهم تدل على البهجة والسرور.
- **الكشاتريا** ـ المحاربون والحكام. يختارون أسماء أطفالهم ما يدل على القوة والشجاعة.
- **القايشبا** ـ المزارعون والصناع ـ المنتجون. يختارون أسماء لأطفالهم تدل على الغنى والثروة.

---

(١) نجد سبقاً للفيلسوف اليوناني (بروتاغوراس) الذي قال: (إن الإنسان مقياس كل شيء). كما نجد أيضاً سبقاً للفلسفة المادية. فـ (نيتشه) أعلن عن موت الإله و(سارتر) قال إن الله غير موجود... الخ.

(٢) روي عن أحد المؤلفين مؤخراً أن الجسد هو ألم لأنه مكان الألم والشعور موضوعاته الإحساس وهي معاناة لأنها توصل إلى الألم. والسرور بحد ذاته معاناة لأنه متبوع بألم. انظر كتاب. تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية. ميرسيا ايلياد. ص/٤٨-٤٩/.

(٣) كان القدماء المصريون يعتقدون أن في كل جسم (كا) و(با) فـ (الكا) هي الجزء الأثيري في الجسم تلازم الجسد في المقبرة متى فني الجسد و(البا) تمثل الجزء الحي الذي يترك الجسد عند الوفاة محلقاً إلى الآلهة لا تمكث طويلا في السماء بل ينتابها الحنين بين لحظة وأخرى إلى ذلك الجسد فتهبط وتلتصق به، لذلك جعلوا لكل قبر كوة.

(٤) يقولون إن (البراهمة رأس الفكر) و(الكشاتريا ـ ذراعان) و(القايشيا ـ فخذان) و(السودرا ـ قدمان).

❖ **السودرا** ـ طبقة أضيفت فيما بعد تشمل الخدم والصناع ـ يختارون أسماء لأطفالهم تدل على الذل والمهانة.

وقد جاء في شريعة مانو ما يلي[1]: (أراد الموتى تكاثر الجنس البشري فخلق من فمه البراهمة ومن ذراعه الكشاتريا ومن فخذه القايشبا ومن قدمه السودرا /١٠/. أما على الصعيد الاجتماعي فقد كانت الفتاة تتزوج بأكثر من رجل في وقت واحد حيث تحدثنا قصة (دوربادي) عن فتاة تزوجت إخوة خمسة دفعة واحدة /١١/.

مرحلة ما قبل البوذية لقد سبقت البوذية بقليل ثم تزامنت معها الجانتية[2]. في منتصف القرن السادس ق.م كان هناك أبوان يعتقدان أن العودة إلى الحياة لعنة لمن يعود ولما بلغ ابنهما عامه الواحد والثلاثين أزهقا رَوْحَيْهما بجوع متعمد. وبقي ابنهما بعدها ثلاثة عشر عاماً متقشفاً ينكر ذاته. فأعلنت جماعة من أتباعه أنه (جنا ـ القاهر) واختاروا له اسماً جديداً هو (ماهافيرا = البطل العظيم).

ولد (ماهافيرا) عام /٥٥٩/ ق. م وتوفي عام /٥٢٧/ ق.م ونظم طائفة من رجاله رهباناً عزباً وراهبات، وتوفي عن عمر يناهز السبعين عاماً. وصف أتباعه المعرفة[3] بأنها تتجاوز حدود النسبية التي تقع في الزمان. (سبق لإنيشتاين في النسبية) وليس ثمة حق إلا من وجهة نظر معينة. أفرغ الجانتيون السماء من آلهتها وعَمَرُوها بطائفة من القديسين المؤلِّهين وعبدوهم. كانوا يسمحون للأطفال باعتناق الجانتية وهم في سن الثامنة شريطة أن يكونوا أصحاء الأبدان غير عليلين (يذكرنا ذلك بتركيز أفلاطون في الجمهورية على أصحاء الأبدان ومن بعده (نتيشه). اعتقد الجانتيون أن الطريقة المؤدية إلى الخلاص هي توبة متقشفة وتمسك بـ (أهمسا = عدم إيذاء أي كائن حي).

---

(١) وجد في /٢٠٠/ ق. م.

(٢) يقولون إن (البراهمة رأس الفكر) و(الكشاتريا ـ ذراعان) و(القايشبا ـ فخان) و(السودرا ـ قدمان)

(٣) يرى (أفلاطون) أن الفضيلة والمعرفة شيء واحد.

غاندي الذي ولد عام /١٨٦٩/ تأثر بالجانتية وقد امتدت زعامته على الهند من /١٩٢٠/ حتى /١٩٤٨/ واصطنع (اهمسا) أي عدم إيذاء الكائنات الحية وقد بلغ مرحلة (المهاتما ـ الروح الأعظم) مع انه ولد من فرقة (و يش) وكان لا بد له من ان يتناسخ مرات حتى يرتقي إلى فرنة) ثم يتابع حتى فرقة (البرهميين) ثم يبلغ الكمال. انظر كتاب (منوسمرتى) ص/٤٨/.

وعلى كل متقشف أن يأخذ على نفسه عهوداً خمسة. (لا يقتل/لا يكذب/ لا يسرق/لا يزني ـ يصون عفته/ يتجنب الملذات والشهوات).

ـ يصفي الجانتي الماء قبل شربه خشية أن يقتل ما هو كائن فيه.

ـ يغطي فمه حتى لا يستنشق مع الهواء ما هو حي فيقتله.

ـ يمنع من الخروج من البيت بعد غروب الشمس حتى لا يدوس الحيوانات الصغيرة التي لا يراها. وإذا خرج فعليه أن يحيط مصباحه بحاجز ليقي الحشرات لدغ النار.

ـ يكنس الأرض أمامه حتى لا تدوس قدماه كائناً حياً فيميته.

ـ الزراعة عنده حرام لأنها تشق التربة وتسحق الحشرات.

ـ أكل العسل عنده حرام لأنه طعام النحل (ويذكرنا بـ كونفوشيوس الذي لا يلبس الحرير لأن دود القز أولى به).

ـ لا يذبح الحيوانات بل عليه أن يقيم لها المصحات والمستشفيات لعلاجها وصونها في هرمها (من أوائل الدعوات إلى الرفق بالحيوان).

ـ لا يجوز له أن يزهق سوى حياته فقط لأن الانتحار في الجانتية ميزة ينعم بها البشر[1].

مدخل إلى البوذية: العظماء فئتان: فئة تجيء إلى هذا العالم كالمرايا العاكسة تعكس أحوال زمانها من غير أن تتدخل فيها.

وفئة: زودت غلبة على الزمان بحيث تدخلت في مسيرة شعبها فوجهت دفة مسيره للوصول به إلى المبتغى والمرتجى، وما بوذا[2] إلا واحد من أولئك العظماء الذين

---

(١) رفض شوبنهور فكرة الانتحار لأن الانتحار في رأيه ليس حلاً لأنه شاهد على عدم وجود إرادة الحياة ويؤكد على نقيضها. على الرغم من أنه فيلسوف متشائم.

(٢) (بوذا = المستنير) ويقال: إن روحه تقمصت ـ من مبدأ التناسخ ـ روح أحد الآلهة - انظر كتاب عالم الأديان. فوزي محمد حميد ص /١٩٧/ وله أكثر من اسم (جوتاما) ـ (سنيدارتا) (سدهارتا) (بوذاداهما ـ الحقيقة الخالدة للواحد المتيقظ) (التاتاجانا ـ من معانيها المنقذ المنتظر) لقب ـ بـ (السكيموني) وأفضل اسم له هو (المستنير) لكنه ليس اسماً شخصياً.

خلدهم التاريخ لأن مسيرة الشعوب لا تتطور إلا بفضل عبقريات فذة[1]. والعظماء كثيراً ما تكون ولادتهم يوم وفاتهم. وبما أن الهنود يعتقدون ان المرء يولد ولادة ثانية يوم يغدو مثقفاً، فإن (بوذا) بالقياس إلى ذلك يكون قد ولد أربع ولادات (يوم خرج من رحم أمه / ويوم غدا مثقفاً / ويوم قدم للعالم عصارة مكابداته / ويوم توارى جسداً ليشرق في الأذهان عقيدة وفكراً).

بوذا في التراث الهندي: يسجل التاريخ البوذي أسماء لا تقل عن أربعة وعشرين بوذا سبقوا بوذا والذي هو موضوع حديثنا. حيث يصور التراث الهندي أن (بوذا) يظهر من وقت لآخر طوال التاريخ البشري، وسوف يواصل الظهور كلما فقد الناس معرفة (الداهما = القانون الأخلاقي = الحقيقة الكاملة) /١٢/ إذ يظهر كل حوالي خمسة ألاف سنة تقربيا. وينعتونه بـ (المنقذ المخلص المنتظر). حيث أن(سري كريشنا) تجسد في الإله (فشنو) وقد تمثل في شكل حوت لينقذ (مانو عند الهنود = نوح عندنا) .

و يتجسد دائماً عندما يختل ميزان العدالة فيعود إلى الأرض ليملأها عدلاً. ويظهر أن لكل شعب منقذه المنتظر أيام شدته حتى أن اليهود ينتظرون (مسيحاً) يكون منهم يخلصهم من شقائهم كما يعتقدون بعد أن تفرقوا في الشَتاتْ.

ولادة بوذا

ولد بوذا المنتظر (المستنير) من أمه (مايا)[2] التي توفيت بعد سبعة أيام من ولادته /١٣/ أو فور ولادته كما يقول (ول ديورانت) في كتابه قصة الحضارة ولد عام /٥٦٣/ وتوفى عام /٤٢٨/ق. م وعمره ثمانون عاماً. وتحدثنا الكتب عن معجزات وخوارق ظهرت أثناء حمل أمه به ويوم ولادته ويوم وفاته وحتى بعد وفاته أيضاً. فأثناء حمل أمه به

(١) يقول (شوبنهور) الطبيعة لا تمنح العبقرية إلا للقليل من الناس لأن العبقرية تعوق سير الحياة العادية.

(٢) أو (مايا ذي) ولشدة جمالها الآسر سميت (مايا) أي (كأنها الوهم) ومعنى الكلمة حرفياً (مفهوم الوهم ولا واقعية العالم).

رأت منامات كثيرة من جملة ما رأت أن اللّه دخل في أحشائها بشكل فيل[1].

وقد ولد نظيفاً من الدم وغيره وهبَّ واقفاً وتكلم وقد ولدته أمه من خاصرتها اليسرى. كما أقامت عليه ملائكة السماء حفلاً سماوياً ابتهاجاً بقدومه، وعندما رأى الزاهد الراهب (أستيا) ذلك الحفل هرع إلى الأمير والد (بوذا) طالباً منه رؤية الطفل فقال له الأب: (إنه نائم) أجاب (أستيا) أيها الأمير أمثال هؤلاء الكائنات العظيمة لا تنام طويلاً إنها متيقظة بطبيعتها.

حمل (أستيا) الطفل ثم بكى فسأله الأمير عن سبب بكائه أجاب (أستيا): إن هذا الطفل سوف يصل إلى درجة (التنوير السَامِيَة) وأنه سوف ينتصر بالمحبة لا بقوة السيف وأبكي لأن العمر لن يمتد بي لأصبح تلميذاً لهذا البوذا العظيم يذكرنا بموقف /١٤/[2] والده الأمير (سودهدانا)[3] من أبناء عشيرة (جوتاما). أحاط الأب ابنه منذ صغره بكل وسائل الراحة وأقصى درجات الرفاهية.

حياة بوذا منذ طفولته: بنى له أبوه قصوراً تتناسب وسائر الفصول. لباسه من سندس خضر وإستبرق. وشميمه طيب وعنبر وشرابه عسل مصفى وطعامه ما لذ وطاب. يطاف عليه بالمأكول والمشروب بآنية من ذهب وفضة يحيط به الخدم

---

(١) ويقال إنه ولد من عذراء كما ولد المسيح. انظر كتاب الأديان الحية. أديب صعب ص/٥٧-٥٨/ وفي بحث لي بعنوان (سيكولوجية الحلم في ملحمة جلجامش) رأيت أن الحلم ليس استشرافاً مستقبلياً كما يتوقع الكثيرون بل هو في أغلب الأحيان معاناة مسبقة يعيشها المرء أو يتخيلها أو يتوقع حصولها وتظهر له في الحلم حين تنفلت خافيته من عقالها لحظة لا رقيب عليها وأحلام (جلجامش) كانت مشابهة للحدث الذي ينتظره في الأسطورة حتى أن سورة (يوسف) (ع) في القرآن الكريم. أنه عندما (رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر....) كان يدرك قبل رؤيته هذا المنام حسد أخوته له.

(٢) يذكرنا ذلك بالمجوس الذين جاءوا إلى أورشليم أيام (هيرودوتس) حيث رأوا في السماء نجماً فعرفوا أن السيد المسيح قد ولد وقد جاءوا إليه فسجدوا له. انظر انجيل متى إصحاح /٢/ فقرة /١-٢/ كما يذكرنا بكاؤه كونه سيموت قبل استنارة بوذا بما حصل مع الراهب (بحيره) في عهد الرسول محمد (ص).

(٣) أيضا له أكثر من اسم حسب الترجمة (شدذوذانا ـ سوذودانا.. الخ).

والجواري والراقصات من كل الجهات. فصبحه لا أحلى ولا أروع ومساه لا أرق ولا أبدع، وكأنه في جنة استنزلها له أبوه إلى العالم الأرضي بحيث غدا أمامه المستحيل ممكناً والحلم حقيقة يتنعم بها (بوذا) حتى الثمالة عن طريق حواسه الخمس (كاما = التلذذ عن طريق الحواس الخمس). حال أبوه بينه وبين كل منظر يجرح مشاعره ويسبب له الألم أو يؤثر في نفسه سلباً وبخاصة عندما سمع من الراهب (أستيا) أن ابنه سيصبح (بوذا) المستنير. إلا أن (بوذا) لم يكن هذا النعيم الذي يحيط به هو شغله الشاغل أو حتى شيئاً يشغل باله، بل كان يخطر إلى ذهنه تساؤل مفاده: ترى.. ألا يمكن أن يكون العالم الخارجي غير الذي يراه؟ وظل (بوذا) ينعم بهذا الفردوس الأرضي قرابة ثلاثين عاماً.

إرهاصات مكابدات بوذا

ذات يوم عندما كان يقوم برحلة خارج القصر ـ على الرغم من أن أباه كان يخلي له الطريق قبل خروجه رأى بالصدفة عجوزاً فسأل سائق عربته (تشنا)[١] عن ذلك فأجابه: إنه رجل عجوز. لم يفهم (بوذا) ما معنى كلمة عجوز[٢] لأن هذا المشهد لم ير له مثيلاً من قبل فأعاد السؤال على (تشنا) مستفسراً عن معنى كلمة عجوز. ولما عرف معناها سأله قائلاً: وهل نحن معرضون للشيخوخة يا (تشنا)؟ أجابه: نعم يا مولاي. قدرنا جميعاً أن نكبر ونهرم فالعالم مليء بالمسنّين الهرمين. عاد (بوذا) إلى القصر وصورة ذلك العجوز لا تفارق مخيلته.

وفي رحلة ثانية شاهد مريضاً فأعاد الأسئلة نفسها على (تشنا). وعندما أجابه (تشنا) عن الرجل ثم عن معنى كلمة مريض سأله: وهل نحن معرضون للمرض؟

---

(١) يقال أيضا (شنا أو شونا).

(٢) يظهر أن أباه كان يطرد من قصره الشيوخ أو يقيل خدامه بعد بلوغهم الأربعين عاماً. لكن السؤال الغريب حول شخصية (تشنا) هل هو مقارب لعمر (بوذا) أم أكبر منه بكثير فإذا كان مقارباً لعمره فمن أين له بكل هذه المعلومات وإذا كان أكبر بكثير فإن (بوذا) يرى العجز أمامه من خلاله أي من خلال (تشنا).

أجابه (تشنا): نعم يا مولاي. كلنا معرضون للمرض فالعالم مليء بالمرضى المعذبين.

لم يطرح تساؤلاته أو يعرض معاناته ومكابداته على أحد وأخفى كل ذلك حتى عن أبيه وزوجه.

ثم خرج في رحلة ثالثة فرأى ميتاً. ولما استفسر عن الرجل ثم عن معنى الموت سأل (تشنا) وهل نحن معرضون للموت؟ أجابه نعم يا مولاي كلنا ميتون.. قدرنا أن نموت ونفنى فالموت لا يدع على الأرض حياً لأنه ضريبة الولادة. عاد إلى القصر هذه المرة وقد بلغ به الحزن غاية مداه. فالموت كما يقول (لوكريش) في كتاب قصة الحضارة لـ (ول ديورانت) أصل الديانات كلها وهو قدر حتمي يدركه المرء فور اكتمال مداركه ومع ذلك فهو يعاني من هذه الحتمية. فتراه دائب التفكير دائم السعي بحثاً عن شجرة الخلد وملك لا يبلى (جلجاميشيّ) النزعة، ولو قدر له هذا الخلود الذي يسعى إليه مستميتاً سعياً عبثياً دونكيشوتياً فلسوف يتوسل إلى ملك الموت ليهبه الموت عندما يهن العظم منه ويشتعل رأسه شيباً ويبلغ من الكبر عتياً. ثم قام برحلة رابعة وأخيرة فشاهد رجلاً حليقاً (شرمانياً = أي رجل دين يتجول) يلبس رداء أصفر فسأله (بوذا) عن ذلك الرجل فأجابه (تشنا) إنه يمضي قدماً. لم يفهم (بوذا) ما معنى كلمة (تشنا) وبعد استفساره عن معنى الكلمة: عرف أنه واحد من (البهخوس = راهب متجول ضيلع في الحياة الدينية)/١٥/.

عاد (بوذا) إلى القصر وكأنه في حالة غيبوبة. لم يأبه حتى للموسيقى المنبعثة من القصر فرحاً بولادة ابنه (راهولا) فالأسئلة بدأت تقض مضجعه وتهز (أعمق أعماقه). لماذا يولد الإنسان؟ أَوُلِدَ ليعاني المرض وتعبث به يد الشيخوخة ثم يطويه شبح الموت؟!! من أنا؟ كيف علي أن أحيا؟!! وهذان السؤالان وحدهما جوهر الفلسفة. ألم يعرف (كانط) الفلسفة. بأنها (علم الأنا حيال اللا أنا)؟ بدأ بمحاولة كشف سر هذا الموت العصي على الفهم. شعر بالرغبة في المعرفة. والرغبة حاجة. والحاجة فراغ. والفراغ حنين إلى الملء. وبعد سجال طويل مع الذات، قرر هجر الملذات والشهوات والرغبات لعله يدرك كنه سر المعاناة والمكابدات. وأدرك أن مفتاح السر لا يوجد داخل القصر بل خارجه حيث يرى الناس على حقيقتهم. دخل

غرفته في هزيع الليل ليودع طفله الصغير بنظرة أخيرة، فقد خشي أن يكون هذا الرضيع قيداً له إذا تعلق به فأراد أن يتحلل من هذا القيد قبل أن يتمكن فيه. ودع ابنه (راهولا) وزوجته (ياسودارا) /١٦/ المستغرقَيْن في نوم عميق وخرج من الغرفة بصمت مطبق وغادر القصر بصحبة (تشنا) والليل يرخي سدوله على شرفات المدينة. وإذا كان هذا المشهد قد هزنا واستنهض فينا عاطفة الأبوة والزوجية فإن (بوذا) قد أطلق على هذا الموقف اسم (التحرير العظيم) لأن البيت كان عالمه فصار العالم بيته. بحيث يكون كله أسرته الكبرى. وبينما هو في الطريق على ظهر حصانه (كانتاكا) تبدى له (مارا = الشيطان) وأغراه بملك عريض إذا رجع عما عزم عليه فأبى وأي ملك يَعِدُهُ به (مارا) وأقصى ما يتمناه كان رهن يمينه في قصر أبيه متى شاء وأنى أراد. حلق في الصباح شعر رأسه وخلع ثياب الملك وأعاد الحصان مع خصلة من شعره إلى أسرته مع (تشنا) وودع (بوذا) (تشنا) ثم لبس الرداء الأصفر وسار متجولاً في رحاب الهند كواحد من (البهخوس الشرمانيين = رجال الدين المتجولين) بدأ بممارسة اليوغا حيث كانت موجودة من قبل ذاك في بلاد الهند /١٧/.

واليوغا رياضة النفس تبدأ من الأكثر سطحية وتنتهي بالأكثر جوانية، وتبلغ ذروتها في (السامادي) حيث تصل إلى درجة الإدراك المطلق (سام = كمال) و(أدي = الوضع في المكان).

يقول: (زممت أسناني وضغطت لساني إلى لهاتي حتى زخني العرق من إبطي ثم أوقفت نفسي شهيقاً وزفيراً من فمي وأنفي محاولاً اصطناع غيبوبة لا شعورية حتى سمعت الهواء يخرج من أذني وأحسست أن رياحاً عاتية ترج رأسي)

ـ صار يقضي الساعات الطوال حافياً فوق الشوك حتى تدمى قدماه[1].

ـ ينام بين جثث الموتى العفنة متأملاً رهبة الموت الذي يفضي بك إلى المجهول وليس ثمة مستقبل منظور بل مستقبل عصي على المُدْرَك والمتخيَّل والمتذهَّن (فسقراط) يقول: الموت لا يخيف وإنما الذي يخيف هو الفكرة المأخوذة عن الموت. وعموماً فإن التفكير في الموت تحليلاً وتعليلاً فلسفة بحد ذاتها، و(شوبنهور) يقول:

---

(١) يقال: عن خمسة زهاد قد آمنوا بدعوته ثم هجروه بعد أن اقلع عن تقشفه الشديد.

إن الموت هو المنبر الرئيسي للفلسفة وما الفلسفة سوى تأمل في الموت، كما يقول (أفلاطون) . إذ ليس هناك أبعد من جثة ميت رغم قربها، ولا أبلغ منها رغم صمتها، ولا أوضح منها رغم غموضها، ولا أعتى من صراخها رغم سكونها وهدوئها، ولا شيء يخيف أكثر منها رغم وداعتها وأنسها، حيث تقول الجثة الهامدة بفمها ما لم يَقُلْه حكماء الأرض وكتب العالم.

ولعل الخوف من الموت هو بشكل أو بآخر خوف على المتوفى فينا مستقبلاً[1].

فاخضع جسمه لعقوبة قلما يحتملها جسد بشري إذ كان يكتفي في أكثر الأحيان بحبة أرز واحدة طيلة اليوم حتى غدا هزيلاً نحيلاً عليلاً يمكنه عد أضلاع جسده بأصابع يده ويخيل إلى كل من يراه بأنه هيكل عظمي متحرك. بقي على هذه الحال المضنية (ست سنوات) حتى كاد يدفع حياته ثمناً لعذاباته ومكابداته لولا أن رأته إحدى القرويات وقدمت له كوباً من الحليب وما أن أحس بدبيب الحياة يسرى في جسده حتى قرر الإقلاع عن هذه العذابات التي لا طائل منها سوى إنهاك الجسد مدركاً أن العقل السليم لا يكون إلا في الجسم السليم.

صحوة بوذا

جلس تحت شجرة (بو BO) = شجرة التين[2] الوارفة الظل جلسة مستقيمة لا حراك بها وصمم أن لا يبرح مكانه حتى يأتيه التنوير، ولن يذوق طعم السعادة حتى يرى حلاً لمعضلة الوجود أو لمعضلة وجوده على الأقل. فراح يتأمل بنظرٍ فَحِيص كل ما يحيط به يعمل مفكراً عاملاً بحثاً عن الإجابات السليمة لتحقيق مبتغاة إذ لا قيمة لقيمة لا تتحقق. أراد كشف السر عن طريق المحسوس والملموس والمرئي لا عن طريق حدس عرفاني صوفي أو غنوصي ميتافيزيقي. والبحث الدؤوب عن الإجابات بداية كل عظيم. بدأ يدرك أنه لا الغرق في قاع الملذات ولا التقشف حتى هلاك الذات

---

(١) يقول شيلي: إن الآخرين لا يتعاطون مع موت الآخرين إلا لأنهم يرون فيه موتهم.

(٢) يقال: إن أمه وضعته تحت شجرة التين ولقد عظمها البوذيون إلى درجة التقديس. والتين رمز لبوذا ورمز للسيد المسيح وهو مقدس في الإسلام (و التين والزيتون......) قرآن كريم.

كفيل بأن يوصله إلى ما يريد إذ لا إفراط ولا تفريط.

وكان يعتقد بأن الألم أرجح كفاً من اللذة ولذا.. فخير للإنسان أن لا يولد لأن ما سفحه الناس من دموع عبر حياتهم لأغزر مما تحويه المحيطات الأربعة من مياه /١٨/ فوصل إلى الطريق (الوسط = الماجا) وظل في حالته السكونية هذه مع شدة في التركيز. (وكما يقال: لو تصور المرء شيئاً لوجده) فأشرقت عليه صورة الموت والولادة حيث يتعاقبان على مجرى الحياة تعاقباً لا ينتهي، فأدرك أن كل غبطة يقابلها خيبة أمل وأن كل موت يزول أثره بولادة جديدة فقال: (رأيت الكائنات الحية تمضي ثم تعود فتولد، دنية أو سنية، خيرة أو شريرة، سعيدة أو شقية!!. حسب ما يكون لها من (كارما = المصير والفعل) وفق ذلك القانون الشامل الذي بمقتضاه سيلقى كل فعل خير ثوابه وكل فعل شرير عقابه في هذه الحياة أو في حياه تالية تتقمص فيها الروح جسداً آخر[1] وتعاقب الموت والولادة هذا جعله بزدري الحياة فقال: إن الولادة أم الشرور جميعاً ومع ذلك فالولادة ماضية في طريقها إلى الأبد ولا تقف عند حد. فسأل نفسه السؤال الاستنكاري التالي: لماذا لا تقف هذه الولادة؟ أجاب نفسه: (لأن قانون كارما = المصير) يتطلب حالات جديدة من التقمص للروح كي يتاح لها أن تُكَفِّر عما اقترفت من شرور في حيواتها الماضيات وذلك حين يطهّر نفسه من شهواته الذاتية تطهيراً كاملاً.

وإذا كانت العمارة الديكارتية تقول: أنا أفكر .. إذا أنا موجود. وهي (الكوجيتو) الأساس. والعمارة البيرانية تقول: أنا أريد .. إذا أنا موجود. والعمارة السارترية تقول: أنا موجود.. إذا أنا أفكر. فإن عمارة (بوذا) مثيلة لعمارة ديكارت مع سبق زمني كبير لها.

أدرك (بوذا) أن مصيره إلى فناء فعرف الموت بأنه نهاية مؤقتة لظاهرة مؤقتة /١٩/ ولذا فما عليه إلا أن يحرر نفسه من التعلق بالمتاع الزائل الفاني فنظر إلى المعاناة والألم (شخصها ـ عرف سببها ـ حاول وقفها ـ ثم حاول منعها) ضمن حقائق أربع:

---

(١) سَبْقُ (أفلاطون) في نظرية التقمص.

ـ **الدوخا**[1] فالولادة والانحلال والمرض والشيخوخة والتعلق بالوجود بما هو موجود وكل ما يمقت الإنسان يسبب الألم. إذ عندما تعتري هذه الأمور النفوس تحيل حياة المرء شقاء وسعادته بؤساً. ثم طلب من تلاميذه أن ينظروا ويتفكروا ـ مثلما كان يفعل ـ في جثة ميتة عفنة نتنه مسودة منحلة متفسخة منتفخة في مقبرة ويقارنوها بأجسادهم ليدركوا أن طبيعة أبدانهم كطبيعة هذه الجثة وأن مآل أجسادهم كمآلها ومنتهاها ـ (سامودايا = سبب الألم). إذ ينبع الألم من الرغبة الملحة في السعي وراء الشهوات والملذات والتعلق بالوجود تعلقاً مستميتاً.

ـ **النيروذا** ـ كف الرغبة لإيقاف ما تحدثه (الدوخا) من آلام وبذلك تصل إلى النيرفانا، فمعناها القريب: هو الانطفاء والعدم، ومعناها البعيد أُجْمِلُهُ اختصاراً فيما يلي: ليس هناك ألم كألم البدن وليس هناك سعادة أسمى من سعادة الراحة والسكون وإذا عرف المرء ذلك حق المعرفة بلغ (النيرفانا) ووصل إلى السعادة العليا حيث لا مكابدة ولا ألم. و(النيرفانا) تعنى أيضاً فناء المرء فناء كاملاً بحيث تخمد نار شهواته كلها فلا تبقى لديه عاطفة تشتهي. وإطفاء النار لا يعني زوالها وإنما العودة إلى حالة كمون بالقوة حيث يعدم المرء نفسه إعداماً خلقياً بحيث ينعدم شعوره بذاته ويحقق الذوبان الذاتي التام لـ (أتمان) في الموضوعي (براهمان) حيث يدرك الفردوس الأرضي كونه غداً مباركاً وأدرك الخلود واستطاع أن يحرر نفسه من العودة إلى الحياة مرة أخرى فقال: (طهروا ضمائركم فتخلصوا من التناسخ ولن تولدوا من بعد أبداً /٢٠/.

ـ **الألم** لن يزول إلا بالتخلي عن الرغبات واقتلاع نار الشهوات من جذورها من النفس الإنسانية ومنع هذا الألم يطبق عبر ثماني مراحل. (الإيمان الحق / القرار الحق / الكلام الحق/ السلوك الحق / العمل الحق / الجهد الحق / التركيز

(١) ولعل قصة المرأة التي بكت ولدها يوم وفاته وذهبت إلى (بوذا) وسألته إن كانت له عودة إلى الحياة فقال لها: إذا جئتني بحبة خردل من بيت لم يمت فيه والدان أو طفل أو أقارب أو خادم فسأرد لك حياة ولدك. وعندما لم تجد ما طلبه منها وأدركت أنه لن يعود فعرفها على الطريق الصحيح من خلال وصاياه الخمس. انظر كتاب قصة الديانات. سليمان مظهر ص/١٣٤-١٣٥/.

الحق/ التأمل الحق)[1].

موقف بوذا من اللاهوت: كان بوذا يكره التضحية للآلهة ويكره رؤية الحيوان مذبوحا. حيث يخطى البشر ثم يكفرون عن خطاياهم بذبح غيرهم من دون أن يصلحوا أنفسهم. وكان يحس بأنه ليس صاحب رسالة لا هوتية ولا منشىء دين جديد.

فلم يدع الوحي قط ولم ينسب إلى نفسه النبوة أو أنه تكلم على لسان إله. لكنه زعم لنفسه التأمل والاستنارة. وكان يصرف تلاميذه عن السؤال عما وراء الطبيعة.

وكما صرف (كونفوشيوس) تلاميذه عن مثل هذه الأسئلة إذ لما سأل (كونفوشيوس) أحد تلاميذه عن الموت أجابه: يابني أنت لا تعرف شيئا عن الحياة فكيف تعرف أسرار الموت؟ فالقدسية والرضي في نظره لا يكونان في معرفة الكون والله، وإنما في العيش الذي ينكر فيه المرء ذاته /٢١/ كما كان لا يدخل في أي نقاش ما ورائي سواء ما يتعلق بالآلهة أو الأبدية ويسخر من الذين يوجهون دعواتهم إلى مجهول يقول: (من الحمق أن تظن أن سواك يستطيع أن يكون سببا في سعادتك أو شقائك لأن السعادة والشقاء نتيجة لسلوكنا وأفعالنا نحن). كما كان يتهكم على الآلهة ويقول: (إن الآلهة أنفسهم لو كان لهم وجود لما كان بوسعهم أن يحلوا المسائل الميتافيزيقية العويصة)[2]. والحوار التالي يدل صراحة على موقفه من اللاهوت

---

(١) ومنهم من يقول (الإيمان الحق / القرار الحق / الكلام الحق / السلوك الحق / العمل الحق / الجهد الحق / التركيز الحق / التأمل الحق) ومنهم من يقول (الإدراك السليم / التفكير السليم / الكلام السليم / العيش السليم / السلوك السليم) انظر كتاب قصة الديانات. سليمان مظهر ص/١٢٦/ وكتاب البوذية ص/٦٨/ الملاحظة السليمة)(التركيز السليم) انظر كتاب عالم الأديان بين الأسطورة والحنيفة. فوزي محمد حميد. ص/١٩٥/ وكانت هذه الديانة تزود أتباعها بالطريق المستقيم وأهم مبادئها أربعة (الكارما) مصير المرء لا تمحوه خطئية أو ندم (الدارما) واجب الفرد نحو الطبيعية التي ينتمي إليها الجندي مثلا... يخلص في الحرب ويحمي وطنه) (المايا) العالم وهم زائل وكل ما فيه إلى فناء (الموكشا) تحرير المرء من جميع القيود وهو المثل الأعلى.

(٢) كان يعلم تلاميذه شفاها كسقراط الذي تلاه زمناً وكان يعلمهم عن طريق المحاورة والمحاضرة في عبارات سهلة يفهمها سائر الناس.

يقول (وحدث يا /كفاذا/ أن طاف الشك بأحدهم ذات يوم في المسائل التالية): أين تمضي العناصر الأربعة (الماء، والهواء، والتراب، والنار)[1] بحيث لا تترك أثراً؟ فقدح الرجل زناد عقله حتى أخذته حالة من الوجد أتضح معها السبيل المؤدية إلى اللّه. فصعد إلى مملكة (الملوك الأربعة الكبار) وخاطب آلهتم قائلاً: أين تمضي هذه العناصر الأربعة؟.

أجابوا: لا ندري.. لكن هناك الملوك الآربعة الكبار (أي غيرهم) فهم أقوى منا وأعظم. سلهم يجيبوك. فذهب إليهم وسأل السؤال نفسه فأجابوه كما أجابه الأربعة السابقون وأقروا بعدم معرفتهم، فذهب إليهم وسألهم السؤال نفسه فأجابوه كما أجابه الأربعة السابقون وأقروا أيضا بعدم المعرفة. ثم أحالوه إلى آخر والآخر أحاله إلى آخر حتى بلغ عدد من أحالوه كل إلى آخر حوالي تسعة آلهة حتى وصل إلى (العالم البرهمي) فدنا من الآلهة التي تتألف منها حاشية براهما وسأل أين تذهب العناصر الأربعة أجابت حاشية براهما لا ندري ولكن هناك براهما العظيم الواحد العلي القوي القدير البصير من بيده الأمر والتدبير السابق للزمان الوالد لكل ما هو كائن وما سيكون سله يجبك. فسألهم: وأين هو؟ قالوا: لا ندري أين يكون ولا لماذا كان ولا من أين جاء.

لكن بادره ظهور براهما هو إشراقة الضوء ثم تبدّى براهما العظيم فدنا منه الرجل وسأله: أين تمضي هذه العناصر الأربعة الكبرى أجاب (براهما العظيم): أنا العلي القدير البصير. بيدي الأمر والتدبير ضابط وسيد وخالق كل شيء، السابق للزمان والد ما هو كائن وما سيكون. أجاب السائل: أنا لم أسالك عن صفاتك. أنا أسالك أين تمضي العناصر الأربعة؟ أجاب (براهما): الجواب السابق بحرفيته، ثم أعاد الرجل السؤال مرة أخرى طالباً من (براهما) تحديد الإجابة التي تتعلق بالسؤال عن مصير العناصر الأربعة فما كان من (براهما العظيم) إلا أن نحّاه جانباً وقال له:

إن هذه الحاشية التي تتألف منها حاشية (براهما) تعتقد أني أرى وأعلم وأتبين

---

(١) وكان الصينيون يضيفون إلى هذه العناصر الأربعة (الخشب) وقد أخذ اليونان هذه العناصر الأربعة فقط.

كل شيء ولهذا لم أجبك بحضرتهم لكنني أيها الأخ أنا لا أعرف أين تذهب هذه العناصر الأربعة...!!! /٢٢/[1]. ولقد صاغ تلاميذه قواعد خلقية خمساً بمثابة الوصايا.

وصايا بوذا[2]	وصايا الجانيتة مهافيرا	وصايا يسوع في الإنجيل
لا تقتل: لا تقتل كائناً حياً	لا تقتل	لا تقتل
لا تسرق: لا تأخذ ما لم تُعْطِه	لا تسرق	لا تسرق
لا تكذب: لا تقولن كذباً	لا تكذب	لا تشهد الزور
لا تسكر: لا تشرب مسكراً	تخل عن كل ارتباط	أكرم أباك وأمك /٢٣/
لا تزن: كن طاهراً	لا تزن	لا تزن

ونجد أيضاً في التوراة / سفر الخروج مثل هذه الوصايا لا تقتل ـ لا تزن ـ لا تسرق ـ لا تشهد على قريبك شهادة زور ـ لا تشته إمرأة قريبك ولا عبده وأمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك /٢٤/ هذا التشابه لوحده بحاجة إلى محاضرة كاملة.

موقفه من المرأة

سأله تلميذه (أنا ندا): يا مولاي.. كيف ينبغي لنا أن نسلك إزاء النساء؟

أجاب (بوذا): كما لو لم تكن رأيتهن يا (أنا ندا).

- و لو تحتمت علينا رؤيتهن؟
- لا تتحدث إليهن.
- و إذا تحدثت إليهن؟
- كن على حذر منهن يا أناندا.

(١) وأسماء الآلهة كالتالي: (ساكا / ياما / سوياما / توسيتا / سانتوستيا / نمانا ـ رتي / سوني ميتا / يارانيميتا فاسافاتي).

(٢) وهناك وصايا عشرة. (لا تقتل / لا تسرق / لا تزن / لا تكذب / لا تسكر / كل باعتدال ولا تأكل بعد الظهر / لا تحضر حفلات اللهو من رقص وغناء وتمثيل / لا تتزين وتتعطر / لا تقتن فراشاً وثيراً / لا تأخذ ذهباً ولا فضة).

وقد استدعته ذات يوم (مها ـ برجباتي) بعد أن اعتنقت أفكاره وقالت له: منذ آمنت بك وجدت الطمأنينة وأني أرجوك أن تدخل في طائفتك جميع النساء ليجدن السلام. فلم يقبل رغبتها رغم إلحاحها وإلحاح تلميذه المدلل (أناندا). فقد رغب أن تبقي المرأة في بيتها من دون أن تحيا حياة (البهخو = الراهب) إذ يمكنها الحصول على الخلاص ما دامت تتبع وصايا قلبها. وبعد إلحاح جِدٍّ شديد قَبِل أخيرا أن يكون هناك راهبات بوذيات /٢٥/.

ثم أعلن أنه بقبوله للنساء فإن الشريعة التي كان مقدراً لها أن تدوم ألف سنة فلن تدوم سوى خمسمئة سنة /٢٦/ وموقفه هذا ـ كما أرى ـ لم ينبع من فراغ ولا من عدم بل من بيئته ومن مرجعيته الثقافية التي أطلع عليها. ففي كتاب (منوسمرتي) نجد أن القوامة في البيت للرجال لا للنساء.

يقول الكتاب في ص/٣١٠/ (إن المرأة يجب أن تكون في صغرها تابعة لأبيها وفي صباها لزوجها.. فلابنها.. ولا تكون المرأة مطلقة الحرية قط)[1]

الدخول في البوذية: لا يتم بغير استئذان الوالدين لأن موافقتهما شرط أساسي للدخول في البوذية. ولقد انضم إلى دعوته ابنه (راهولا) وكانت أمه (ياسودارا) تأمل أن ترى ابنها ملكاً إلا أن الشعب بعد انضمام (راهولا) لأبيه (بوذا) نصبوا بدله (أناندا) ولياً للعهد إلا أن هذا الآخير قد زهد أيضاً وأنضم إلى (بوذا) ولما سمع (سودهدانا) والد

---

(١) وفي كتاب (منوسمرتي) فصل كامل عن المرأة. يقول الكتاب في ص /٩٠/ الأم أعظم من الأب بألف مرة. كما نجد منعاً للأقارب عن الزواج من الأقارب. وفي ذلك سبق لعمر بن الخطاب (ر) عندما رأى أناساً ضعاف الأجساد من قريش فسألهم ما بكم ؟.. قالوا: قرب آبائنا من أمهاتنا. قال: اغتربوا لا تضووا.. تزوجوا من الأباعد فأنجبوا. كما نجد سبقاً لأفلاطون أيضاً عندما طالب بعدم الزواج من الأقارب. يقول الكتاب (إن خير زوجة هي التي ليست من قريبات الأم ولا من أسرة الأب) ص/١٢٢/ كما تحدث الكتاب عن أن جماع الزوجة في الأيام المزدوجة يولد الذكور وأن جماعها في الأيام المفردة يولد الإناث ص/١٣٣/ ونجد أيضاً (ويستطيع النساء لا استهواء الجهلاء من الرجال فحسب بل والعلماء منهم وجعلهم عبيد الهوى ص /١٠٧/ ويقول أيضاً (إذا كانت الزوجة جميلة كلها تضيء وتزدهر وإذ لم تكن جميلة فكل ما في الدار يرى قاتماً) ص/١٣٧/.

بوذا بذلك حزن حزناً شديداً والتمس من بوذا كرامة أن لا يدع اليافعين الأشراف (ع) ينضمون إلى طائفته بغير استئذان والديهم فوافق على ذلك /٢٧/.

خطأ فلسفة بوذا: لقد اقترح (بوذا) لاهوتاً بغير إله، ورفض الروحانية بشتى صورها لأن الروح في نظره أسطورة من الأساطير. لقد أقر (بوذا) بأنه ليس بخالد بعد موته خلوداً يحفظ شخصيته. وإذا كان ذلك فكيف يمكن أن يعود إلى الحياة من جديد في ولادة ثانية إذا لم يكن هنالك روح؟ ما الذي يتقمص أجساداً أخرى في ولادة تالية؟ ليلقى عذابه على خطاياه إذ هو في حال صورة الجسد. تلك هي أضعف الجوانب في فلسفة (بوذا) /٢٨/. هذه هي الأفكار التي هي أهم ما تميز مذهبه عن مذاهب الفلاسفة في الهند. ولهذا نظرت المذاهب الفلسفية الأخرى إلى آرائه على أنها (هرطقة) وقالوا: إننا إذا أنكرنا الروح فإن السعي الأخلاقي سيكون بلا قيمة. وإذا لم يكن هناك روح فلن يكون هناك من يستحق المدح أو الذم أو الثواب والعقاب. وإذا لم يجن الإنسان ثمار أعماله الصالحةأو الطالحة فما الذي يجعله يهتم بطريقة حياته.

وفاة بوذا

عهد (بوذا) قبل وفاته إلى أحد مريديه (كاسايا) ليسير شؤون البوذية من بعده. وعندما توفي أحرقت جثته وقسم رفاته إلى ثماني مجموعات. وكل جماعة أخذت قسماً وبنت فوقه ضريحاً مقدساً وأصبحت هذه الأضرحة بمثابة (ستوبات ـ أي مراكز للعبادة). وعلى الرغم من ازدراء (بوذا) المعجزات في حياته، فإن تلاميذه قد تقولوا عنه، ونسبوا إليه أشياء لو كان حيا لنسفها من جذورها فقد جعلوا منه معجزة. ومما قالوا عنه: إنه سار في حياته فوق ماء نهر (الكنج). كما سقطت من يده خشبة صغيرة كان يزيل بها ما يعلق في أسنانه من فضلات الطعام فنبتت مكانها شجرة كبيرة، وأن بموته اهتز العالم من أقصاه إلى أقصاه. هذا الرجل الذي لم يدْعُ في حياته إلى عبادة إله... قد جعل أتباعه منه نبياً... بل أوصلوه إلى مرتبة الآلهة فأصبحت البوذية من بعده بالغة التعقيد حيث انقسمت إلى قسمين:

ثرافاد ـ حافظت على تعاليمه من بعده واكتسبت لاحقاً اسم (هينايانا).

ماهايانا ـ تحررت من قيوده حتى أن أحد الرهبان قد قال فور ولادته: الآن بإمكاني فعل ما أريد. ثم انتشرت بفضل (أزوكا)/٢٧٣/ ق. م واعتبر المؤسس الثاني لها ثم أتى(شانكار) واخذ على عاتقه القضاء على البوذية وإحياء الهندوسية من جديد فكان له ما أراد وانهارت آخر أعمدة البوذية بعد الفتح الإسلامي للهند /٢٩/ على يد (القاسم بن محمد الثقفي)/٣٠/.

بين الجانتية والبوذية

بين الجانيتة والبوذية من التوافق قدر ما بينهما من التضاد فـ (بوذا وماهافيرا) من طبقة الأشراف (الكشاتريا) ثارا على الأوضاع السائدة ورفضا (الفيدا) ونُبِذَا من الهندوس وكلاهما من بلد واحد[1]. تزوجا وأنجب كل منهما ولدا ثم ترك عائلته وتَرهَبن واضعاً نصب عينيه الـ (أهمسا). وخلافهما يبتدىء في أن الجانتية تقبل في صفوفها الأطفال في سن الثامنة بدون أي شرط بينما البوذية تشترط موافقة الوالدين. والجانتية تحتقر الزراعة والبوذية تحترمها. يقول (بوذا): (طوبى لليد التي تزرع). كما أن الجانتية تؤمن بحياة تقشفية جد قاسية، بينما البوذية اتبعت طريق الوسط. لكن السؤال المحير هو: ما الذي جعل من (بوذا) شخصية تدخل نطاق العالمية من باب واسع بحيث سمعت به الأكثرية الساحقة حتى السوام منهم بينما لم يستطع (ماهافيرا) أن يحقق هذه الشهرة الأفقية الواسعة ولم يسمع به سوى المتخصصين والباحثين والمهتمين؟[2]

بعض من أقواله

- **(الحياة ألم. والألم نابع من الشهوة، والحكمة تمنع سائر الشهوات)**
- **(لا تنتظروا الخلاص من غيركم فخلاصكم كامن في أنفسكم)**
- **(ليكن كل منكم مصباحاً لذاته وملجأ تأوي إليه نفسه)**

---

(١) من بلاد البنغال (بهار) وهي اسم قبيلة آرية غزت معظم الهند وصارت تطلق هذه الكلمة أحيانا على الهند (بهارات).

(٢) ترى هل هذا عائد ل (أزوكا) الذي أحيا البوذية من جديد حيث أن السلطة السياسة تساعد كثيراً في انتشار ما تتبناه؟.

- **(اعتصموا بالحق اعتصامكم بالمصباح في ليل داج)**
- **(إذا استبدلنا حب أنفسنا بحب الناس جميعاً فسننعم بما نحلم به من راحة وهدوء)**
- **(من زادني شراً زدته خيراً)**
- **(تغلبوا على أنفسكم بالشفقة، أزيلوا الشر بالخير فالكراهية لا تزول بكراهية مثلها)**
- **(اكسبوا الأنفس بالحب لا بالعنف، عيشوا بسلام آمنين، أحبوا بعضكم بعضاً، ليخيم الحب في قلوبكم والطمأنينة في أعماقكم ولن تدخلوا نعيم النيرفانا بغيرالحب الإنساني)**

خاتمة

لقد كان (بوذا) رجلاً وسطاً بين السماء والأرض، بين اللين والشدة، بين المتعة والتقشف، جمع المتناقضات وأحسن الاستعمال. غذ الخطا حثيثاً ليخلص مجتمعه من جموده العقائدي آنذاك، محاولاً إلغاء الفوارق الطبقية أيضاً. ولو ركز على هذه الناحية تركيزه على إلغاء فكرة الآلهة من الأذهان، لكان من أوائل الاشتراكيين في العالم ولكان له شأن عز نظيره في التاريخ.

لقد حاول أن يسمو بالكائن الإنساني (ذي الفتحات التسع) اللصيق بالأرض، حاول أن يسمو به نحو الملأ الأعلى ليرسم بقدراته الذاتية، راهنة وآتية، ليجعل من المستقبل مستقبلاً[1]. آمن بأن المظهر خَدَمٌ للجوهر ومن خلال الجوهر لا يحل اللاهوت في الناسوت فقط، بل به يستبدل اللاهوت بالناسوت كما رأى. حاول المعرفة.. والمعرفة فضيلة... والفضيلة يقظة دائمة. ولهذا ظل متيقظاً إلى أقصى درجات التيقظ. وما اليقظة إلا جوهر الله التي بها نرى.. وبها نستضيء.

---

(١) المستقبَل: هو ما يأتيك من رحم الآتي وما هو مخبأ لك من مبدأ الجبرية والقدرية.
والمستقبِل: هو ما تصنعه أنت لأن الآتي كثيراً ما يضع مفاتحه في يد الراهن.

المصادر والمراجع

١ ـ الهند. تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها. محمد مرسي أبو الليل. دار الاتحاد العربي للطباعة. القاهرة ص /٧/.

٢ ـ قصة الحضارة. ول ديورانت. ج /٣/ ص /١١ـ١٢/.

٣ـ التصوف البوذي والتحليل النفسي (د. ت. سوزوكي) ترجمة ثائر ديب ط /١٩٩٦/١/ دار الحوار ص /١٠/.

٤ ـ الهند. تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها. محمد مرسي أبو الليل. ص /٧٥/.

٥ ـ ترميز العقل الأول. فيصل مفلح. ج/١/ ص /٢١/.

٦ ـ قصة الحضارة. ول ديورانت. ج /٣/ ص /٩/.

٧ ـ المصدر نفسه ج /٣/ ص /٣٣ـ٣٤/.

٨ ـ المصدر نفسه ج /٣/ ص /٣٤/.

٩ ـ المصدر نفسه ج /٣/ ص /٥٢ـ٥٦ـ٥٧/.

١٠ ـ الهند. تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها. /٣٧ـ٣٨/ وكتاب مقارنة الأديان . د. أحمد شبلي ص /٥٧ـ٥٨ـ٥٩ـ٦٠/.

١١ ـ قصة الحضارة. ول ديورانت. ج /٣/ ص /٢٨/.

١٢ ـ المعتقدات الدينية لدى الشعوب. جيفري بارندر ص /٢١٦/ عالم المعرفة الكوتيية عدد /١٧٣/.

١٣ـ تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية. ميرسيا إيلياد. ص /٧٩/ ج /٢/ ط /١/ دار دمشق مطابع الشام /١٩٨٦ـ١٩٨٧/.

١٤ ـ الحكماء الثلاثة. أحمد الشنتاوي ص /٦٦ـ٦٧ـ٦٨ـ٦٩/.

١٥ ـ المصدر نفسه ص /٧٣ـ٧٤ـ٧٥/.

١٦ـ يقال إنه تزوج اثنتين (غوبا + ياسودار) ويقال اسمها (يازوهار). تاريخ الأفكار والمعتقدات الدينية

١٧ ـ قصة الحضارة. ول ديورانت. ج /٣/ ص /١٦٩/ ترجمة د. زكي نجيب محمود التأليف والترجمة والنشر ط /١/.

١٨ ـ المصدر نفسه ص /٧٦/.

١٩ـ عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة.فوزي محمد حميد. دار حطين بدمشق ص /١٩٧/

٢٠ ـ البوذية. محمد علي الزعبي. علي زيعور. ص /٤٦/.

٢١ ـ قصة الحضارة. ول ديورانت. ج /٣/ ص /٨٧/.

٢٢ـ المصدر نفسه ج/٣/ ص /٧٩ـ٨٠ـ٨١/.

٢٣ـ إنجيل متى إصحاح /١٩/ فقرة /١٨ـ١٩/ وإنجيل مرقس إصحاح /١٠/ فقرة /١٩/.

٢٤ ـ التوراة إصحاح /٢٠/ من فقرة /١٣/ حتى /١٧/ دار الكتب المقدس في الشرق الأوسط.

٢٥ ـ البوذية. محمد علي الزعبي. علي زيعور. ص /٦٠/.

٢٦ ـ تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية. ميرسيا إيلياد. ص /٨٤/.

٢٧ ـ قصة الحضارة. ول ديورانت. ج /٣/ ص /٨٧/.

٢٨ـ قصة الحضارة. ول ديورانت. ج /٣/ ص /٨٢ـ٨٣/.

٢٩ ـ الهند. تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها ص /٧٣/.

٣٠ ـ من كتاب المعارف لأبن قتيبة الدينوري ج /٢/ ص /٥١٩/ وزارة الثقافة المختار من التراث العربي ص /٨٣/.

بعض المراجع

ـ الأديان في تاريخ شعوب العالم. سيرغي. أ. توكاريف . ت.د. أحمد م فاضل الأهالي فصل /١٥/.

ـ منوسمرتي. كتاب الهندوس المقدس. تعريب وشرح وتعليق. إحسان حقي، دار اليقظة العربية.

ـ قصة الديانات. سليمان مظهر. القاهرة. مكتبة مدبولي ط /٢/ /١٤١٨ـ١٩٩٨/

ـ الأساطير والطقوس في الشرق الأدنى القديم. أ. إ جيمس. ترجمة يوسف شلب الشام، دار التوحيدي للنشر. حمص.

ـ صور ورموز. ميرسيا أيلياد د. ت. حسيب كاسوحة. وزارة الثقافة /١٩٩٨/ دراسات فكرية /٣٦/.

ـ الأديان الحية. نشوءها وتطورها. أديب صعب. دار النهار للنشر /١٩٩٣/

ـ الموت في الديانات الشرقية. حسين العودات. الأهالي ج /٢/ /١٩٩٢/

ـ مقارنة الأديان ج /٤/ أديان الهند الكبرى د. أحمد شبلي ط /٣/ /١٩٧٢/ مكتبة النهضة المصرية

ـ الباجافارجينا الكتاب الهندوسي المقدس، ترجمة د. وعد عبد الجليل جواد ط /١/ /١٩٩٣/ دار الحوار.

ـ التصوف البوذي والتحليل النفسي د. ت. سوزوكي، ترجمة ثائر ديب /١٩٩٣/ دار الحوار

ـ البوذية. محمد علي الزعبي. علي زيعور.طبع ونشر وتوزيع. مطبعة الإنصاف لبنان /١٩٦٤/

ـ الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها؟ محمد مرسي أبو الليل. دار الاتحاد العربي للطباعة /١٩٦٥/

ـ الإسلام في الأسر. الصادق النيهوم. رياض الريس للكتب والنشر. لندن. قبرص ط/٣/١٩٩٥/

ـ الفكر الشرقي القديم: جون كوكر.. عالم المعرفة عدد /١٩٩/

ـ ثقافة الهند مجلد /٣٨/ العدد٣+٤ الديانة الفيدية والإسلام دراسة مقارنة. أخلاق حسين الدهلوي / ص ٩٠حتى ٩٨/

ـ ثقافة الهند مجلد /٤١/ العدد/١/ فلسفة المهابهارتا. محمد عبد السلام خان ص /٤٥/ وحتى /٩٧/

ـ تقديم الهند ج. ن. س. (راغهافان)، تعريب عبد الحق شجاعت علي / المجلس الهندي للعلاقات الثقافية. آزاد بهاون، التفاعل الهندوسي (الجيني) البوذي ص /٢٧/ وحتى /٤٨/

هكذا تكلم زار ادشت

لن أتحدث عن كتاب / هكذا تكلم زارادشت / للفيلسوف الألماني / فريدريك نيتشه /١/ بل سأتحدث عما جاء به (زارادشت) نفسه لأن /نيتشه/ في كتابه آنف الذكر كان أولى به أن يسميه (هكذا تكلم نيتشه) لأنه استعار بعقله الباطن شخص (زارادشت) فقال:/أي نيتشه/ بالشر لا الخير ما أراد هو.. لا ما أراد (زارادشت)، فجاء كنابه بمثابة قصيدة مطولة ركّز فيها على الفرد من النخبة الذي يتفوق على إنسانيته. كما طمح /نيتشه/ إلى مجتمعٍ يسود فيه المتفوقون./٢/ مجتمعٍ يقضي فيه الأقوى على الأضعف حتى يقف في النهاية المنتصر الأخير منتحراً بقوته وعنفه..كما انتحر إله (نيتشه) برحمته/٣/. وسنورد ذلك بالتفصيل حين حديثنا عنه.. وإذا ما استعرضنا كتب التاريخ، تبدت لنا شخصيات كثيرة خرجت عن مسار التاريخ لتدخل في فلك الأسطورة لأن العقل البدئي، والنقل الشفاهي قد أَضْفَيا على هذه الشخصيات عناصر (ميثولوجية) لا تمتُّ إليها بصلة؛ إذ كلما وقعوا على غريبة أو عجيبة نسبوها إليها فما بالكم إذا وصلنا هذا التراكم الكمِّيُّ العفويُّ الشَّفويُّ بعد تشويهٍ مقصودٍ من قبل مناوئي هذه الشخصيات أو بعد تشويه غير مقصود أو بعد

تضخيمٍ مبالغٍ فيه على يد محبيها وأتباعها أو على يد كاتبٍ رمى بالأمانة العلمية والتاريخية جانباً؟ لحظتئذٍ، ستغدو تلك السِّير كالموجة العرضيَّة التي تكبر وتكبر كلما ابتعدت عن مركز انطلاقها كبرت الدائرة واتّسعت علينا أن نتفق منذ البدء على مسلَّمةٍ أساسيةٍ هي: أن نفرِّق في أكثر الأحايين بين الأصل وبين ما وصل.

فإذا كان شكسبير/**Shakespeare**/[1] الذي عاش حتى بداية القرن السابع عشر/ م/ قد أنكر بعضهم وجوده وعزوا مؤلَّفاته الرائعات إلى بعضٍ من أهم رجالات عصره أمثال: (فرانسوا بيكون وكريستوفر مارلو) وغيرهما/٤/ فماذا سيحل إذاً بشخصيةٍ كشخصية (زارادشت) عاشت قبل الميلاد بستة أو خمسة قرونٍ على الأقل؟ ولما للزمن من أهميةٍ قصوى فقد أضافه (أينشتاين)/٥/ بعداً رابعاً إلى الأبعاد الثلاثة الطول والعرض والارتفاع.

مدخل

(ياولد غمِّض عينيك ولا تعدّ نجوم السّما..بعدين بيطلع بأيديك وبوجهك تواليل)...بجملة (لغة العامة) هذه كانت أمي تؤنبني ـ يوم كنت صغيراً حين تراني مستلقياً على الفراش أعد نجوم السماء ليلاَ..شأني في ذلك شأن جلِّ أترابي. وكنت أنصاع للأمر- طوعاَ مرةَ وكرهاَ أخرى- خوفاَ على نضارة وجهي آنذاك يوم كنت أجهل السبب الذي من أجله كانت تريد مني والدتي أن أنام فور الاستلقاء.لكني بعد أن كبرت.. استقرأت هذه الظاهرة الاجتماعية فاستنتجت أموراَ شتى. أدناها: أن أنام باكراَ لأستيقظ باكراً. وأسماها: أن لا يتعدى تفكيري سقف طفولتي خوفاَ من أن يحلق خيالي بين النجوم سابحاَ في الفراغ والسديم. وكانت أمي ترضى بشكلانية إغماض عينيَّ لقناعتها بأن ذلك هو صمام الأمان الوحيد لإبقائي في دائرة الطفولة. لكنها لم تدرك ما كان يرتسم في مخيلتي بعد إغماض عينيَّ إذ لم يكن إغماضهما سوى فاصلٍ واصلٍ. فاصل يفصلني عن الحسيِّ المدرَك وواصل يصلني باللاحسيِّ اللامدرَك لأرى ببصيرتي ما لايمكن أن أرى ببصري. أي بعين العقل كما تحدث عنها الفارابي في رسالته (مشكاة الأنوار). هكذا الإنسان. شوق دائم لمعرفة

---

(١) كاتب مسرحي إنكليزي (١٥١٤-١٦١٦م).

الماحَوْلَ وتوق دائب لاستكناه الماوراء والمافوق على الرغم من أنه لا يعرف حتى عن نفسه سوى النذر اليسير ((وفي أنفسكم أفلا تبصرون)) قرآن كريم. هذا التوق والتطلع الماورائي أقضَّ مضجع (زارادشت) كيف لا وهو كائن غائي هدفيّ. فانفجرت في أعماقه الأسئلة تترى. من؟ ماذا؟ لماذا؟ كيف؟ أيان؟ أين؟ من أين؟ إلى أين؟؟؟. لم تدعه مطارق التساؤلات يهدأ لحظةً واحدة أينما حلَّ وحيثما رحل. والعلم خزائن مفتاحها السؤال، إذ لولا سؤال /نيوتن/ عن سبب سقوط التفاحة نحو الأسفل وإلحاحه في معرفة السبب لما اكتشف الجاذبية.

فَلاب (زارادشت) يبحث عن لغز الكينونة والصيرورة. ولأنَّ اللغز قصور معرفيٌّ فإن السَّعي لحلِّ هذا اللغز قد أرهقه / نَفْسديَّاً /[1] فاعتصر قلبَه الأسى والألم وكيف لا؟ والألم ينبع من إحساس الذات بذاتها وجوداً خاصاً في هذا العالم. فاعتزل الناس وصخَب الحياة وهو في الثلاثين من العمر ويمَّم وجهه شطر جبل (سابلان) لعله يستطيع حلَّ لغز هذا الكون. والإنسان من حيث يدري ومن حيث لايدري ليس خارجاً عن الكون بل حاملٌ للكون في ذاته /٦/ ثم اتسعت دائرة أسئلته أكثر، فلاب انفلاشاً في ممدودات المطلق باحثاً عما وراء المنظور والمرئيّ لعله يهتدي بفطرته السليمة إلى موجد هذا الكون. وتحضرني هنا قصيدة للشاعر / كسينوفانيس (٧) يقول فيها: (لو أن للثيران أو الأسود أو الخيل أيادي تستطيع بها رسم ونحت التماثيل كالبشر، لخلقت على صورتها آلهتهاوغدت آلهة الخيل خيلاً وآلهة البقر بقراً) إلا أن "زارادشت " بسموه الإنساني وشبحه الروحاني وحساسيته إلى درجةٍ فاقت المألوف والمعروف والموصوف وتمتُّعه كمونياً بقدرات خارقة، استطاع أن يسمع من صمت الطبيعة غناءها ويرى في سكونها وحركتها، لأن كل شيءٍ ولو كان ساكناً فهو بالنسبة له ولأمثاله ناطق من حيث الدلالة. فشخْصَنَ (السيبرنيطيقيا = ماوراء المدرَك الحسيِّ) وتكشَّف له الواقع الخارجي على الرغم من أن "شانكار" (٨) قد أنكر أن تكون معرفة الحواس قادرةً على الكشف عن الواقع الخارجي كما هو في ذاته. ولم يكن يسامر (زارادشت) في عزلته سوى

---

(١) نفسياً وجسدياً.

الطبيعة وتعاقب الليل والنهار عليه بين كل عشيةٍ وضحاها.وذات يومٍ، وهو في لحظةٍ من لحظات انتقاله من التخيُّل إلى التذهُّن (٩)، أدرك فجأةً سرَّ الليل والنهار، وبالتالي كنه الظلمة والنور.. عندها اهتدى إلى ضالته المنشودة.. إلى المعلومة الأسِّ الذي لاب في حضنها طويلاً.. إلى "أهورامزدا " رب "زارادشت" إلى النور الذي يفيض منه كل نور(١٠) إلى الجميل الجليل حتى كمال الكمال.

الفرس قبل مجييء زارادشت

كان الفرس /١١/ قبل مجيء (زارادشت) طوطميين /١٢/ يعبدون الحيوان ومظاهر الطبيعة وأرواح السلف أيضاً. كما سمُّوا الشمس (عين الله) والضوء (ابن الله) واتخذوا (النار) رمزاً للضوء، وبعبارة أخرى رمزاً لإله الخير فأشعلوها في معابدهم /١٣/ وكانوا يعبدون كثيراً من الأرواح الخيرة، لكن (زارادشت) وحَّدها في عبادة (أهورامزدا) وكذلك فعل بقوى الشر، إذ وحَّدها في واحد (دروج أهريمان)، **وأهم الآلهة التي عبدوها:**

١. الإلهة (مترا) إلهة الشمس: وقد أخذها الرومان عنهم فيما بعد (وتوصف بأنها الحارسة للمراعي اليقظة التي لا تنام) /١٥/.
٢. الإلهة (أنيتا) إلهة الأرض والخصب والنماء.
٣. الإله (هوما) الثور المقدس الذي مات ثم بُعث حياً، ووهب البشر دمه شراباً ليسبغ عليهم نعمة الخلود/١٦/.

ولأن التعاليم في الأزمنة الغابرة كما يقول (جوزيف باركلي) في كتابه (حكمة الأديان الحيَّة) من واجبات الكهنوت، فإن الكهنوت الفرس هم الذين كانوا الأوصياء على العامة من الفرس حتى إن (سبنسر) قال: (إن العلم والأدب بدأ بهم) = أي (بالكهنوت)/١٧/.

زارادشت مولداً واسماً: ولد زارادشت في (أذربيجان) بإيران /١٨/[1] وإيران تعني بلاد الآريين (١٩). والتشابه واضح بين اللفظتين وبذا يكون "زارادشت" من الجنس الآري/٢٠/.

---

(١) إيران (من الآريين) وبعضهم يقول نسبةً إلى أحد ملوك إيران ومعنى آري ـ شريف، نبيل، مقدس.

كما يقال بأن كلمة إيران تعني بلد العادلين الأتقياء وهم يفخرون بهذا الاسم كثيراً.ويذكرون أن زارادشت من نسل (كيوميرت) الذي يعني في الشاهنامة (الإنسان الأول المخلوق من الطين = يعني آدم).، وهو أول من تكلم الفارسية كما يزعمون. أرجع بعضهم مولد (زارادشت) إلى أقدم الأزمنة من / ستة آلاف سنة حتى ستمئة ألف سنة ق. م/ وفي اعتقادي إن زارادشت لم يكن موجوداً قبل / سنة ألفين ق.م/٢١/، وموضوع وجوده شكَّ به الكثيرون وكان موضع جدل طويل بين النافين والمثبتين. ولكن /جاكسن **Jackson**/ في كتابه / حياة زارادشت / أكد وجوده كما أكد وجوده الكثيرون، وجلُّ من كتبوا عنه قد رجَّحوا أنه ولد ما بين القرنين السابع والسادس ق.م/ ٢٢/ وقد عرف في المصادر الأجنبية باسم (زاراسترا) /٢٣/ ثم ذكروا اسمه في العهود المتأخرة باسم (زاراتشت) فنطقها العرب بالتخفيف بإبدال ((التاء دالاً)) فأصبحت (زارادشت) /٢٤/ ومعنى الكلمة (زاراس = يعذب) و(استرا= الجمل) ـ (معذِّب الجمل) لأنهم في القديم كانوا يطلقون اسم الطفل على أول عملٍ يقوم به/٢٥/. ويعتبر القرن السادس قبل الميلاد من أجدر عصور التاريخ بالملاحظة. ففي كل مكانٍ به كانت عقول الناس تظهر جرأةً جديدةً و(في كل مكان) كان الناس يستيقظون مما ران عليهم من تقاليد الأباطرة والكهَّان والقرابين، ويسألون أشدَّ الأسئلة عمقاً ونفاذاً وكأنما الجنس البشري قد بلغ مرحلةً من الرشد بعد طفولةٍ دامت عشرين ألف سنة/٢٦/.

الخوارق التي تزامنت مع مولده

لفَّ التاريخ أسطورة /٢٧/ مولد وحياة (زارادشت) بل حتى قبل مولده أيضاً. فلقد قيل: إنَّ أمَّه حملت به حملاً إلهياً قدسياً.فالملك الذي كان يرعاه تسرَّب إلى نبات (الهَوْما)[١] وانتقل مع عصارته إلى جسم كاهنٍ يدعى (يورشاسبا) يعني أبوه، وفي الوقت نفسه دخل شعاعٌ من أشعة العظمة السماوية إلى صدر فتاة عريقة النسب

(١) الهوما شرابٌ مسكر يُعصر من نبات ينمو في فارس على رؤوس الجبال لم يحرم وإنما كان يقدم قرباناً للآلهة. ويقال (هوما = سوما)

اسمها (دغذوفا) /٢٨/(أمه فيما بعد) وتزوج الكاهن بالفتاة فامتزج الملاك بالشعاع ووُلِدَ (زارادشت) من هذا المزيج /٢٩/.

ولقد جاء في المصادر البهلوية أن أمه أثناء حملها به رأت في منامها سحابةً سوداء أحاطت بها وخرجت منها مخلوقات مخيفة انتزعت من رحمها ابنها وهمَّت بقتله، فلما صرخت وبكت ناداها ابنها من بين أيديهم: لا تخافي ولا تحزني لأن اللّٰه يكلؤني ويرعاني. ثم هبط من السماء نورٌ مزَّق السحابة إرْباً إرباً واختفت المخلوقات المخيفة وبرز من النور طيف شابٍ نوراني بيده هراوة من نورٍ أعاد الطفل إلى أمه قائلاً: لن يمسَّ طفلك الضرُّ يوماً لأن اللّٰه بذاته حاميه. ثم بشَّرها بأنه سيكون له شأنٌ كبيرٌ في المستقبل لأنه سيصبح نبي(أهورامزدا). ويوم ولد (زارادشت) لم يك باكياً بل ضحك عالياً بصوتٍ جهوريٍّ فغمر البيت نورٌ سماويٌّ وفرَّت الأرواح الخبيثة. وصلت هذه الخوارق التي تزامنت مع مولده سمْعَ الملك الساحر / دُرُنْسُرام/٣٠ / فصمم على قتله والخلاص منه كي لا ينازعه الملك مستقبلاً فأحضره بواسطة ثلاثة سحرة، ولم يكد يهمُّ بقتله حتى شلَّت يده، فأمر بإلقائه في النار فكانت النار برداً وسلاماً عليه/٣١/. ثم أمر برميه في ممر البقر الضيق فأحاطت به بقرة أبعدت عنه القطيع. ولما بلغ السابعة من العمر مرض فأحضر له أبوه السحرة لتطبيبه، فرمى بالدواء الذي قدموه له أرضاً، لأنه أدرك ببصيرته أنهم قدموا له السمَّ بدل الدواء ليتخلصوا منه /٣٢/ وبعد أن شفي أرسله أبوه مع الحكيم الإيرانيِّ المشهور آنذاك (بورزين كوروس)/٣٣/ ليتمدرس على يديه ويتدرج في مراقي المعرفة فرافقه مدة ثمانية أعوام تعلم منه خلالها الشيىء الكثير، ثم ارتدى القميص المقدس وتمنطق بحزامٍ رمزاً للتعميد وتطوَّع للدفاع عن الوطن ضد أعدائه الطورانيين /٣٤/ فصار يعالج المرضى والجرحى من الجنود /٣٥/: ـ بدأيدعو القبائل إلى أن يكونوا شعباً واحداً وأن يسعوا إلى إصلاح الزراعة. ـ كبرأكثر فصار يتحلل شيئاً فشيئاً من عادات مجتمعه وهو مازال عزَبَاً، فأصر على أن لا يرى وجه المرأة التي سيتزوجها فقط... بل عليه أن يتحدث معها ليتعرفها قبل عقد القِران عليها/٣٦/ وكل هذه مؤشرات تدل على تفتُّح وعيه ونضوج أفكاره ونظرته لحاضره آنذاك بعين المستقبل فتزوج على هذا الأساس ثلاث نساء /٣٧/.

نبوَّة زارادشت

تقول الأساطير الفارسية: إن النبوة نزلت على "جمشيد" ملك الفرس لكنه لم يستطع حملها فحملها زارادشت فكان الله يكلمه وينزِّل الوحي عليه[1] (٣٨) ويضيف المؤرخون المحدثون إلى زارادشت من صنوف الإجلال وضروب التقديس ما كانوا يسمون به إلى منزلة موسى وعيسى عليهما السلام (٣٩).ولقد تضاربت الآراء حول نبوَّته.. (فجوزيف كاير) إعتبره موحِّداً كأخناتون المصري وبعض المستشرقين اعتبروه مصلحاً (٤٠)، وبعضهم اعتبروه نبيَّاً (٤١) مجدِّداً لدين إبراهيم (٤٢) ولو لم يُذكر اسمه في القرآن الكريم إستناداً إلى الآيات القرآنية الكريمة التالية:{ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك فمنهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك} .. {وما من أمة إلا خلا فيها نذير} ..{وما كنا معذِّبين حتى نبعث رسولا} .. وهكذا. والقرآن الكريم لم يذكر سوى أربعة وعشرين نبياً منهم من هو نبيٌّ ومنهم من هو رسول (٤٣).

فأنبياء بني إسرائيل المتقدمون والمتأخرون لم يُذكروا جميعاً في القرآن الكريم وإنما أشار إليهم تعالى بقوله {ويقتلون الأنبياء بغير حق}. ومنهم من أنكر نبوَّته كأبي حيان التوحيدي في كتابه (الإمتاع والمؤانسة) (٤٤) ولسنا بصدد إقرار نبوته أو نفيها لأن ذلك ليس هدف موضوعنا، لكننا سنورد ما قاله عن نفسه أو بالأحرى ما قيل عنه. كان "زارادشت" على حافة نهر ديتي المقدس. وفي لحظةٍ من لحظات التطهير النفسي اقترب منه النورانيِّ " فوهومناه "كبير الملائكة وهو كما وصف بحجم الإنسان تسع مرات وطلب من "زارادشت" أن يخلع ملابسه لأنه سيعرج به إلى السماء ليسمع بنفسه تعاليم "أهورامزدا" ففعل وصعد به " فوهومناه"إلى "أهورامزدا" ومثل "زارادشت" أمامه، وهنا كانت نقلته النوعية. إذ انتقل من كينونة الصحو التشخيصي الجسداني إلى صيرورة المحو التجريديِّ الصمداني.ولفت نظرَه أن لا ظلَّ له نتيجة النور المنبعث من /أهورامزدا/ فأيقن لحظتئذٍ أنه أمام نورٍ إلهيٍّ(٤٥) فلُقِّنَ وهو في الحضرة الإلهية الأفكار الأساسية للدين الجديد. كما اطلع على الرموز الخفية والأسرار العلوية. وما أن عاد "زارادشت" من عند "أهورامزدا" حتى هبَّ يعظ

---

(١) يستشف من هذا الطلب بأنه نبيٌّ ورسول.

الناس بالدين الجديد الذي **يعتمد على أربعة عناصر:**

- اعبدْ أهورامزدا.
- مجِّدْ الملائكة.
- العن (أهريمان = الشيطان) وسيأتي تعريفه فيما بعد.
- تزوَّجْ أقرب قريباتك (٤٦).

وإذ ما حللنا هذه العناصر الأربعة وجدنا أنها لا تصلح أسَّاً لدينٍ جديد ينظم أحوال الناس وسبل معاشهم ولهذا فشل زرادشت في المرحلة الأولى من مراحل دعوته فعاش وحيداً تبريه الفاقة ويضنيه العوَز حتى أُرهق من أمره عسراً ، فأحجم عن طلب التزوُّج بأقرب القريبات وصار يدعو الناس إلى فعل الخير والتمسُّك بالعدل، فاستجاب لدعوته حاكم "سيستيان" من حيث العدل والإنصاف ولعن "أهريمان" فقط لكنه لم يعتنق دينه، فلاذ "زرادشت" "بأهورامزدا" يناديه ويناجيه إذ عزَّ عليه أن يرى نفسه وحيداً بعد مرور عشر سنين على دعوته.ولم يؤمن به سوى ابن عمه "ميتيوماه"(٤٧) لكنه خلال السنين العشر التي مرت شاهد خلالها ستَّ رؤىً جديدةً وكل واحدةٍ من هذه الرؤى كانت تتمُّ على يد كبير الملائكة لتزويده بمعلومات جديدة. فالملاك "آشا" مثلاً أوصاه بالرفق بالحيوانات النافقة(٤٨) فأصدر عقوبةً على كل من يسيء إلى الحيوان. وبهذا يكون إذا جاز التعبير أول أو من أوائل مؤسسي جمعية الرفق بالحيوان. وكل هذه الرؤى كانت تأتيه شتاءً.. لانشغاله بنشر الدين صيفاً. أدرك الكهَنة سوءَ مآلهم إنْ بقي "زارادشت" يطعن بمعتقداتهم، فرَجوا الطبقة الحاكمة أن يبعدوه عن البلاد ، فاستجاب الحكام لطلبهم ونفوه، وبنفيه ضاقت به الدنيا بما رحبت إذ كلما قرع باباً ليسأل أهله حاجةً ما ، أوصد الباب في وجهه، فاتجه إلى "أهورامزدا" سائلاً إياه {**إلى أين أهرب يا أهورامزدا؟ وإلى أي البلاد سآوي؟.. انصرف النبلاء والعظماء عني.. ولم يع عامة الشعب قولي.. حتى هؤلاء الأفَّاكون حكَّام البلاد**} . ثم يضيف قائلاً: {**أرشدني ياأهورامزدا(٤٩) كيف أحظى برضاك وكيف أظفر بهداك؟ إياك أدعو يا إله الخير وإياك أستصرخ يا مبعث النور. فامنحني التوفيق والعون..أرشدني إلى الصراط المستقيم.. وكن عوني على نجاحي في رسالتي.. وعلى تنفيذ مابه**

أمرتني}(٥٠) وعلى الرغم من كل ذلك لم ييأس، إذ أدرك في ظلمات اليأس بارقةً من أمل.. ولمح في دجى القنوط قبساً من رجاء، إلى أن استطاع أخيراً أن يصل إلى بلاط الملك "كُشتاسب"(٥١) آملاً أن يستجيب لدعوته فيشتدَّ به عضُده، ويجد فيه السَّند المرجوَّ لنشر دعوته. لن أعرِّج على الغرائب التي أحدثها عند الوصول إليه (٥٢) لكن دعونا نرى ما حدث معه فور وصوله إلى مقر الملك"كُشتاسب" أو"فشتاسبا". كان "كُشتاسب" قد سمع بـ "زارادشت" فتهيَّأ لملاقاته ودعا إلى قصره أكثر من ستين حكيماً وفيلسوفاً وما أن مثل / زارادشت/ بين يدي الملك حتى طلب منه الملك معجزةً تؤكِّد نبوَّته، فطلب "زارادشت" من الملك أن يوعز لرجاله أن يصبُّوا على صدره المعدن المذاب ففعلوا ذلك أكثر من مرَّة، ولم يُصبْ "زارادشت" بأي أذىً. ثم أعقب ذلك نقاش حادٌّ جرى بينه وبين الفلاسفة والحكماء كانت فيه الغلبة والنصر المؤزَّر لزارادشت، فدهِش الملك من حكمته وحنكته ونفاذ بصيرته وأعجب به أيَّما إعجاب.لكنه استمهله في عملية الإيمان به قائلاً له:إن اتخاذ قرارٍ سريعٍ في مثل هذه المسائل الدقيقة أمرٌ غير مستحب، بيد أنه أسكنه بيتاً بجانب قصره تكريماً له فقامت قيامة أعدائه وحسَّاده وبدأوا يحيكون الدسائس للإيقاع بينه وبين الملك إلى أن استطاعواأن يصلوا إلى خادم بيته وفعلوا فعلتهم إذ قدَّموا له رشوةً لقاء أن يضع في بيت / زارادشت/ رؤوس قطط وكلاب وبعض أدوات سحرٍ أخرى فوافق. ولما كان "زارادشت" يجلس بجانب الملك اقترب من الملك أحد الكهَّان وهمس في أذنه قائلاً: إن هذا الذي يدَّعي النبوَّة ماهو إلا ساحرٌ كذَّاب وإنَّ أدوات السحر تملأ بيته. ورجا الملك أن يتأكد من صدق حديثه من خلال تفتيش بيته، فأرسل الملك بعض جنوده إلى بيت زارادشت ليتأكد من صحة الخبر فيعود الجنود ومعهم رؤوس قططٍ وكلاب وأدوات سحرٍ أخرجوها من تحت فراشه.غضب الملك من زارادشت غضباً شديداً وأمر أن يُكبَّل بالحديد ويرمى في السجن فوراً. وصادف بعد فترة أن مرض فرس الملك المحبب إلى قلبه جداً فأحضر له الأطباء المهرة والسحرة فلم يفلحوا في علاجه فحزن الملك عليه أيما حزن. بلغ ذلك النبأ سمع زارادشت فأرسل إلى الملك رسالةً يعلمه فيها أنه يستطيع أن يشفي الفرس من المرض المزمن، فاستدعاه الملك وقبل أن يشرع في إبراء الفرس **اشترط عليه شروطاً أربعة:**

١. أن يؤمن بأنه رسولٌ من عند أهورامزدا.

٢. أن تعتنق الملكة الدين الجديد.

٣. أن يقوم /اسفنديار/ ـ ابن الملك ـ بنشر الدين الجديد ولو بحد السيف (٥٣)

٤. أن يحقق الملك مع خادم بيت زارادشت فيما فعل بعد أن يأتمنه على حياته. رضي الملك بالشروط الأربعة.وأبرأ زارادشت الفرس فطار صواب الملك فرحاً وبدأ بتنفيذ تلك الشروط. من حينها انتشرت "الزارادشتية" انتشاراً واسعاً(٥٤)وكما كان مولد زارادشت رهناً للتاريخسطورة فإن موته كان رهنها أيضاً؛ فلقد ذكر "وول ديورانت" في كتابه / قصة الحضارة/ [أن وميض برقٍ أحرقه ثم صعد به إلى السماء](٥٥)، وقال آخرون: إنه لمَّا كان في معبد النار- بصحبة ثمانين من الكهنة ـ يدعون "أهورامزدا" لإنقاذ شعبهم في حروبه المقدسة ضدَّ الطورانيين اجتاح الطورانيون المعبد.. بعد دخولهم بلاد فارس وطعنه الطوراني "براتفاركش" في ظهره ثم قتل الجنود الطورانيون بقية الكهنة ومات وهو في السابع والسبعين من عمره(٥٦) بعد نبوةٍ دامت خمساً وثلاثين سنة كما يقول بطرس البستاني في دائرة معارفه.

نهاية الزارادشتية

اضمحلت الزارادشتية شيئاً فشيئاً بعد غزو الاسكندر بلادَ فارس عام /٣٣٠ ق.م/ وإحراقه كتابهم "الأبسْتاق"(٥٧) إذ لم يكن يوجد منه سوى نسختين "أحرقت الأولى والثانية أعدمها إلا بعضها (٥٨).

ثم انتعشت الزارادشتية في عهد الأسرة الساسانية (٥٩) على يد "أردشير" أول ملوك الفرس الساسانيين ثم على يد الملك "شاهبور" الثاني إذ كان الساسانيون كما تقول "الشاهنامة" مولعين بجمع أخبار أسلافهم وترتيبها. ثم قضي عليها أو كاد بعد

الفتح الإسلامي لإيران بعد انتصار المسلمين على الفرس في معركتي "القادسية ـ٦٣٦/ م" ثم معركة "نهاوند ـ٦٤١/ م".

شيءٌ عن أهورامزدا وأهريمان والأبستاق: (أهورامزدا) كلمة مكونة من مقاطع ثلاثة [هو ـ أنا] [را ـ الوجود] [مزدا ـ الخالق] أي: أنا خالق الوجود. وهو ربُّ "زارادشت". أما وصفه كما نُقل إلينا فهو كالتالي: نور تفيض منه الأنوار كلها ومنه يصدر الخير أيضاً. عالم الغيب والشهادة أزليٌّ أبديٌّ قادر على كل شيء، منزَّهٌ عن كل نقص، يرى ولا يُرى، لم يلد ولم يولد ولن يموت، يساعده ستة ملائكة قدِّيسون(٦٠) خالدون فاض الواحد منهم عن الآخر. أي إن "أهورامزدا" لم يخلق سوى كبيرهم/ فوهومناه/ فقط. ومن الجدير بالذكر أن "أهورامزدا" كان يُقدَّس في إيران قبل مجيء "زارادشت" إذ عُثر على اسمه في منقوشات الأخمينيين (٦١) لكن "زارادشت" كما تقول موسوعة لاروس الفرنسية وحَّد كلَّ الآلهة التي كان يعبدها الفرس في واحد هو "أهورامزدا". وإذا عثر على اسم "أهورامزدا" في منقوشات الأخمينيين فإن "زارادشت" لم يُعثر عليه في أي نقش(٦٢). أما: أهريمان والكلمة تعني (الخبيث = القوى الخفية = الشيطان) فمنه تصدر الظلمة ويصدر الشر والجهل والمرض والرذيلة والغضب والقحط والسحر والحشرات الضارة والزواحف السامة المؤذية، ومنه تصدر كل مساوىء العالم يعمل في العالم السفلي تساعده شياطين من جنسه لا حصر لها. ألقى بكل ثقله أمام "أهورامزدا"(٦٣). وباختصار فإن "الزارادشتية"تقوم على ثنائية الصراع في العالم بين النور والظلمة والخير والشر، بين الفضيلة والرذيلة، بين أهورامزدا وأهريمان. ومن هنا شبَّهها بعضهم بالمانوية (٦٤) إلا أن هذا التشبيه ليس صحيحاً لأن (تيولوجيا) الزارادشتية ليست ثنائية بالمعنى الدقيق للعبارة كما يقول ميرسيا ايلياد.طالما أن /أهورامزدا/ ليس مواجهاً بضدٍّ الإله. والزارادشتية والمانوية وإن تشابهتا في المظهر.. إلا أنهما مختلفتان في الجوهر. صحيح أن الديانتين تحدَّثتا عن النور والظلمة، وعن الخير والشر إلا أن الخير والشر في المانوية أزليان أبديَّان بعكس الزارادشتية إذ أن الشر غير أزلي ولا ابدي لأن أهريمان سينكسر في النهاية أمام أهورامزدا المالك وحده يوم الحق. ناهيك عن أنه لا يوجد في الزارادشتية إلهان بل قوتان متصارعتان(٦٥) كما أن زارادشت قد حرَّم على أتباعه الصوم وحلَّل النسل

للدفاع عن البلاد بينما حرم "ماني" على أتباعه النسل ودعا إلى الزهد، ولهذا قال (براون) عن المانوية (أن تعدَّ المانوية زارادشتية منصَّرة أقرب من أن تعدَّها نصرانية مُزَرْدشة). وإن العالم الذي يسيطر عليه (أهورامزدا) في الزارادشية هو روحاني بينما هو في المانوية ماديٌّ/٦٦/.

الأبستاق: وهو كتاب الزارادشتيين المقدَّس/٦٧/ وتقول الشاهنامة/٦٨/ (حفظتِ الأبستاقَ ـ كالتوراةـ روايات أمة قديمة).

وثلاثة أرباع الأبستاق فُقد ومن النصوص التي حُوفظ عليها (الجاتاس) وهي سبع عشرة ترنيمة. ومعنى (الجاتاس) = (الغناء أو الإنشاد) وهو أكثر أجزاء الأبستاق قداسةً، وعلى الأرجح أنه مؤلَّفٌ من قِبل (زارادشت) /٦٩/. وتزعم بعض الأساطير أن الأبستاق هو (صحف إبراهيم وموسى) لكن الهنود يعتقدون أنه مأخوذ من كتابهم المقدس (الفيدا) وتعني المعرفة/٧٠/. ولقد اكتشفه العلاَّمة الفرنسي(أنكوتيل دوبرون) إذ عثر في مكتبة (بودليان)على مخطوطةٍ تحتوي على بعض أجزاء (الأبستاق) ولما زار الهند عاد ببعض الأجزاء أيضاً /٧١/ (والأبستاق = الأفِستا) كلمة أطلقها على هذا الكتاب علماء المجوس /٧٢/ الذين جمعوا تعاليم وأدعية(زارادشت) أما العامة فسمَّوه بـ(الزمزمة أي/ الكلمة الحية) وكلمة الأبستاق ترجمة عربية لكلمة (الأفستا) ومعناها: المتن.. الشرح.. الأصل. ويتألف من خمسة أقسام /٧٣/ ثم لحق بالأبستاق ـ الأفستا /الزند. و(الزند تعني تفسير المتن أو الأصل) ثم وضع علماء المجوس المتأخرون فيما بعد تفسيراً أو شرحاً للتفسير سموه (بازند = تفسير التفسير). ولقد استفاد اليهود من هذا الشكل الذي لحق بالأبستاق كثيراً فطبَّقوا ذلك على تلمودهم الذي كتبه حاخاماتهم إذ قسموه إلى قسمين (مشناه = المتن أو الأصل) (والجمارا = شرح المتن أو شرح الأصل). ثم أضافوا إلى الشرح شرحاً آخر، ثم أضافوا إلى شرح الشرح شرحاً آخر ثم إلى شرح الشرح شرحاً آخر وهكذا دواليك حتى يبقى تلمودهم متنفَّساً لهم يعاصرون من خلاله كل (زمكان) يكون فيه اليهود خدمة لمصالحهم.

بمثل هذا تكلم زارادشت

بعد اكتمال رؤى (زارادشت) الست/٧٤/ ـ كما نوَّهنا آنفاًـ تطوَّرت مبادئه تطوُّراً نوعيَّاً فطالب أتباعه بالنظافة من كل دنس وحرَّم عليهم من جملة ماحرَّم البكاء والمناحات والرِّبا واللِّواط والزِّنى، إذ إن (زارادشت) لَّما سأل (أهورامزدا) عن السبب الذي يؤلمه أشدَّ الألم أجابه (أهورامزدا): إنها الزانية يا زارادشت، الحق أقول: إن أمثال هؤلاء المخلوقات يجب أن تقتل /٧٥/. وقال في (الأبستاق) عن اللواط: (اللواط لا يمحوه شيء أبداً). وجعل الكفر أم الخطايا /٧٦/ فقال (ملعونٌ أول من اتَّخذ صنماً)/٧٧/. كما تحدث عن الروح لكنه لم يحدِّد ما هويَّتها/٧٨/ ثم تحدث عن الملائكة[1] إذ إن كل إنسان خُصَّ بملاك. وهذا يذكِّرنا بالآية الكريمة (ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيبٌ عتيد) / ١٨/ وكما تحدث عن الموت والبعث ومن ثم الحساب وعن الصراط أيضاً. ولئن اعتبر (لوكريش) الخوف من الموت هو أول أمهات الآلهة/٧٩/ فإن زارادشت اعتبره من عمل الشيطان وعلى أهالي الموتى أن لا يدفنوا موتاهم في التراب كما يفعل اليونان ولا أن يحرقوهم كما يفعل الهنود، بل يجب أن تُعرض جثثهم لتلتهمها الطيور والكلاب الجارحة حتى لا يُدنِّس الميتُ الترابَ أو النار لأنهما عنصران مقدَّسان عند (زارادشت) /٨٠/. والمرء مهما يعمَر لا بد أن يطاله الموت /٨١/ لأن (أستيواد = أي قابض الأرواح) يأتي متخفِّياً إلى كل إنسان لا يعظِّم شخصاً ويهلك الكل بلا رحمة. ولقد حاول (دهاق /الفارسي) البحث عن الخلود والخلاص من استيواد فطاف شرقاً وغرباً لكنه لم يعثر عليه /٨٢/. أما الحساب فإن الناس سيحاسبون جميعاً لأن كل امرىءٍ قد خصَّه (أهورامزدا) بملاك يحصي له أعماله/٨٣/ ويوم يبعث الموتى تعود الحياة إلى أجسادهم /٨٤/ ثم يقف (أهورامزدا) ليهلك يوم الحق /أهريمان/٨٥/ ويحاسب الناس بنفسه فيَزِن أعمالهم بميزانٍ فمن رجحت سيئاته على حسناته يضيق (الصراط الذي يسميه زارادشت

(١) الملائكة عنده ذكور وإناث:الذكور التفكير الطيب ـ الحق الأسمى ـ العمل الطيب.والإناث ـ الفداء ـ الخلود ـ التقوى.انظر زارادشت الحكيم لحامد عبد القادر ص٤٥، وموسوعة لاروس ج ٢٠ زورواستر.

جسر الفرز) تحت رجليه حتى يصير كحدِّ السيف فيهوي إلى جهنَّم = (ترتاروس دانتي). ومن رجحت حسناته على سيئاته مشى على جسر الفرز = الصراط] ثابت الخطا مع الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنزن/٨٦/. ولقد أخبر أتباعه بأنه سيعبر معهم (الصراط) فقال في(اليسنا) (سأعبر معكم جسر الفرز)/٨٧/. كما أعلمنا عن منطقة ما بين الجنة والنار (مثل لينبوس دانتي) و(أعراف الإسلام) يقف فيها من تساوت حسنا تهم مع سيئاتهم وينتظرون دخول الجنة /٨٨/. ولا يوجد في (الزارادشية) أمثال وأقوال وربما كان مرد ذلك إلى اتلاف كتبها والقضاء عليها على يد من أزاح (الزارادشية) وحل محلها /٨٩/. و(للزارادشية) أيضاً أبحاث فيما وراء المادة ولكن لم يكن بحثهم فيها شاملاً كالذي كان عند اليونان إنما كان بحثاً جزئياً متفرقاً /٩٠/. ولئن كان لبعض المهن في عصرنا قَسَم فلقد كان (للزارادشية) أيضاً قسم، وقَسَمُها هو (لن أقدم على سلب أو نهب أو تخريب أو تدمير ولن آخذ بالثأر أبداً وأقرّ بأني أعبد (أهورامزدا) واعتنق دين (زارادشت) وأنا ملتزم بالعمل الطيب فكراً وقولاً وعملاً) والزارادشتية.. لا تطالب الزارادشتي أن يكون طيباً في فكره وقوله وعمله فقط بل تطالبه أيضاً أن يجعل من (العدو صديقاً.. ومن الخبيث طيباً.. ومن الجاهل عالماً...).

كما قدست الزارادشيتة (الماء والهواء والتراب والنار)/٩١/ وأولت الزراعة عناية بالغة إذ نقرأ في (الونديداد) مايلي: (إن من يبذر الحب يبذر القدسية إنه يجعل من ناموس (مزدا) ينمو ويزداد رفعة وعلوا. إنه يجعل جاهداً ناموس (مزدا) يخضر ويزدهر، إن عمله هذا يساوي مئة عمل من أعمال محبة الله الخالق وعبادته ويعدل ألف عمل من أعمال الابتكار والإبداع وعشرة آلاف عمل من أعمال التضحية. وحينما ينمو الشعير تنزعج الشياطين وحينما يخرج الحب يغشى على الشياطين. وحينما يظهر القمح تهلك الشياطين وحينئذ لا يستطيعون الإقامة في البيت لأن البيت الذي يدخله القمح تخرج منه الشياطين مذمومة مدحورة كأنما تكوى حلوقها بحديد محمّى أحمر) /٩٢/. كما كان للمرأة دور هام في مبادئه إذ طالب أتباعه بمنحها كامل حقوقها وبخاصة على الصعيد الاقتصادي فأباح لها امتلاك العقارات ومشاركة زوجها في أكثر أعماله. وتلعب الأغنية دوراً هاماً في عقيدته واسم الجنة

عنده (بيت الغناء) /٩٣/. ويرتدي أتباعه عند سن البلوغ (مريولاً) يرمز إلى الدين (الزارادشتي) كما يرتدي الكهنة أردية بيضاء ويضعون على رؤوسهم عمامة وعلى فمهم نقابا أثناء تأديتهم لبعض الطقوس كيلا يدنسوا النار بأنفاسهم الملوثة /٩٤/. كما كان لهم صلوات خمس في معبد النار صبحاً وظهراً وعصراً وليلاً وسحراً... ولهم أيضاً صلوات أخرى في المناسبات والأعياد /٩٥/. لقد وعدت (الزارادشية) الصالحين بأن العالم يقترب من نهايته المحتومة التي طولها إثنا عشر ألف سنة تبدأ منذ يوم ولادة (زارادشت) /٩٦/. ومما يسجل للفرس أنه من العسير أن تجد في تاريخهم فارسيا... قد استؤجر ليحارب الفرس، في حين أن اليونان كانوا يُسْتَأْجَرون. ولما حارب (اسكندر المقدوني) الفرس كانت فرق المشاة الفارسية كلها أو جلها من المرتزقة اليونان. ولذا فقد حث (ديموستين) اليونانيين الذين يستأجرون المرتزقة لمحاربة الفرس في خطبة (الفيلبيات) على تشكيل جيش قوامه أبناء البلاد ـ الذين يستأجرون ـ لأنه لا يدافع عن البلاد بإيمان إلا أصحاب البلاد /٩٨/.

لقد حقق الفرس بفضل (زارادشت) قفزتهم النوعية لأنه كان نقطة مضيئة في تاريخهم، ولئن ظهر في عام /١٨٢٢/ قانون (مارتن) الذي ينعتونه بأنه أول قانون أقر حماية الحيوان، ثم ظهر في عام /١٨٢٤/ أقدم جمعية للرفق بالحيوان أسسها خمسة رجال فإن (زارادشت) قد نادى بالرفق بالحيوان ليس قبلهم فقط بل قبل الهندي (ريني) الذي نادى بالرفق بالحيوان أيضاً في القرن الثالث قبل الميلاد /٩٩/. ولئن اعترف السهروردي الصوفي مؤسس مدرسة الفلسفة الأشراقية بأنه استقى بعض نظرياته من (زارادشت) وفلسفة (أفلاطون) فضلا عن (أفلوطين)/١٠٠/. فإن اليونان من قبل السهروردي قد كرموا (زارادشت) وأقروا بأنهم مدينون له بالكثير لاستعارة كل من (أفلاطون) و(فيثاغورث) و(هيرودت) بعضاً من أفكاره، منها هو أن (أفلاطون) (يعتقد بأن الكون صادر عن مبدأين احدهما ـ سام عاقل حر حكيم هو الله ـ والثاني هو المادة المضطربة. فالله نظمها ولكنها تمردت فخرج العالم ناقصاً طافحا بالشر. ومن هنا نرى بأن (زارادشت) لم يكن نقطة مضيئة في تاريخ/١٠١/ الفرس فقط بل كان بذرة طيبة آتت أكلها حتى خارج منبتها.

وقفة أخيرة

من يقرأ كتاب/د. عبد الحفيظ السطلي/١٠٢/ بعنوان (أمية بن أبي الصلت) يجد أربعة آراء قدمها المؤلف حول الذين كتبوا عن شعر أمية هذا:

الأول: لم يتخذ بعضهم رأياً فصلاً في شعره هل هو موثق أم موضوع كالمستشرَقيْن (شولهيتس) و(بور).

الثاني: أن شعر أمية الديني فقط موضوع بكامله ويمثله المستشرق (تورأندراي).

الثالث: أن شعر أمية من أوله إلى أخره موضوع ويمثله المفكر العربي د. (طه حسين) وبعض المستشرقين أيضاً.

والرابع: وهو الأخطر والذي يؤكد بأن شعره موثق كله حسب رأي المستشرق (كليمان هوار) ولم يكن حديثه كلمة حق أريد بها باطل، بل كلمة باطل أريد بها أبْطَل لأنه يريد أن يقول: (إن شعر أمية بن أبي الصلت) هو المصدر الأساسي لكتابة (القرآن الكريم) لما في شعره من إشارات واضحات لفحوى بعض الآيات. كما يجد القارىء بين صفحات الكتاب رداً لمؤلف الكتاب على كل من الأب (لويس شيخو) و(جورجي زيدان) حول مِلَّة أمية مُخْضِعاً شعر أمية للدراسة والتمحيص مُثبِتاً بعضه ورافضاً تثبيت بعضه الآخر لأنه منحول وموضوع ودخيل عليه، لأن هذا الجزء من الشعر كتب بعد الإسلام لا قبله. والذي أريد قوله في هذا الصدد: إن بعض المستشرقين أمثال(كليمان هوار) الذين تَقَوّلوا أن شعر أمية هذا هو المصدر الأساسي لكتابه القرآن الكريم قد زاغوا وراغوا وضلوا لكنهم ما استطاعوا أن يُضلِّوا فلئن قال (أمية بن أبي الصلت) في أحد أشعاره:

يوقف الناس للحساب جميعاً ... فشقي معذب وسعيد

فهذا لا يعنى بحال من الأحوال بأن معنى الآيتين الكريمتين التاليتين:

(يوم تسود وجوه وتبيض وجوه) و(وأما من ثقلت موازينه فهو في عيشه راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية) لا يعنى أن معناهما مأخوذ من معنى البيت السابق. وإضافة إلى ما أورده (د. السطلي) في كتابه بأن هذا الشاعر وأمثاله من الأحناف مثل (ورقة بن نوفل) و(زيد بن

عمـرو) وآخـرون... قـد تـألّهوا وطلبـوا الـدين الحنيـف مـؤمنين بـبعض مـا بقـي مـن ديـن إبراهيم.. وأضيفُ ملحوظة هنا إلى أنَّ يشر المؤلف مـن قريب أو بعيد إلى أن هـذا الـشعر وأمثاله قد تأثر بتأثيرات أمم خلت ولعل (الزارادشية) كانت إحداها لأن (الزارادشـتية) كما رأينا تحدثت عن اليوم الآخر والثواب والعقاب وذلك حسب اتباع المرء لكل من (أهورامزدا وأهريمان) ناهيك عن أن بلاد فارس تكاد تكون متاخمة لجزيرة العرب.

والكتاب الثاني لـ (الياس سعد غالي) بعنوان (رسالة الغفران والكوميديا الإلهيـة) في لمحات تاريخية، إذ يورد المؤلـف (غـالي) في كتابـه سيلاً مـن أسمـاء البـاحثين العـرب الـذين تـأثروا بنظريـة المستشرق الأسباني (أسـين بـلا سيوس)/١٠٣/، الـذي كـان أول من نبَّه إلى أن (دانتي الليجيري) قد تـأثر في كوميدياه الإلهية بمصادر عربية إسـلامية وبخاصة قصة (الإسراء والمعراج) و(رسالة الغفران) لأبي العلاء المعري /١٠٤/، كما تـأثر بالفتوحـات المكيـة لابـن عربـي في فـصل (كيميـاء الـسعادة). نقـول: حتـى لـو أن (دانتي) قد أخذ فكرة كوميدياه الإلهية عن أبي العلاء ـ وهـذا مـا نفـاه المؤلـف ـ فإن ذلك لا ينقص من روعة الكوميديا الإلهية لأن الاستعارات الثقافية ليست عـاراً، كما أن هنـاك فرقـاً كـبيراً بـين النقـل والتـأثر، وبالمقابـل لا يـنقص مـن شـاعرية فيلسوفنا العظيم أبي العلاء سواء أتأثر (دانتي) به أم بغيره ممن سبقوه. نقول: دون أن يكون ذلك انتقاصـاً ممـا أورده (بلاسيوس) ومـن دار في فلكـه، إن (دانـتي) ـ الـذي لم يعـترف في كوميدياه سوى ل (فيرجيل) أستاذاً له ـ لا بد أن يكون هـو أيضاً قد تـأثر ـ بالإضافة إلى الـتراث الإسـلامي ـ بتـأثيرات أمـم خلـت ك (الزارادشـية) مـثلاً. لكـني لم أجـد في الكتـب الـتي قرأتهـا مـا يـشير إلى ذلـك، ففـي كتـاب د. صـلاح فاضـل بعنـوان (تـأثير الثقافات الإسلامية في الكوميديا الإلهيـة) نقـرأ مـايلي: (والمستشرق الفرنـسي الأسـتاذ بلوشـيه كـان أول مـن أشـار إلى أن أصـل الكوميـديا الإلهيـة إسـلامي، والتمـسه مـن التراث الفارسي في رسالة بهلوية عن رحلة قام بها زاهـد زارادشـتي يـدعى (أرتـاك فـيراز) إلى العالم الغيبي حيث رأى مشاهد الثواب والعقاب بما ورد في كتـاب (دانـتي)، لكنـه عجز عن إثبات ذلك حتى جاء (آسـين بـلا سيوس). ويضيف أيضاً: وآخـر بحـث جـاء في هـذا الموضوع هـو كتـاب للدكتور (رجـاء جبر) صدر عـام /١٩٧٧/ بعنـوان (ابـن سـينا وسنائي ودانتي) إذ تناول فيه علاقة الكوميـديا الإلهيـة بالمصادر الـشرقية الـتي عالجـت

العالم الغيبي علاجاً فلسفياً صوفياً وبخاصة منظومة (سير العباد إلى المعاد) للشاعر الفارسي (سنائي الغزنوي)/١٠٥/ المتأثرة بدورها برسالة (حي بن يقظان) لابن سينا. على أن هذه الخطوة قد سبق أن تقدم بها المستشرق الإنكليزي (أرنولد نيكلسون) في بحث نشره عام /١٩٤٣/ بمجلة (الجمعية الملكية الآسيوية) بعنوان (رائد فارسي) لـ (دانتي) هذا ناهيك عن أن (دانتي) كان لديه نَهَمٌ شديد للمعرفة حيث يقول في (جزء الجحيم) حسن عثمان عنه في ترجمته للكوميديا الإلهية وهو الجزء الأول /١٠٦/ (عكف ـ أي دانتي ـ على دراسة القانون والطب والموسيقى والتصوير والنحت والفلسفة والطبيعة والكيمياء والفلك والسياسة والتاريخ واللاهوت ودرس أدباء اللاتين). ثم نقرأ في (المطهر)/١٠٧/ وهو الجزء الثاني مايلي: (ولم يكن دانتي أول من تناول في الكوميديا الإلهية عالم ما بعد الحياة ـ أي الموت ـ فلقد تناولت ثقافة البشر هذه الناحية من أقدم العصور في أقطار شاسعة امتدت من سيبريا إلى الصين والهند وبابل ومصر وسوريا وفارس واليونان وروما).

ثم يضيف قائلا: (فأوزوريس عند المصريين يزن أعمال الناس، وفي الديانة البابلية تهبط عشتروت إلى الجحيم، وفي ديانة فارس ـ جحيم ومطهر وفردوس ـ ثم يقول في الفردوس وهو الجزء الثالث /١٠٨/: (و يقال إن الفردوس لفظ مأخوذ عن اللغة الفارسية والفردوس تعبير عن سعي الإنسان إلى بلوغ السعادة)، ونيل العدالة التي لا تتحقق في هذه الدنيا. وكلمة الفردوس تعنى حديقة أو روضة أو مرجاً يسوده ربيع دائم مزدهر وتشع في أرجائه الأنغام العذبة. ألا توحي هذه اللمحات التي ذكرناها والتي يصل بعضها إلى حد التصريح بأن (دانتي) قد تأثر أيضاً (بالزارادشتية) في كوميدياه الإلهية؟ ولعل ما قلناه ينطبق أيضاً على كل من (ملتون الإنكليزي) في فردوسه المفقود وعلى (كريستوفرمارلو) ـ الإنكليزي و(غوته ـ الألماني) في مسرحيتهما بعنوان (فاوست) التي تجسد عمل الشيطان. حتى أن ما طرحناه ينطبق على أبي العلاء نفسه. فهو إضافة إلى تأثره بقصة الإسراء والمعراج الإسلامية فقد تأثر بتأثرات فارسية زارادشتية. فمن يقرأ كتاب (محمد سليم الجندي) بعنوان (الجامع في أخبار ابي العلاء) يقرأ ما يلي: (إن أبا العلاء قد اطلع على الديانات من إسلامية ونصرانية ويهودية ومجوسية وغيرها إطلاعاً واسعاً) كما نقرأ في الكتاب نفسه في الحاشية

ص/١٢٥٣ـ١٢٥٤/ أن المعري قد عاشر الفرس في بغداد واطلع على مذهب المجوس كما اطلع على مذهبهم من خلال كتب الشريعة الإسلامية أيضاً. ثم يضيف قائلاً:/١٠٩/ (إن المعري اعتقد بالظلام والنور مثل قول بعض الفلاسفة بأن الله خلق الزمان ليلا ثم جعل بعضه نهاراً بإحداث الإشراق فيه فيقول:

والنور في حكم الخواطر محدث والأولي هو الزمان المظلم

/١١٠/ ثم يورد في الصفحة /١٣٩٨/ شعراً لأبي العلاء يؤكد فيه أنه اطلع على عادات الفرس اليومية.

وقد تفرست فيك الفهم ملتهبا

من كل وجه كنار الفرس في السَّذق/١١١/

ويقول حول معتقداتهم بشأن الزواج ص/١٣٩٩/:

بنات العم تأباها النصارى وبالأخوات أعرسن المجوس

ثم يقول:

سألت مجوساً عن حقيقة أمرها فقالت نعم لا تنكح الأخوات

وذلك في أصل التمجس زائد ولكن عددناها من الهفوات/١١٢/

ناهيك عن تحدثه في كل من النسخ والمسخ والفسخ والرسخ /١١٣/ ألا يدل ما ذكرناه ـ وهو غيض من فيض ـ على أن المعري نفسه قد عب من التراث الفارسي حتى الثمالة؟. وهذا ليس عيباً فاللغة العربة من مبدأ المثاقفه تأثرت باللغة الفارسية ـ والفارسية تأثرت بالعربية أيضاً ـ (فردوس، استبرق، سندس...الخ..)

جماعة القول: إن (زارادشت) سواء أكان نبياً أم مصلحاً أم حكيماً، سَمِّهِ ما شئت، فإنه حاول أن يفلسف الدين حسب مفهوم عصره آنذاك وأن ينتقل به إلى مرحلة التطبيق الأخلاقي. لقد أخذ (زارادشت) سَمْتَ القدم فتأرض وأخذ سمت الرأس فتسامى لقناعته بأن الإنسان إله يتأنسن هابطاً قبل أن يكون إنساناً يتأله صاعداً. لذا فقد طالب أتباعه بأن ينشروا على هذه البسيطة النور والخير والحب والعدل والسلام وأن يتجنبوا الظلام والشر والبغضاء والجور وسفك الدماء. والأديان جمعيها سواء

أكانت طوطمية أم توحيدية، تنزيلية أم وضعية. فأنها تسير وفق خطين متوازيين.

الخط الأول: علاقة الإنسان بمعبوده.

الخط الثاني: علاقة الإنسان بالإنسان.

فمن حيث الخط الأول: قد تختلف في تصوير معبودها توحيدية أو ثنوية أو تثليثية أو طوطمية، لكنها ما اختلفت يوما في الخط الثاني من حيث علاقة الإنسان بالإنسان لأنها كلها دعوة إلى الحب والخير وتحريم القتل وتجريم سفك الدم. فأول وصية جاء بها موسى: لاتقتل. وبوذا يقول: لا تقتل روحاً، والجينية تقول (روح الحكمة أن لاتقتل حياً)، وتقول الهندوسية: (الحب الحقيقي هو أن تحب كما يحب الله الأشياء كلها)، ونقرأ في الداماپادا :/١١٤/ (البغضاء لا تتلاشى بالبغضاء دائماً وإنما بالحب، ذلك هو الدستور الخالد)، ويقول كونفوشيوس: (لا تصنع بالآخرين ما لا تحب أن يصنعه بك الآخرون)، ويقول السيد المسيح: (أحبوا أعداكم باركوا لا عنيكم أحسنوا إلى من أساء إليكم)، ووصية بولس (وصية جديدة أوصيها لكم أن تحبوا بعضكم بعضاً)، والإسلام (ومن قتل نفساً بغير حق فكأنما قتل الناس جميعاً) و(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)، (من آذى ذمياً فقد آذاني) ولو انتقل الجميع بمعتقداتهم إلى مرحلة التطبيق الأخلاقي ممارسة وسلوكاً لتوقف هذا الذبح الإثني الديني المحموم في كل مكان، وتوقفت حمامات الدم في سائر أرجاء العالم. هذا الدم الذي لم يستطع (زارادشت) رؤيته فخاطب (اهورامزدا) في اليسنا (٤٨ــ٢١) قائلا: / ١١٥/ (متى تحجب يا أهورامزدا هذه الرائحة الكريهة.. هذا السائل الدموي؟) كما طالب بإنزال العقوبة الفورية على الأشرار لعل الطيبين ينالون ما يستحقون في الحياة الدنيا. ونحن نقول: مادام خيرك ينفعني ولا يضرك وشرك يضرني ولا ينفعك، فلماذا لا تقدم لي ـ وأقدم لك الحب ـ على طبق من ورد؟ لنكن المجددين لهذا الوجود كما قال (زارادشت) في اليسنا (٣٠ـ١٩): (ألا يمكن لنا أن نكون أولئك الذين يجددون هذا الوجود؟)[1].

---

(١) في الحواشي هناك بعض ما يفيد الموضوع غنى.

المصادر والمراجع

١ ـ أطلق محمد إقبال في ديوانه الشعري (جناح جبريل) ص /١١ـ١٢/على نيتشه كلمة (المجذوب) الذي أنكر الله انتقاماً لأنه لم يجده. فقال إقبال إنه الحلاج دون صلب وكأمية بن الصلت (آمن قلبه وكفر عقله).

٢ ـ لقد ذكر اليهود في (بروتوكولاتهم) بأنهم العرق المتميز القاهر وغيرهم من الغوييم دائما طبيعتهم مقهورة، وإذا ظهر مبدع يوماً ما في صفوف الغوييم فإن ذلك عن طريق الصدفة ليس إلا.

٣ ـ هكذا تكلم (زارادشت) فريدريك نيتشه ص/٧/ وكتبه عام /١٨٨٣ـ١٨٨٥/ م وهناك تضاد بين ما قاله نيتشه وبين ما دعى إليه (زارادشت) إذ تأثر نيتشه بفلسفة (شوبنهور) الفيلسوف الألماني /١٧٩٨ـ١٨٦٠/ الذي قال: (إن الأديان امتداد للتفسير البدائي الذي كان يفهم كل شيء من خلال السحر والخرافة. كما أعلن عن موت الإله... وسمى نيتشه نفسه عدو المسيح على الرغم من أن أصدقاءه في صغره شبهوه بالمسيح لبراءته وحبه للخير. انظر كتاب فلاسفة الشرق والغرب. مصطفى غالب ص/٣٣٤/.

٤ ـ إعلام المسرح الأوربي د. محمد غلاب / ص ١٣/.

٥ ـ (اينشتاين) فيزيائي ألماني /١٨٧٩ـ١٩٥٥/ م.

٦ ـ علم النفس الجديد ـ بيير داكو / ص١٨/.

٧ ـ شاعر مصري قديم /٥٦٥ـ٤٧٠ / ق.م.

٨ ـ شانكار شاعر عاش سنة /٢٠٠/ ق. م.

٩ ـ التخيل للمشخص والتذهن للمجرد.

١٠ـ تذكرنا حيرته بحيرة إبراهيم / ع / فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال: هذا ربي فلما أفل قال: لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغاً قال: هذا ربي فلما أفل قال: لئن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال: هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال: يا قوم إنني برئ مما تشركون. وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين.) (الأنعام ـ ٧٦ـ٧٧ـ٧٨ـ٧٩).

١١ ـ كان الإغريق يسمون بلاد فارس (بيرسيس) ولم يظهر لفارس شأن إلا في عهد (كوروش) /٥٥٨ ـ ٥٣٠/ ق.م وهو الذي قضى على الميديين /٥٣٨/ ق.م وعلى بابل /٥٣٩/ وحرر اليهود بعد أن أسرهم (بختنصر). وجد الأسرة الأخمينية اسمه (هاخمين) ثم جاء من بعده (قورش) ف (قمبيز) ثم (دارا الأول) ثم (ثانويون) ف (ارتخشيارش الأول) ثم (دارا الثاني) ثم (ارتخشياش الثاني والثالث) الذي في عهده سقطت إيران. انظر كتاب (قصة الأدب الفارسي) حامد عبد القادر (جزء ١ ص ٢٨).

١٢ ـ الطوطمية : واحدة من أقدم الديانات في المجتمع المشاعي البدائي (وهي عبادة حيوان ما) واستعمله كمصطلح لأول مرة (جون لونغ) في نهاية القرن الثامن عشر.

١٣ ـ فجر الإسلام ـ أحمد أمين (جزء أول ص ١١٧).

١٤ـ المصدر نفسه ص /١٢٠/.

١٥ ـ زارادشت الحكيم ـ حامد عبد القادر (ص ٢٠).

١٦ ـ (الهوما) شرحناه من قبل ـ وهو شراب مسكر يعصر من نبات وينمو عند الإيرانيين على رؤوس الجبال ولم يحرمه (زارادشت) وظل يقدم قربانا إلى الآلهة. انظر كتاب قصة الحضارة ـ ول ديورانت الجزء الثاني / ص ٤٢٣ / كما نلحظ هنا ما للعجل من تأثر عند العصاة من قوم موسى (قصة العجل السامري بعد عودة موسى من عند ربه) (طه من ٨٤ إلى ٩٧).

١٧ ـ قصة الحضارة. ول ديورانت. جزء أول / ص ١٣٤/ وسبنسر إنكليزي في أعلام المدرسة الوصفية / ١٨٢٠ـ١٩٠٣/.

١٨ ـ وبعضهم يقول في خوارزمي وبعضهم في بكتريا ثم نشر دعوته في (بلخ ـ بايران).

١٩ ـ كتاب إيران ـ شعوب العالم، تأليف حسن محمد جوهر ـ محمد مرسي أبو الليل / ص ٨/ ويقال إن إيران سميت بذلك باسم أحد ملوك البيشداديين وهو (إيران) والمعروف باسم (هو شفك بن سياميك بن كيوميرت) أول ملوك البيشداديين. انظر كتاب زارادشت الحكيم. حامد عبد القادر / ص ١٠/.

٢٠ـ وهو الجنس المعروف ب (الهندو ـ أوربي) ولقد انقسم هذا الجنس منذ فجر التاريخ إلى قسمين عظيمين انتشر أحدهما غرباً واستقر في أنحاء أوروبا المختلفة والقسم الآخر هو الجنس الآري وقد انقسم بدوره إلى شعبتين استقرت إحداهما في ما يعرف بالهند واستقرت الأخرى في ما يسمى بفارس وهو ما يعرف اليوم بإيران. و(الميتانيون) أول الشعوب الهندو أوروبية. وهم الذين قضوا على الدولة الآشورية. أنظر قصة الحضارة. ول ديورانت / جزء أول ص ٣٠٠/ وكتاب الحكماء الثلاثة احمد الشنتاوي ص /٩ـ١٠/ ويرى الفردوسي في الشاهنامه أنه حكم إيران قبل الإسلام أربع دول: البيشدادية وأول ملوك البيشداديين هو كيوميرت الذي يقرر مؤلف الأبستاق أنه أبو البشر الذي تسميه الكتب الأخرى بـ (آدم).

٢١ ـ أهم الأمور: أن النار التي قدسها الفرس قد قد سها البراهمة من قبل والبراهمة أتت على أنقاض)(الفيدا) التي وجدت /١٥ / ق.م للمزيد راجع كتاب ترميزالعقل الأول فيصل مفلح)(جزء أول ص ١١٧) وقد أخذ البراهمة النار عن أتباع إبراهيم (ع) لأن النار لم تحرقه فقدست النار. ومع مرور الزمن بولغ في احترامها حتى عبدوها ونسوا السبب الذي من أجله قدست النار وتحولت من وسيلة إلى غاية. راجع كتاب دين إبراهيم سلسلة الأديان العالمية. هاشم الدفتردار ـ المدني ومحمد علي الزعبي (ص ١٠٧) ثم يضيف قائلاً: (كم من رسول أو رباني ظهر فاحترموه وبالغوا في احترامه حتى سلخوه عن إنسانيته وألبسوه ثوب الألوهة ونسوا الله الذي من أجله احترموه.) ثم أن (زارادشت) قد حرم اللواط في الأبستاق ونحن إذا ما عدنا إلى الآية الكريمة (العنكبوت ٢٩) (ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من احد من العالمين) نجد هنا أن قوم لوط هم أول من ارتكب الفاحشة اللواط وإتيان الذكران شهوة من دون النساء، ونحن نعرف تاريخياً أن لوطاً كان مع عمه إبراهيم وتزامن وجودهما في القرن التاسع عشر ق. م وإبراهيم هو الذي سمى ابن أخيه لوطاً لأن حبه لاط بقلبه ويقول الأبستاق عن اللواط (اللواط لا يمحوه شيء قط) وإذا وجد في الألف ق.م فإنه بذلك يكون قد عاصر إما داوود أو ابنه سيلمان.

٢٢ ـ بذلك يكون قد عاصر إشعيا وعاموس ـ أنبياء التوراة. ومما قيل في مولده: قال فيثاغورث معتمداً على أرسطو: إن (زارادشت) وجد قبل أفلاطون /٥٧٠ـ٥٠٠/ ق. م أي بستة آلاف سنة ويقول (بلوتارك) (إنه عاش قبل حرب طروادة ويقول آخرون: إنه عاش في عهد الملكة(سمير أميس) ملكة نينوى وملكها (نينوس) /٦١٠ـ٥٠٨/ ق.م ويحدد ميرسيا ايلياد في كتابه تاريخ المعتقدات في الأفكار الدينية جزء ثانٍ / ص ٣٣٧/ وجود زارادشت ما بين /٦١٠ـ٥٨٢/ ق.م.

٢٣ ـ وصيغتها باليونانية(**Zoroaster**) ويقال زارادشت وزارادشت.

٢٤ـ وزاردشت (الشاهنامه).

٢٥ ـ الحكماء الثلاثة. أحمد الشنتناوي.

٢٦ـ مقارنة بين الأديان د. أحمد شبلي جزء ٤.

٢٧ ـ مصطلح تاريخ وأسطورة في آن معاً لأنها تتعلق بمكان واقعي وأشخاص حقيقيين ونقلت بالتواتر من جيل إلى جيل.

٢٨ ـ هناك كثير من الألفاظ لاسم أمه وأبيه. أنظر زارادشت الحكيم. حامد عبد القادر /ص ١٤ـ٢٥ـ٢٦/ وفي الفهرست لابن النديم ص ١٩.

٢٩ـ قصة الحضارة. ول ديورانت جزء /٢/ ص /٤٢٤/ والنقل بتصرف.

٣٠ ـ ويقول ميرسيا ايلياد في كتابه تاريخ المعتقدات في الأفكار الدينية إن اسمه (دوران سروان).

٣١ ـ نلحظ هنا أن قصة النار التي كانت برداً وسلاماً على إبراهيم قد عادت من جديد... في قصة زارادشت.

٣٢ ـ تذكرنا هذه الحادثة بالحادثة التي جرت مع الرسول محمد (ص) لما فتحت (خيبر) وخلاصتها (إن امرأة يهودية سألت: أي عضو من الشاة يحب الرسول (ص) فقيل لها الذراع فأخذت الذراع ووضعت فيه سماً وأكثرت منه ثم أهدتها إلى النبي (ص) فلما تناول الذراع لاك منها مضغة ولم يستسغها فقال لأصحابه: أمسكوا فإنها مسمومة. وكان بشر بن البراء قد أكل منها فمات. (ونلحظ أن زارادشت قد لحظ ما في الطعام من قبل مذاقة!!؟؟).

٣٣ـ نجد في كتاب تاريخ المعتقدات في الأفكار الدينية لميرسيا ايلياد أن اسمه (دوران سروان).

٣٤ـ الطورانيون كما تقول الشاهنامة: ص /٨٠/. أمم الشمال الهمجية التي كانت منذ أقدم الأزمنة وبالاً على إقليم إيران المتحضر، وكان دفعهم من أعظم ما عني به ملوك إيران في العصور كلها وهم كما يقول حامد عبد القادر في كتابه زارادشت الحكيم (فريق من التتار أو الأتراك كانوا يقيمون في الإقليم المسمى الآن بـ (تركستان).

٣٥ـ جميل أن أذكر هنا جملة قالها زارادشت نقلاً عن أهورامزدا فيما يتعلق بالوطن إذ قال: (لقد جعلت كل أرض عزيزة على أهلها ولو كانت جرداء من أي فتنة ولولا ذلك لاحتلت إيران سائر الدنيا) والفرس يرون أنفسهم أنهم خير الناس جميعاً من سائر الوجوه. ويعتقدون أن غيرهم من الأمم تدنو من الكمال بقدر ما تقرب موقعها الجغرافي من بلاد فارس وأن شر الناس هم أبعدهم عنها. انظر قصة الحضارة. ول ديورانت جزء /٢/ ص /٤٣٢/ ونحمد الله أن هذه القوة قد وضعت وكرست كل إمكانياتها وطاقاتها لخدمة القضايا العربية وذلك بعد الثورة الإسلامية الإيرانية.

٣٦ ـ كان عند(سقراط) طالب ذكي يحبه كثيراً لكن ما سأل (سقراط) تلاميذه يوماً سؤالاً وتصدر هذا الطالب للإجابة مرة. فقال له: سقراط ذات يوم (يا هذا تكلم حتى أراك) وهذا يعني أن المرء لا يسمع فقط من خلال الكلام، بل ويرى من خلاله أيضاً وهذا يذكرنا بقول سيدنا علي (ر) (تكلموا فالمرء مخبوء تحت لسانه).

٣٧ ـ نلحظ هنا عدم تحريم (زارادشت) تعدد الزوجات الذي لم تقره (المسيحية) وأقره (الإسلام) فيما بعد.

٣٨ ـ فجر الإسلام. أحمد أمين جزء أول ص /١٢٢/.

٣٩ ـ زارادشت الحكيم. حامد عبد القادر ص /٤/.

٤٠ ـ ك(ول ديورانت) و(ميرسيا ايلياد) في موسوعة لاورس اعتبر مصلحاً لكن بعد نزول الوحي عليه اعتبر نبياً.

٤١ ـ د. أحمد شبلي. مقارنة بين الأديان جزء /٤/ وأحمد أمين في كتابه فجر الإسلام ص /١١٨/ وطه الشافعي في كتابه مروج الذهب ص /١٣٦/ وبطرس البستاني في دائرة معارفه ص /١٩٧-١٩٨/ وغيرهم.

٤٢ـ انظر كتاب دين إبراهيم ـ هاشم الدفتردار المدني ـ محمد علي الزعبي ص /١٩٤/

٤٣ ـ الكتاب والقران د. م محمد شحرور

٤٤ ـ من يقرأ كتاب (الإمتاع والمؤانسة) للتوحيدي الليلة السادسة من ص/٧٠ إلى ٩٦/ يجد رد التوحيدي على (الجيهاني) الذي ذم في كتابه العرب ومدح الفرس. ويقرأ أيضاً بأن التوحيدي لم يكذب نبوة زارادشت فقط بل حمل على مصدقي نبوته لاعتقاده بوجود إلهين وتحليله (نيك) ـ وعذرا لأني نقلتها كما وردت ـ الأمهات والأخوات والبنات. ثم أورد حديثاً عن الرسول (ص) يقول فيه: (سنوا بهم سنة أهل الكتاب). ولقد فهم التوحيدي من هذا الحديث أنهم ليسوا أصحاب كتاب. وإن لم يحمل هذا الحديث الشريف معنى ضمنيا بأنهم أهل كتاب فإنه طالبهم بأن يعاملوهم معاملة أهل الكتاب. وسيدنا علي (ر) يقول: (المجوس أصلهم أهل كتاب) وهذا يعني قبل أن يحرف المجوس دين (زارادشت). كما أجاز جعفر الصادق نكاح المجوسيات. انظر كتابي فجر الإسلام لأحمد أمين ص /١٢٠/ وكتاب دين إبراهيم ـ هاشم الدفتردار المدني ومحمد علي الزعبي ص /٢٥/. وهناك ـ كما اعتقد ـ فرق بين ما نادى به (زارادشت) وما فعله المجوس المتأخرون. ولعل المقصود بالآية الكريمة (المجوس) وليس (زارادشت) (الحج ١٧) (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس الذين أشركوا. إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد) و(الشهر ستاني) في كتابه (الملل والنحل) ص /٥٥١/ قال: إن لهم شبه كتاب ويعني (الجاتاس).

٤٥ـ يذكرنا هذا بالحديث الشريف القائل: أنه لما سئل الرسول محمد (ص) عن الله فقال: (نوراني أراه).

٤٦ ـ الزواج بالأقارب كان يمارسه الملوك سابقاً حيث كان الملك يتزوج أمه أو أبنته حفاظا على الدم الملكي نقياً خالصاً. قصة الحضارة ول ديورانت جزء /١/ ص /٧٩/. وقال عمر بن الخطاب (اغتربوا لا تضووا) ويذكر أنه لما مر عمر بن الخطاب (ر) جماعة من قريش ضعاف الأجساد سألهم: مالكم؟ قالوا: قرب آبائنا من أمهاتنا. قال: (تزوجوا من الأباعد وأنجبوا).

٤٧ـ يقال: إن زارادشت رأى رؤيا قبل عشر سنوات أن ابن عمه هذا يقود جيشاً عرمرماً ويحارب في سبيل الحق وينتهي أمره بانتصاره على أعدائه.

٤٨ـ وزوده (شاثرا) بالمعلومات والأسرار الخاصة بالمعادن وأطلعه (أرميتي)على أحوال البلاد والأقاليم المختلفة.. ولقنه (هوزقتات) المعلومات المتعلقة بالحياة وكيفية استعمالها والإفادة منها وزودة (أمرقات) بالمعلومات الخاصة بعلم النبات وهكذا..... وقد جاء في المصادر البهلوية المتأخرة أن

هؤلاء الملائكة قد فاض الواحد منهم عن الأخر أي أن (أهورامزدا) لم يخلق سوى (فوهومناه) فقط (و ـ فوهمناه) فاض عن الآخر والآخر فاض عن غيره وهكذا... ونرى أن هذه الفكرة ليست بعيدة عما جاء في العهد القديم... والقرآن الكريم أيضا (حول خلق حواء من ضلع آدم.. لأن الخلق الأول للإنسان كان بيد الله من التراب ثم خلقت حواء من ضلع آدم قبل أن يتم خلق الإنسان.. بإرادة الله ـ عن طريق الإنسان من خلال الزواج.

٤٩ ـ المزدية: نسبة إلى (مزدا) وتخطيء كثير من الكتب أثناء طباعتها فتكتب (المزدكية) نسبة إلى (مزدك) الذي جعل المال والنساء وكل شيء مباحا للجميع كالماء والكلأ والنار. والفرق بين المصطلحين كبيراً جداً.

٥٠ ـ زارادشت الحكيم. حامد عبد القادر ص /٥٠/.

٥١ـ تقول الشاهنامه في الجزء الأول ص /٣٢٣/ إنه خامس ملوك الساسانيين وإنه حكم /١٢٠/سنة. ومنهم من يرى أنها سنوات كاملة ومنهم من يرى أنها شهور لأن السنة في نظر القدماء كانت تساوي شهراً. وأبو العلاء المعري كان يقول:

ورووا للمعمـــــــرين أمـــــــــورا	لـــست أدري مـــا هـــن في المـــشهور
أتـــراهم بمـــا تقـــضى مـــن الأيـــ	ـــا عـــدوا ســـنينهم بالـــشـــهور
كلمـــا لاح للعيـــــون هـــلاك	كـــان عامـــاً لـــديهم في الـــشـــهور

٥٢ـ كاعتراض (أهريمان) طريقه ليثنيه عن عزمه لكنه ما أن قرأ فصلاً من (الأبستاق) حتى فرَّ هو وأتباعه من أمامه. كما أنبت شجرة أمام باب قصر الملك فور وصوله إليه علاوة على حمله كرة من نار قدمها للملك ثم لحاشيته فلم تحرق الكرة أحداً.. وهكذا.. كما كان ينبىء بموت فلان في يوم كذا وبولادة فلان في يوم كذا.. وخورا ق أخرى.

٥٣ ــ ويروي حامد عبد القادر في كتابه (زارادشت الحكيم) ص/١٠٣ـ١٠٤/ قصة سجن (اسفنديار) لتآمر أخيه عليه. وعندما هجم الطورانيون واحتلوا أكثر البلاد حاول الوزير (جاماسب) أقناع الملك (كشتاسب) بالإفراج عن أبنه لصد الأعداء لمهارته في قيادة الجيش ففعل وصد الأعداء.

٥٤ ـ ولذا فإن الكتاب المتأخرين يؤرخون حياة (زارادشت) ابتداء من هذه اللحظة أي في /٣١/ من عهد الملك (كشتاسب) أول سنة من تاريخ الديانة الزارادشتية في /١٥/ (ارتفاهستو) /٥/ أيار سنة /٦٣٠/ ق. م و(هو عيد النيروز).

٥٥ـ الجزء الثاني ص /٤٢٥/.

٥٦ ـ ويقول (بطرس البستاني) في دائرة معارفه: إنه لما شاخ اعتزل الناس في جبل (البرزوا) وبقي في عزلته حتى أدركته المنية.

٥٧ ـ الملل والنحل لأبن حزم (جزء أول) ص /١١٥/.

٥٨ ـ زارادشت الحكيم ـ حامد عبد القادر ص /٦٦/ وأيضاً في المعتقدات الدينية لدى الشعوب تحرير جيفري بارندر ص /١٨٧/.

٥٩ ـ وهذه الأسرة حكمت ما بين /٢٢٦ـ٦٥٢/ ب.م تاريخ المعتقدات في الأفكار الدينية مرسيا ايلياد ج /٣/ وتقول الشاهنامة أيضاً: في الجزء الثاني / ص ٣٠١ـ٣٢٤ـ٣٢٦ـ٣٩١/ أنه لما قتل دارا بن دارا كان له ولد عاقل يسمى (ساسان) فلما رأى ما حل بأبيه هرب (ساسان) أيضاً فسمي بهذا الاسم كل ولد منهم.

٦٠ ـ ويقال سبعة وهم الفضائل العليا (الحكمة، الشجاعة، الفقه، العدل، الإخلاص، الأمانة، الكرم) انظر قصة الأدب الفارسي حامد عبد القادر. جزء أول ص /٣/ ويقال سته (تفكير طيب. الحق الأسمى، العمل الطيب). ذكور (فداء، خلود، تقوى) إناث. أنظر كتاب زارادشت الحكيم. حامد عبد القادر ص /٤٥/.

٦١ ـ (الأخمينيون) أسرة حكمت بلاد فارس أكثر من قرنين /٥٥٠ـ٣٣٠/ ق.م ويرجع اسمها إلى جدها الأكبر (أخمينيس) الذي كان حاكما على قسم جبلي بجنوب غرب إيران.

٦٢ـ تاريخ المعتقدات في الأفكار الدينية. ميرسيا ايلياد (جزء٣ ص).

٦٣ ـ ويقال: إنه قتل الإنسان الأول لكن بذوره بقيت مخبأة تحت الأرض حتى نبت منها بعد أربعين سنة شجرة كبيرة خرج منها أول زوجين من البشر (ودروج ـ كبير أعوان أهريمان) ويقابله (أشا ـ العدالة ملك أهورامزدا). تاريخ المعتقدات في الأفكار الدينية ميرسيا ايلياد جزء ٣ ص /٢٢٦ـ٢٢٧/ ويقول حامد عبد القادر في كتابه قصة الأدب الفارسي ص /٣١/ (إن قوى شيطانية كثيرة تعاون (أهريمان) مثل (الرذيلة، النفاق، الخديعة، الخيانة البخل، إزهاق الأرواح...)

٦٤ ـ نسبة إلى مؤسسها (ماني ـ الفريد أو النادر) /٢٢٦ـ٢٣٦/ ب. م وديانته مزيج من (زارادشتية ويهودية ومسيحية) ادعى النبوة في بابل وسمى نفسه (باركيت ـ فارقليط) ـ أي المنقذ الذي بشر به السيد المسيح.

٦٥ـ زارادشت الحكيم. حامد عبد القادر ص /٨٣/.

٦٦ ـ وقوى الخير في مملكة (أهورامزدا) ليست مقصورة على الملائكة والكائنات الروحانية، لكنها أيضاً تمثل الكائنات المادية وأنواع الحيوانات النافعة للإنسان وتمثل الإنسان أيضاً فهم جميعاً يقفون مع (أهورامزدا) بينما (المانويون) يرون أن امتزاج النور بالظلام الذي نشأ عنه وجود الكائنات المادية والظواهر الصحية هو شر كله وأنه نتيجة قوى الشر ليس في هذا العالم من خير

والزارادشتية أيضا دعوة إلى الكفاح والصراع في سبيل الحياة بينما المانوية استسلامية تقشفية تنبذ الدنيا وما فيها من ملذات ص/٦٠ـ٦١ـ٦٢/. ويضيف حامد عبد القادر في كتابه قصة الأدب الفارسي جزء أول ص /٥٦/ ما يلي: (وكان هذان المبدءان في المانوية أول الأمر منفصلين مستقلين متلاصقين ملاصقة الضوء للظل وما داما منفصلين لم تحدث في الكون كوارث. فلم تنشأ الظواهر الطبيعية ولم تنشأ الكائنات الحية ولا الجمادات ثم امتزجا فنشأ عن امتزاجهما الكون. عالم من ظواهر وأحداث جسام وكأنها كثيفة وكائنات حية وكان الظلام هو البادئ بالامتزاج لأن النور خير بطبيعتة فلا يبدأ بالاعتداء وإنما قال ماني بوجود هذين المبدأين لأن الخير والشر ضدان لا يصدران عن شيء واحد. ألا ترى أن النار لا يصدر عنها الحرارة والبرودة وأن الجسم البارد لا تنشأ عنه البرودة والحرارة؟ وهذان المبدءان نشيطان فعالان إلى الأبد بدليل دوام صدور الخير عن إحداهما والشر عن الأخر. راجع الملل والنحل للشهرستاني ص/٥٦٩ / إلى ٦١٨/ (وكتاب زارادشت الحكيم لحامد عبد القادر ص/٨٢/). وللظلمة والنور في الإسلام معنيان: قريب، وبعيد - مجازي.

١. القريب منه ما هو تلميح عن طريق الليل والنهار (الأنبياء ٣٣) (وجعلنا الليل والنهار آيتين)..(و هو الذي خلق الليل والنهار) وهكذا..

ومنه ما هو تصريح (الأنبياء ٨٧ـ٨٨) (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن يقدر عليه أحد فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين).

٢. البعيد المجازي: (إبراهيم٢) (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) (إبراهيم ٤). ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور) ثم (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون). و(الظلمات والنور هنا - أي إخراجهم عن الغي إلى الرشد، من الغواية إلى الهداية) ولعلنا من خلال الآيات الكريمات من سورة الحجر من (٢٦ حتى ٤٥) تتضح لنا أمور كثيرة. (و لقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم) من خلال الآيتين الكريمتين ندرك أن عملية الخلق الإلهي كانت من عنصرين (النار والتراب) والسبق في الخلق كان من مادة النار وهاتان المادتان إن لم تكونا طاهرتين فإنهما غير دنستين بدليل الآية الكريمة:

(فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً) وهذا يدل على أن التراب طاهر لا دنس. كما نجد في سورة الرحمن أيضاً (وخلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار) ثم تتابع الآيات الكريمات السابقات (وإذ قال ربك إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين قال يا إبليس: ما منعك ألا تكون مع الساجدين؟ قال: لم أكن لأسجد لبشر

خلقته من صلصال من حمأ مسنون قال: اخرج منها فأنك رجيم وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين قال: رب بما أغويتني لأزينين لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين، قال: هذا سراط علي مستقيم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين. وإن جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء معلوم. إن المتقين في جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين..) نلحظ من خلال هذه الآيات الكريمات أن بدء الشر الذي يتعلق بالبشر فقط ابتدأ مع عصيان إبليس حين رفض السجود لآدم. وفي الإسلام لا توجد أزلية ولا أبدية إلا لله تعالى فقط.

٦٧ـ ليس من المرجح ان يكون قد تم تدوينه قبل القرن الخامس الميلادي. (انظر المعتقدات الدينية لدى الشعوب تحرير جيفري بارندر ص /١١٧/.

٦٨ ـ ص /٢٧/.

٦٩ ـ تاريخ المعتقدات الدينية. مرسيا ايلياد (جزء ٣ ص ٣٧٦).

٧٠ ـ هناك أبستاق قديم وأبستاق حديث. (انظر كتاب زارادشت الحكيم. حامد عبد القادر) ص /٧٠/.

٧١ ـ قصة الأدب الفارسي ص /٤٢/ وزارادشت الحكيم ص /٧٢/ والكتابان لحامد عبد القادر.

٧٢ ـ والمجوس (magic) كلمة يونانية الأصل (magog) أطلقها اليونان على كهنة (زارادشت) عندما دخلوا فارس بقيادة الإسكندر الأكبر والكلمة معناها (العظيم أو الهائل) ذلك لأنهم برعوا في السحر (magic) ولهذا اشتقت الكلمة الأوربية التي تعني السحر من اسمهم. انظر كتاب المعتقدات الدينية لدى الشعوب. تحرير جيفري بارندر ص /٣١ /. ويقول الشهر ستاني في كتابه الملل والنحل. هذه الكلمة (المجوس) تطلق على من يعظم النار.

٧٣ ـ اليسنا: ويسمى (الجاتاس) وتشمل أحاديث (زارادشت) وما أوحي إليه في عبارات موزونة، وهو قسم أدعية وصلوات، وهو كما تقول موسوعة لاروس: عبادة الأضاحي: مجموعة من الأناشيد منسجمة /٩١/ وتوجد فيها أسماء الأشخاص الذين تلقوا الوحي الإلهي بما فيهم والد (زارادشت) وما يجب أن يعلموه للناس والصلوات ضد الشياطين.

الفنديداد أو الونديداد: أو القانون المضاد للشياطين عشرون فصلاً، وهو حوار بين السيد الحكمة وتلميذه. كما تقول موسوعة لاروس: الفسبيرد ـ ملحق بالياسنا وشبيه به كتاب المزامير الزارادشتية وتقول موسوعة لاروس: حوار بين السيد والمصطفى عدده/٢٢/ أخذت عن أهورامزدا.

أليست: أو التسبيحات الغنائية وهي أناشيد في مدح الملائكة المشرفين والأناشيد مهداة إلى أهورامزدا (موسوعة لاروس).

سيروزات: رقمه /٣٠/ ذكر فيه ثلاثة من الرؤساء حسب أيام الشهر/٥/ ياسنا هذه صلوات وأناشيد إلى (أهورامزدا) وآلهة الشرق القديم الهندية الآرية التي أصبحت الآن في خدمة السيد (يايو ـ

مترا، وأناهيتا، وهوما) وهذه الديانات قبل الزارداشتية توجد في (الأفستا) احتفظ فيها ضمن إطار الوحدة الوطنية في حين كانت (الزارداشتية) قد أصبحت الديانة الرسمية للدولة وهناك (الخرد أبستاق ـ الأبستاق الصغير) وهو شعر في الأدعية والصلوات أو موجد الصلوات للموتى.

للمزيد راجع (دائرة المعارف للبستاني. وموسوعة لاروس فصل (زاراسترا) جزء /٢٠/ ص /١٢٨٧٨-١٢٨٧٩/ وتروي بعض القصص الفارسية قصة أبستاق أكبر من هذا بكثير ويقع في /٢١/ كتاباً ويسمى واحدها (النسك) راجع قصة الحضارة. ول ديورانت ج/٢/ ص /٤٢٦/.

٧٤ ـ يقول أحمد أمين في كتاب فجر الإسلام ص /١١٩/ إنها سبع.

٧٥ـ قصة الحضارة. ول ديورانت (ج/٢/ ص /٤٢٨/) كما نلحظ صدى لذلك في التوراة سفر التثنية إصحاح /٢/ (ملعون من يضطجع مع زانية). ويقول القرآن الكريم: (و لا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً).

٧٦ ـ كتاب دين إبراهيم. هاشم الدفتردار المدني وأحمد علي الزعبي ص /٢٠/.

٧٧ ـ ويقول القرآن الكريم (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء).

٧٨ ـ والروح في الإسلام (إسراء ١٤) (و يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي).

٧٩ ــ وول ديورانت قصة الحضارة جزء أول ص / / كما نقرأ في كتاب الموت في الديانات الشرقية لحسين العودات ص /٣٣/ نقرأ ما يلي (و الخلود كان محور الديانات الرافدية وآدابها ولكنها سرعان ما اكتشفت استحالة ما تصبوا إليه لأن (ايا) آلهة الحكمة قد علمت (أريدو) جميع العلوم ولم تخف عنه أسرارها إلا سراً واحداً هو سر الحياة الأبدية التي لا تنتهي بالموت).

٨٠ ـ وكانت عادة رمي الجثث بعد الموت عادة مألوفة لدى أهل البادية من سكان الجزء الشرقي من إيران. انظر زارادشت الحكيم حامد عبد القادر ص /٣٠/ (والتراب والنار ـ علاوة على الماء والهواء ـ المقدسان عند (زارادشت) نلحظ في العهد القديم ـ سفر التكوين أن عملية الخلق الأول(آدم) كانت من التراب. في القرآن الكريم أيضاً (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون)(الروم ٢١) كما نلحظ أن خلق الإنسان والجان كان من هذين العنصرين (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم) كما نلحظ أن عملية الخلق الثالثة ـ بعد خروج حواء من ضلع آدم كما ذكرنا آنفاً ـ كانت ـ بإذن الله ـ من ماء مهين عن طريق الإنسان بدليل الآية الكريمة (الغفران ٥٤) ـ(هو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً) (و السجدة /٧ـ٨/ـ وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) (وفاطر/١١/ ـ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً).

٨١ ـ في القرآن الكريم (النساء /٨٧/ ـ أينما كنتم يدركم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) (والضحى /٨٨/ ـ كل شيء هالك إلا وجهه) (والعنكبوت /٧٥/ ـ كل نفس ذائقة الموت).

٨٢ ـ الموت في الديانات الشرقية ـ حسين العودات ص /٢٤/.

٨٣ـ (وما من قول إلا لديه رقيب عتيد) قرآن كريم.

٨٤ ـ الفارابي وابن سينا لم يؤمنا ببعث الأجسام. والحساب لن يحصل إلا للنفوس فقط ولم يوافقهما في ذلك الغزالي.

٨٥ ـ ويوم الحق أو يوم القيامة ركز الإسلام كثيراً عليه (أحزاب /٦٣/ـ ويسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً) (والقصص /٨٨/ ـ الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً) (و الحج/٧/ ـ إن الساعة آتية أكاد أخفيها) وكلمة أخفيها تحمل معنى الضدين ١ ـ أظهرها. ٢ ـ أسترها.

٨٦ ـ (و أما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية، وأما من خفت موازينه فأمه هاويه وما أدراك ماهية نار حامية).

٨٧ ـ تاريخ المعتقدات في الأفكار الدينية. ميرسيا ايلياد ج/٣/ ص /٣٨٦/ وفي الإسلام (إن الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم (بقرة /٢١٣/) (اهدنا الصراط المستقيم).

٨٨ ـ الأعراف /٤٦/ (وعلى الأعراف رجال يعرف كلاً بسيماهم.. ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون) وعقيدة المسلمين في (الصراط ـ الأعراف) تشبه الزارداشتية حسب رأى أحمد أمين في فجر الإسلام ص /١٠١ـ١٠٤/.

٨٩ ـ حكمة الأديان الحية ـ تحرير جيفري بارندر ص /١٢/.

٩٠ ـ فجر الإسلام. أحمد أمين. جزء أول ص /١٢١/.

٩١ـ المصدر نفسه ص /١٢٢/.

٩٢ ـ قصة الأدب الفارسي حمدي عبد القادر جزء أول ص /٣٦/.

وزارادشت الحكيم. حمدي عبد القادر جزء أول ص /٨٧/.

٩٣ـ تاريخ المعتقدات في الأفكار الدينية جزء ثانٍ ص /٣٨٢ـ٣٩٩/.

٩٤ ـ المعتقدات الدينية لدى الشعوب تحرير جيفري بارندر ص /١٢٢/.

٩٥ ـ ولهم أيضاً طقوس تذكرهم بدينهم وهي جزء من زيهم اليومي إذ يعقدون مرات عدة في اليوم خيطاً مقدساً مكوناً من /٧٢/ خيطاً ويرمز ذلك العدد إلى أسفار (اليسنا) وذلك تعبير عن التصميم الديني.

العزم الأخلاقي ويغسل المرء وجهه ويديه قبل أن يلمسه (انظر زارادشت الحكيم. حمدي عبد القادر ص /٤١/).

٩٦ ـ أي أنه لم يبق لنهاية العالم حسب المعتقد الزاردشتي إلا حوالي /٩٣٠٠/سنة والقرآن

الكريم يقول (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون) (اقتربت الساعة وانشق القمر) (إن الساعة آتية أكاد أخفيها) وقوله (ص) (بعثت والساعة كهاتين) وفرج بين إصبعيه.

٩٧ ـ قصة الحضارة. ول ديورانت. جزء ثانٍ ص /٤٣٩ /.

٩٨ ـ انظر كتاب خطباء صنعوا التاريخ. أنور أحمد سلسة اقرأ المصرية.

٩٩ ـ مجلة عالم الفكر الكويتية مجلد /٦/ عدد/٢/ تموز، آب، أيلول عام /١٩٧٥/ ص /٤٩/. ص العدد /٣٦٩/. فقال للتصوف إيجابياته وسلبياته. أحمد محمود صبحي.

١٠٠ـ فلاسفة الشرق والغرب. مصطفى غالب ص /٢٩٩/.

١٠١ ـ المصدر نفسه ص /٢٩٩/.

١٠٢ ـ من ص /١٢٥/ إلى ص /١٢٨/.

١٠٣ ـ /١٨٧١ـ١٩٤٤/ وطرحه نظريته عام /١٩١٩/.

١٠٤ ـ عاش في اواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر م.

١٠٥ ـ ٥٢٥ /هو/١١٣١/م.

١٠٦ ـ ص /٢٢/.

١٠٧ـ ص /٥٥ـ٥٦/.

١٠٨ ـ ص/٢٣/.

١٠٩ـ ص /١٢٨٤/.

١١٠ـ نقرأ في سورة يس /٣٧/ (و آية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون).

١١١ ـ عيد للفرس يوقدون فيه النيران وهو العاشر من شهر(بيهمن ماه).

١١٢ـ السيسانية: صنف من المجوس ورئيسهم يقال له (خواق) خرج أيام أبي مسلم وكان (زمزمياً) يعبد النيران ثم ترك ذلك ودعا المجوس إلى ترك الزمزمة ورفض عبادة النار، ووضع لهم كتابا أمرهم فيه بإرسال الشعور، وحرم الأمهات والبنات والأخوات والخمر. وأمرهم باستقبال الشمس عند السجود على ركبة واحدة.. للمزيد راجع كتاب الجامع في أخبار أبي العلاء المعري ج /٣/ ص /١٣٩٩/.

١١٣ ـ النسخ: خلق الروح في إنسان آخر، المسخ: قلب إنسان إلى حيوان الفسخ: التحويل إلى نبات، الرسخ: التحويل إلى حمار.

١١٤ ـ ملحمة البوذيين المقدسة.

١١٥ـ تاريخ المعتقدات في الأفكار الدينية. ميرسيا ايلياد ج/٣/ ص /٣٨/ وللمزيد عن (زارادشت) راجع موسوعة (لاوس) جزء /٢٠/ ص/١٢٨٧٨ ـ ١٢٨٧٩/.

تجليات لاوتسه
وتعاليم كونفوشيوس

يقول (فولتير) عن الصين: (لقد دامت هذه الإمبراطورية أربعة آلاف عام من غير أن يطرأ عليها تغير يذكر في القوانين والعادات أو اللغة أو في أزياء الأهلين وإن نظام هذه الإمبراطورية لهو في الحق خير ما شهده العالم من نظم) /١/.

أما (ديدرو) فقد قال عن الصين: (أولئك قوم يفوقون كل ما عداهم من الآسيويين في قدم عهدهم وفي فنونهم وعقليتهم وحكمتهم وحسن سياستهم وفي تذوقهم للفلسفة. بل إنهم ـ في رأى بعض المؤلفين ـ ليضارعون في هذه الأمور أرقى الشعوب وأعظمهم استنارة).

فالعقل الصيني عقل عملي وعنيد ولذا فلا غرو أن يرى الصينيون أنفسهم أنهم أعظم الأمم وأرقهم طباعا /٢/. ولقد اعتبر الصينيون أنفسهم أنهم مركز الكون

وما كلمة (شنج كيو) ـ وهي الاسم الصيني للصين والتي تعني (مملكة الوسط) ـ إلا دليل على ذلك /٣/. (و سماها مرسوم الثورة، مملكة الشعب الوسطى الزاهرة). ولعظمة المرء في الفلسفة الصينية وجهان فهو في المقام الأول:

عظمة داخلية: وهي شمس الروح وينعكس ذلك في سلام الفرد ورضائه بكماله (تتمثل في الحكمة).

عظمة خارجية: تظهر القدرة على العيش بصورة جيدة على الصعيد العملي /٤/ (يتمثل في النبل). والرجل المثالي الصيني كما يقول (ليون يوتانغ) في كتابه (فلسفة من الصين) (ليس هو الرجل العابد بل هو صاحب العقل الناضج). لقد عرف الأوربيون الصين قبل هذا العصر عن طريق (ماركوبولو) الذي ساح بها في الثلث الأخير من القرن الثالث عشر الميلادي ولم ينقل عنها ما يتعدى وضعها السياسي تحت الحكم المغولي وأوصاف لبعض المدن الكبرى /٥/. والصين ممتعة لمن يشاهدها محيرة لمن يحاول فهمها. فمساحتها التي تعادل قارة أوربا /٦/ وعدد سكانها الذي (على الرغم من تجاوزه المليار)[١] فإنه يصدر بعض منتجاته حتى الغذائية منها. وسورها العظيم الأشبه بمعجزة. أو حرق الكتب غير الحضاري الذي يعد من أشهر حالات الحرق /٧/ كل ذلك يحتاج إلى كتاب كامل. لذا لن أقف إلا عند محطتين صينيتين محطة اللغة. **والثانية:** قضية العرق الأصفر.

محطة اللغة: لما سأل ملك الصين (كونفوشيوس) عن طريقة إصلاح البلاد أجابه (عليك أن تبدأ بإصلاح اللغة) هذه اللغة التي قال عنها (جيفري بارندر) في كتابه (المعتقدات الدينية لدى الشعوب): (إنها لغة لا تربطها صلة بأي جماعة أخرى وتكتب بخط لا يشبه غيره)/٨/.

فاللغة الصينية لا توجد فيها أبجدية كالتي أوجدها الساميون ولا أداه تعريف لأن أداة التعريف تضاف إلى اللغة في وقت لاحق. وليس بها تأنيث ولا تذكير إلا في الضمائر[٢].

---

(١) آخر إحصاء كان /١،٢٣٦/ مليار نسمة حتى لحظة طباعة هذا الكتاب.

(٢) تتألف اللغة الصينية من مقاطع قصيرة تدل على المعنى بنفسها أو تتحد مع غيرها لإيجاد

أما إرجاع الصينيين إلى العرق الأصفر ـ ونحن لا نؤمن بقصة العرق الملفقة ـ لأنها معلومة خاطئة. فقد أرجع (ول ديورانت) أصل الصينيين إلى (إنسان بكين) /٩/ وبعضهم أرجعهم إلى أصل رَسِّي منغولي وهذا الرس = العرق) هو أحد الرسوس الثلاثة الكبرى للنوع البشري/١٠/.

وإن اقتران اللون الأصفر ليس كما يظن الآخرون نسبة إلى العرق الأصفر أو إلى صفرة علت وجوههم بل كان ذلك نتيجة لطغيان اللون الأصفر على الأزياء الرسمية للبلاط الملكي. وإن تسمية النهر الأصفر في الصين كان نتيجة لحمله مادة الغرين /١١/.

مدخل: يقول (فيثاغورث) واضع علم الفلسفة نافياً عن نفسه الحكمة: (لست حكيماً فإن الحكمة لا تضاف إلى غير الآلهة وإنما أنا فيلسوف). هذا القول يدلنا على ما كان للحكمة من قدر جليل.. تقول الفلسفة الصينية (الحكيم الكبير صنو السماء) ولا غرو في ذلك. ألم يقل جل وعلا (ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً). وإذا كانت الهند أرقى بلاد العالم في الأديان وعلم ما وراء الطبيعة فإن الصين أرقاها في الفلسفة الإنسانية /١٢/ إذ ترجع فرضية العناصر الصينية الخمسة إلى الآلف الأول ق.م حيث ذكر معها اسم الفيلسوف الصيني (شي ـ بو ـ هو) الذي يماثل (طاليس) في الفلسفة اليونانية. فقد تخيل الصينيون عناصر خمسة يتشكل منها العالم وهي: (التراب ـ النار ـ الماء ـ المعدن ـ الخشب) وكان ذلك قبل أن يتخيل اليونانيون إسطقساتهم الأربعة (أي عناصرهم) وهي (التراب ـ النار ـ الماء ـ الهواء).

معنى جديد فمثلا تشي معناها يأكل بصيغة المضارع فإذا أريد منها الماضي أضيف إليها مقطع / لا / فتصبح / تشي لا / أما إذا أريد منها الأمر فيضاف إليها مقطع (با) فتصبح تشي با، كما أن اللغة الصينية لا تستوعب المفردات الأجنبية إلا إذا كانت مقطعة (فالتلفزيون ـ ديان ـ تشي) ـ (كارل ماركس) يقولون عنها (كار ـ ا ر ـ لا ـ ما ـ كو ـ سا) وعن سورية يقولون (شو ـ لي ـ يا) وهكذا .و ترجع اللغة الصينية الكتابة الراهنة إلى القرن /١٣/ ب. م حيث نشأت لغة (البوتونخوا) لتتقرب من لهجة منظوقة في الشمال، فلفظة الشاي مثلاً في (البوتونخوا ـ تشا) و(في الجنوب ـ تيه) فمن الأولى أخذ العرب لفظة الشاي ومن الثانية أخذ الغرب لفظة (tea) لأن الشاي صيني المنشأ واللغة. ولقد جعلت الثورة الصينية لغة (البوتونخوا) لغة الدواوين والثقافة والإعلام.انظر المستطرف الصيني. هادي العلوي ص/١٣-٢٠/.

ولا توجد في الصين فلسفة صينية تشبه فلسفة (ديكارت أو كانت) تقوم على المنطق والإقناع العقلي/١٣/، لأن الفلسفة الصينية تعتمد على المجسد لا المجرد، على المرئي لا على الماورائي، ولم تقترن بالحكمة كما هو الحال في الغرب بل اقترنت بالشعر/١٤/، ولم تهدف إلى فهم العالم بل إلى جعل الناس عظماء . ولقد ركز فلاسفة الصين على الإنسان بوصفه سيد الخليقة. وإذا كان الرواقيون ـ وفي مقدمتهم زينون ـ ينظرون إلى الإنسان على أنه (إما حكيم أو أحمق) فإنه في نظر السفسطائيين ـ وبخاصة بروتاغوراس ـ الذي اشتهر بعدم مبالاته في الدين (الإنسان مقياس الأشياء كلها)/١٥/ لأنه يتأمل بما فيه من جوهر إلهي هو العقل. **فمن هو إنسان (لاوتسه) من خلال تجلياته؟ ومن هو إنسان (كونفوشيوس) من خلال تعاليمه؟ وبأي صفات يجب أن يتمتع كل منهما؟** والصينيون كما نعرف.. يُعَرّفون الإنسان بأنه (حيوان عادل).

الصين قبل (لاوتسه) و(كونفوشيوس)

تسمى الصين (جنة المؤرخين)/١٦/ والصينيون يؤرخون بحكم (ملوكهم وأباطرتهم) فإذا أرادوا ذكر سنة وقع فيها حادث قالوا (في سنة كذا من حكم الإمبراطور فلان...) /١٧/. ناهيك عن أنه لا أسماء للشهور عندهم. فهل أبدا بتاريخهم الذي يتحدث عن ظهور خمسة أباطرة أسطوريين اعتبرهم الصينيون أنصاف آلهة وعبدوهم؟ /١٨/أم أبدا بأساطيرهم التي تقول: (إن الملوك الأقدمين حكم كل منهم ثمانية عشر ألف عام/١٩/؟ لذا.. لن أبدا بهذا ولابذاك بل سأورد بعض ما ذكره (جون كولر) في كتابه: الفكر الشرقي القديم) /٢٠/ إذ يقول: (على الرغم من أن هناك أدلة على وجود حضارة متقدمة في الصين فإن التاريخ الفعلي المسجل يبدأ بأسرة (شانج ـ **shang**) التي تلت أسرة (هيس) في القرن الرابع عشر (ق. م) ثم انتهت على يد أسرة (تشو ـ **shou**) الأكثر بدائية على الصعيدين الفني والثقافي وأقامت أطول أسرة ملكية في تاريخ الصين إذ استمرت من /١٠٢٨ـ٢٥٦/ ق. م /٢١/. ولقد كان شعب (تشو) قوياً جداً فغزا أجزاء كثيرة من الصين. ثم ساد النظام الإقطاعي لقاء تفويض

سلطات إدارية لزعماء القبائل النبلاء، فحصل كل تابع على امتياز يمنحه قدراً كافياً من الحرية والسلطة داخل الأراضي التي يحكمها لقاء حصول الملك على الضرائب والتجنيد. وبمرور الزمن تبين أن الملوك لا يستطيعون السيطرة على سائر الأراضي المفتوحة فبدأ ينقلب الحكام الإقطاعيون بعضهم على بعض. ولما أدرك الأقنان ضعف ملوكهم تمردوا عليهم فتحالف بعض الحكام الإقطاعيين عام /٧٧٠/ ق. م وشنوا هجوما على عاصمة (تشو) في الغرب فقتلوا الملك واغتصبوا السلطة وسيطروا على سائر البلاد، فساد الضعف والتآمر على الساحة السياسية وتغلبت النفعية على الأخلاقية، وعاشت الصين عصراً اتسم بالتفكك السياسي والاجتماعي والتردي الأخلاقي. خلال هذا العصر وجد كل من (لاوتسه وكونفوشيوس) إذ يعتبر عصرهما على وجه التقريب عصراً واحداً على الرغم من أن (لاوتسه) وجد قبل (كونفوشيوس) ويكبره بحوالي ستين سنة.

أما على الصعيد الفلسفي: فقد كان مبدأ (الين واليانغ) معروفاً في الصين قبل (لاوتسه) الذي التقاه (كونفوشيوس) في شبابه وكان عمره أربعاً وعشرين سنة وعمر (لاوتسه) أربعاً وثمانين سنة، حيث قدم (لكونفوشيوس) نصائح كثيرة ونعته (كونفوشيوس) بـ (التنين) /٢٢/. ومبدأ (**الين واليانغ**) يعتبر الإنسان مظهراً من مظاهر الروح شأن الحياة كلها لأن كل ما في العالم هو نتاج لإتحاد بينهما. **والين** هو المؤنث المنفعل السلبي عنصر الظلام والبرودة والموت ـ القمر. **واليانغ** هو المذكر الفعال الإيجابي. عنصر الضوء والحرارة والحياة ـ الشمس /٢٣/[1].

و عندما تتجسد هذه الروح في جسم بشري = (بأو) أما حين تكون غير متصلة وسابحة في الفضاء = (هون). وبعد الموت تستأنف هذه الـ (هون) تنقلها ولا تزعج الناس في الأحوال السوية، لكن إذا تخلى أحدهم عن دفن الميت وتقديم الضحايا له غدت الروح شبحاً طائفاً. ومن أجل هذا يقام في الصين في ٧/١٥ أي في منتصف الشهر السابع من كل سنة عيد الأرواح تقدم فيه الضحايا لأولئك الذين غرقوا أو ماتوا في أرض غريبة ولم يوارو الثرى. و(الين واليانغ) متعارضان وبحكم تعارضهما

---

(١) في هذه الفكرة سبق إلى مفهوم الكهربائية الإيجابية والسلبية في عصرنا الحاضر.

لا يستطيعان إنتاج نفسيهما من طبيعتهما ولا من تفاعل أحدهما مع الآخر، لذا فإن وجود مادة ثالثة لتفاعلهما أمر ضروري. من هذه الزاوية كان لـ (لاوتسه) إسهام يسجل له إذ استطاع أن يدرك (التاو = الدرب، السبيل، النهج، الطريق) باعتباره مصدراً لكل من (الين واليانغ) وأساساً للتفاعل بينهما. وأفلاطون يقول: لا شيء ينتج عن لا شيء فالكون في اعتقادي صادر عن مبدأين. أحدهما سام عاقل حكيم هو الله والثاني هو المادة المضطربة، لها نظمها ولكنها تمردت فخرج العالم مضطرباً ناقصاً طافحاً بالشر /٢٤/.

كتاب (لاوتسه)(تاو ـ تي ـ كنج) كتاب الطريقة والفضيلة. يعد (لاوتسه = المعلم العجوز) أعظم فلاسفة الصين قبل (كونفوشيوس) ويحدثنا المؤرخ الصيني (زوماتشين) ان (لاوتسه) عافت نفسه السياسيين ومل عمله في مكتبة (جو) الملكية فأعتزم أن يغادر الصين ويلتجئ إلى منزل بعيد في الريف. ولما وصل الحدود طلب منه الحارس (ين شي) أن يكتب له كتاباً، ففعل وكتب له كتاباً غامضاً صغير الحجم من جزأين يشتمل على خمسة ألاف كلمة. ولما أتم تأليفه اختفى ولم يعلم أحد أين مات /٢٥/. ويشك المؤرخون في صحة نسب هذا الكتاب لـ (لاوتسه) ولكن ما يهمنا نحن هو فحواه.

التاوية: استمدت التاوية إلهامها من القلق إزاء الأوضاع الاجتماعية السائدة في الصين آنذاك. و(التاو) كلمة موجودة قبل (لاوتسه) لكنه هو الذي استخدمها استخداماً (ميتا فيزيقياً) محضاً. وقيل أيضاً: (إن هناك من سبق (لاوتسه) وهو (ليونسو) الذي عاصر إبراهيم (ع) وأخذ عنه قوله: (أعتقد أن لهذا العالم خالقاً قادراً يتصف بالكمال لا أعرفه ولا أستطيع إطلاق اسم عليه /٢٦/. والحياة في نظر (لاوتسه) جزء من تناغم الكون. فما هي صورة (التاو) من خلال تجليات (لاوتسه) الشَطْحَويَّة؟ **التاو** مطلق أرضي حافظ للوجود /٢٧/ لا يتصرف كخالق (أي مادي لكن ليس بالمفهوم العادي للمادية الصرفة بل من حيث تجرده من صفات الألوهة أو التجريدية البحتة التي تميز بها (أفلاطون)/٢٨/.

التــاو[1]: يحـرك ويتحـرك. والمتحـرك عنـد الفلاسـفة متغير بالـضرورة نتيجـة لحركتيه ولكن (التاو) عند (لاوتسه) ليس كذلك ف (التاو) يتحرك مع الأشياء في تطورها كلها من غير أن يلحقه ما يلحقها من فناء لأنه لا متناهي. أزلي أبدي غير مخلوق. السماء والأرض من تجلياته وإن كانتا غير مخلوقتين له. و(لاوتسه) ينفي عن السماء والأرض صفة التولد من عدم أو من شيء فهما أزليتان أبديتان.

و(التاو) يشكل الواحدية التي هي أساس التنوع والتعدد في العالم /٢٩/ بلا سمات ولا خواص. كائن وغير كائن. كائن إذا أشرنا إلى فعله وغير كائن إذا أشرنا إلى جوهره. وكان (لاوتسه) يضيف كلمة (العظيم) إلى (التاو) حتى لا يختلط معناه الذي ذكرناه بمعنى (النهج المتعارف عليه) ومن يقرأ كتاب (لاوتسه) (تاو ـ ته ـ كنج) يقرأ تعريفا (للتاو): (التاو كالإناء قد يبدو فارغاً لكن يمكن أن تنضح منه ما شئت من الماء إلى مالا نهاية لأنه ليس بحاجة إلى ملء، عن طريقه تُحَلُّ أعقد المشكلات. يشع منه نور سماوي يخطف الأبصار يُحوِّل المركب إلى بسيط غير معقد، هو ساكن كالسرمد.. لم يولد /٣٠/.

صفات الإنسان التاوي:

نابذ للعقل غير مفكر لأن التفكير عارض سطحي لا يؤدي سوى إلى الجدل ويضر الحياة أكثر مما ينفعها. والمفكر خطر على الدوام لأنه لا يفكر إلا في الأنظمة والقوانين، الإنسان التاوي ساذج متواضع منعزل متأمل في الطبيعة متقشف قنوع بعيد عن الشهوات غير متعلم لأن الفلاسفة لم يتكاثروا إلا بعد انتشار العلم. يقول: (إن الطبيعة قديماً جعلت حياة الإنسان بسيطة آمنة فكان العالم هانئاً سعيداً

---

(١) التاوية لا تقول إن الجبل إما ثابت وإما متحرك أو لكونه غير متحرك فهو ثابت لأن الحركة والثبات حالتان نسبيتان، إذ ليس هناك متحرك مطلق ولا ثابت مطلق. (المستطرف الصيني. هادي العلوي ص/١٠٣/ وإذا كان الأبيض عند أرسطو ضد الأسود فإنهما في المنطلق التاوي شيء واحد. إن قانون التحول من ضد إلى ضد هو اصل المنطلق التاوي، فالموت يأتي بالحياة والحياة تاتي بالموت، ووجود أحدهما يستدعى وجود الآخر بدلاً من أن يلغيه أو ينفيه حسب قانون (أرسطو).

ثم حصل الناس على المعرفة فعقدوا الحياة بالمخترعات وخسروا كل طهارتهم الذهنية والخلقيَّة وانتقلوا من الحقول إلى المدن. ولما ألفوا الكتب شقي الناس وبكى الفلاسفة إن العاقل هو من ينبذ العيش الحضري ويبقى في أحضان الطبيعة الهادئة بعيدا عن المدنية والموظفين المرتشين). إن السعادة الأبدية هي الطاعة العمياء لقوانين الطبيعة. كما أن على (التاوي) أن يكون صبوراً ساكناً لأن المرء ينال بالصبر والسكون أكثر مما ينال بالعمل[1]. يقول (لاوتسه): (إذا لم تقاتل أحداً لم يقاتلك أحد. قابل الإساءة بالإحسان. أنا خير مع الأخيار والأشرار وبذا يصبح الجميع أخياراً. أنا مخلص مع الطيبين وغير الطيبين وبذا يصبح الجميع طيبين[2]. قابل الكراهية بالمحبة[3]، إن أَلْيَنَ الأشياء في العالم تصدم أصلبها وتتغلب عليها، فليس في العالم شيء ألين وأضعف من الماء لكن لا شيء أقوى منها فاعلية /٣١/. إن خلاصة الحكمة تتجلى في (التاو) الذي هو الطريق الطبيعي إلى الحرية.

صفات الحاكم التاوي: المجتمع التاوي مجتمع يتولاه حكيم يقود ولا يحكم ولا سلطة في هذا المجتمع لأحد على أحد لأنه مجتمع تنعدم فيه الممتلكات الشخصية ومظاهر الدولة والقوانين والحروب. إن شر الحكومات في نظر (لاوتسه) هي حكومة الفلاسفة[4] لأن همهم هو إقحام النظريات في كل نظام طبيعي، ودليل عجزهم عن العمل هو إلقاؤهم الخطب والإكثار من الآراء، لكن إذا تولى البسطاء

---

(١) تقترن التاوية بفلسفة اللا فعل أي بالسلب المطلق، فالحركة أم (التاو) لكن ليست هي الفعل. والحكيم التاوي لا يفعل وإنما يتحرك وينجز الأشياء ثم ينسحب بعد إنجازها. إن السلب التاوي أساس الحركة، وثمة فرق دقيق بين الحركة والفعل. انظر المستطرف الصيني. هادي العلوي ص/٦٧/.

(٢) نلحظ في هذه الفقرة سبقاً لأفكار السيد المسيح (ع) بأكثر من ستة قرون. يقول السيد المسيح: (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر). ويقول أيضاً: (أحبوا أعداكم باركوا لاعنيكم... أحسنوا إلى من أساء إليكم).

(٣) قد لا نكون مع كونفوشيوس في طروحاته لأنه (إذا تساوت المكافآت... تساوت الكفاءات).

(٤) هذا بعكس ما كان يرى أفلاطون إذ يقول (لن تزول تعاسة الدول أو شقاء النوع الإنساني ما لم يحكم الفلاسفة أو يتفلسف الحكام.

الحكم فإنهم يبعدون الأمة عن الخداع ويقودونها نحو البساطة. لقد رأى (لاوتسه) أنه كلما ازدادت الشرائع والقوانين ازداد عدد اللصوص. كما طلب من (التاوي) أن لا يصلح أمور الدولة إذا وجد بها خللاً وقد طلب أيضاً من الحاكم أن لا يتدخل فيما لا يعنيه من أمور الناس وأن يتجنب الحروب ويلجأ إلى السلام ويحتقر الثروة ويسير بشعبه إلى البساطة والإنسجام مع (التاو) /٣٢/. وطلب من الحاكم أن لا يعالج الأمور بخشونة وقسوة لأن المبالغة في المعالجة تفسدها. كما طالب بإرضاء الناس ونبذ الجشع لتفادي الحروب وعدم تمادي الحكام في الجور والطغيان، لأن ذلك يدفع الرعايا لإيثار الموت على الحياة. وعزا أسباب الفقر والجوع كلها إلى الحكام السيئين. إن على الحاكم (اللاوتسي)أن يكون مسالماً أكثر منه محارباً لكنه لم يمانع من استخدام القوة في حالة الدفاع ضد معتد لم تجد معه وسائل الإقناع لإحلال السلم. وإذا نشبت الحرب فعلى المرء أن ينتحب ويبدي أسفه وإذا قيض لبلده النصر فيجب أن يقيم الحداد على ضحاياه /٣٣/[1].

ويمكن أن نلخص أكثر أفكار التاوية فيما يلي: الناس دائماً تسعى لتحقيق رغباتها فيحدث بينهم الصراع والتنافس، ولمنع ذلك توضع قوانين أو معايير للاستقامة، لكن وضع هذه المعايير لا يحل المشكلة، فتوضع معايير جديدة لحماية المعايير القديمة، فتنتهك المعايير القديمة والجديدة وتبقى الرغبات دونما إشباع لأن التوصل إلى معايير أخلاقية لا يحل المشكلة. إن الحل يكمن في التخلي عن هذه المعايير. والتخلي عن الرغبات لا يكمن إلا عندما يتبنى الناس الطريق السهل للعقل، والطريق السهل.. يفترض التناغم مع الكون وفقاً لـ (تاو) الكوني الشامل الذي ينظم المجتمع ويحكم الناس بالطريق الطبيعي السهل. وعندما يعود (التاو) العظيم لا يبقى نزاع ولا نقاش لأن (التاو) عمل دائم على الدوام بلا رغبات ولا شهوات /٣٤/. لقد ظهرت التاوية كوحدة صوفية (انطولوجية) مع الكون /٣٥/ على يد (لاوتسه)، لكن بعد (لاوتسه) غدت كدين محرف عن فلسفة (التاو) وذلك ضد الشعائر

---

(١) يمكن أن نشتم من هذه الجملة وجوب الحفاظ على الأسرى.. ومن ثم انبثاق معاهدات مستقبلية لحمايتهم.

الكونفوشيوسية ثم امتلأت بالخرافات والعبادات والمخلوقات الخرافية /٣٦/ حيث تحولت فيها كثير من العادات إلى عبادات، فعافت الطبقة المستنيرة مبادئها ثم عادت (الكونفوشيوسية) لتنتشر من جديد على شكل أشد مما بدأت لبساطة مبادئها واعتمادها على الحياتي والعلاقات العامة لا على (التاو) الذي عليك أن تتماهى في الطبيعة حتى تتماهى الطبيعة فيك.

تعاليم كونفوشيوس

شعر جندي بلغ من الكبر عتياً من أسرة (شانتونج) بدنو أجله فحزن لعدم وجود ولد له وكانت الطقوس الجنائزية آنذاك كما يقول (أحمد الشنتاوي) في كتابه (الحكماء الثلاثة) /٣٧/ لا يتم على الوجه الأكمل إلا إذا كان للمتوفى ولد له يقوم بهذه الطقوس. وكان لهذا العجوز البالغ من العمر سبعين عاماً تسع بنات وولدان من إحدى المحظيات. لكنه أراد أن يكون له ابن شرعي تعترف به الجماعة فنشد الزواج من أسرة (ين) التي تماثل أسرته شرفاً وطلب من رب الأسرة إحدى بناته فكانت أصغرهن من نصيبه فتزوجها وحملت له بعد سنة غلاماً وكان عمرها ثمانية وعشرين عاماً وعمره حوالي واحد وسبعين عاماً هذا الغلام هو (كونغ ـ فو ـ تزه = كونفوشيوس)[1]. توفي والده وعمره ثلاث سنوات فأشرفت والدته على تربيته. ولما بلغ من العمر سبعة عشر عاماً اشتغل موظفاً بسيطاً في مستودع. ولمعرفته بشعائر (تجوو) أوفده (تجاو) أمير دويله (لو) إلى بلاط (تجوو) لتعلم الشعائر من المؤرخ الملكي هناك. تزوج وعمره تسعة عشر عاماً. ولمكانته المرموقة أرسل له حاكم ولاية (لو) الصغيرة ـ عندما كان يحتفل بمولد ابنه ـ سمكتين من نوع الشبوط، ليكونا على مائدة (كونفوشيوس) فأطلق على ولده اسم (لي) نسبة إلى سمك الشيوط ولما بلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً بدأ يعلم الناس الحكمة، ثم طلّق زوجته وعمره

---

(١) كانوا قديما يسمون الطفل بأول عمل يقوم به أو بسكنه عند بقعة متميزة. ويقال إن اسمه (كن) ـ التل الصغير و(زارادشت) سمي هكذا ومعناها (معذب الجمل) لأنه كان يعذب الحيوانات. ومن أسماء (كونفوشيوس) (شنج ني) (تشو ـ تشونج ـ ني) (كونج ـ تشيه)... الخ.

ثلاثة وعشرون عاماً ولم يتزوج بعدها أبداً وقد يكون سبب الطلاق هو حزنه على وفاة والدته. إذ كانت العادة في الصين أن يعتزل الشاب الحياة عند وفاة أحد والديه. وظل شهوراً يتردد على قبر والدته يتأمل الحياة والموت وبقي على ذلك أكثر من سنتين وربما يكون (كونفوشيوس) قد شعر بأنه أهمل أمه أيام زواجه فأحس بالذنب وسلك ذلك تكفيراً لذنبه. وكان لتركه (زوجته ووظيفته وحزنه على أمه) أثر كبير في نفسه. فهب يعظ الناس وينشر تعاليمه. وقد عين في سنة /٥٠٠/ ق. م قاضياً بولاية (لو) مسقط رأسه فأظهر قدرة فائقة وعدلاً مطلقاً إذ أسند إليه فيما نسميه اليوم وزير الأشغال) ثم (وزير العدل) فاحترم القانون في عهده إذ كان هم الحكومة الأكبر ـ قبل تسليمه منصبه جمع الضرائب، وبقي في منصبه أربع سنوات. وعندما بدأ السلام والأمان يلف ولايته (لو) بدأ الحسد يأكل حكام الولايات المجاورة لـ (لو) فاستطاعوا التفريق بينه وبين دوق (لو) إذ أرسلوا إليه تسع بنات في غاية الجمال يتقنّ الرقص والغناء وجميع فنون المجون والخلاعة لمعرفة أعدائه بما يميل إليه قلب دوق (لو) فابتهج بالهدية وانصرف عن مشاريع (كونفوشيوس) الإصلاحية. حاول (كونفوشيوس) أن يقابل الدوق مراراً لينتشله مما وقع فيه فلم يتمكن من رؤيته على الرغم من أنه (وزير عدله) فتهدم ما بناه في السنوات الأربع واعتزل (كونفوشيوس) دوق (لو) وجاب البلاد بحثاً عن حاكم عادل فاضل يستطيع أن يساعده على نشر مبادئه فلم يجد. واسم (كونفوشيوس = السيد المعلم). هو صياغة لاتينية صاغها(الجوزويت الطليان = القساوسة اليسسوعيون) الذين كانوا يعيشون في الصين في القرن السادس عشر الميلادي /٣٩/ وهم الذين أوصوا البابا في روما أن يدرج اسمه في قائمة قديسي الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. وقد يجد الباحث صعوبة في التعرف على حقيقة هذه الشخصية على الرغم من أن ما كتب عنها يفوق ما كتب عن (لاوتسه) مولداً وحياة وتعاليم. إذ إن سائر العظام القدماء لهم سيرتان. سيرة موثقة يمكن الاعتماد عليها ـ إذ وثقت بأمانة علمية، وأخرى شعبية. وهذه السيرة كالموجة العرضية تبتعد عن الحقيقة كلما ابتعدت عن مركز دائرتها لأن العامة ينسبون لمن يحبون ـ أو لمن يكرهون ـ أحاديث ما أنزل الله بها من سلطان. وبذلك يخرجون الشخصية المتحدث عنها من الاطار

الإنساني ويدخلونها في فلك (الأسطورة = الميثولوجيا).

لـذا لـن أتحـدث عـن المعجـزات الـتي ظهـرت قبـل ولادة (كونفوشـيوس) كمـا يزعمون[1]. ولد (كونفوشيوس) عام /٥٥١ـ٤٧٩/ ق. م وتوفي عن عمر يناهز /٧٢/ عاماً ولقد ظهر في الوقت الذي ظهر فيه حزقيال ودانيال أنبياء اللّه في فلسطين، والمشرع صولون والفيلسوف (فيثاغورث) في اليونان، و(بوذا) في الهند /٤٠/ وإذا تذكرنا أن (زارادشت الفارسي) المولود في أذربيجان، قد رافقه ظهور (عاموس وأشعيا) أنبياء اللّه في فلسطين أيضاً تبادر إلى ذهننا أمران اثنان: أـ ما قاله (فارنجتون): (إذا ظهر المفكر في الغرب كان فيلسوفاً وإذا ظهر في الشرق كان نبياً).

ب ـ ما قاله. د. أحمد شبلي في كتابه مقارنة بين الأديان إذ يقول: (يعتبر القرن السادس ق. م من أجدر عصور التاريخ بالملاحظة ففي كل مكان كانت عقول الناس تظهر جرأة جديدة، وفي كل مكان كان الناس يستعيظون مما ران عليهم من تقاليد الأباطرة والكهان والعرافين ويسألون أشد الأسئلة عمقاً ونفاذاً وكأنما العقل البشري قد بلغ مرحلة من الرشد بعد طفولة دامت عشرين ألف سنة). فهل كان (كونفوشيوس) نبياً أم حكيماً أم فيلسوفاً؟.

بإمكاننا الإجابة على هذا السؤال ــ توثيقاً لا ترجيحاً ــ قائلين: (إن (كونفوشيوس) لم تكن له صفة نبوة ولا قداسة ولا أي شيء يتعلق بالإله أو اللاهوت. بعدها سواء اعتبرناه فيلسوفاً أم حكيماً فالأمر يكاد يكون سيان لأن كلمة الفلسفة من (فولوسوفوس) اليونانية وتعنى(حب الحكمة). ولقد طالب (كونفوشيوس) كما طالب (أفلاطون) من بعده بوجوب إيجاد طريقة أخلاقية مكينة دائمة منفصلة عن اللاهوت /٤١/. لقد اطلع (كونفوشيوس) على كتب الأقدمين ــ صنفها، شذبها، هذبها، بوبها ــ وبعد أن استخدمها لتثقيف مريديه قدمها لمن جاء من بعده، وهو القائل عن نفسه (أنا أنقل من كتب الأقدمين أكثر من كوني مبدعاً) /٤٢/.

---

(١) يقال أن ملَكَاً تجلّى لآمة وقال لها سيكون ابنك أعقل الناس.....الخ. انظر كتاب الحكماء الثلاثة. أحمد الشنتاوي /١٢٠/.

والكتب الخمسة هي: الأغاني، التاريخ، الطقوس، حوليات الربيع والخريف، التغيرات /٤٣/[1]. وإذا نُسِبَ إلى (كونفوشيوس) أنه خاطب الله عز وجل قائلاً (أنت بالحق خالق السماء وخالق كل شيء) /٤٤/ فإن أتباعه هم الذين أضافوا إلى مذهبه البحوث الإلهية /٤٥/ إذ لا نجد في تعاليمه ما يشير إلى أماكن للعبادة ولا إلى طقوس أو شعائر ينظر على أنها من شعائر الدين. كما أنه لم يُشِرْ في تعاليمه إلى إله خاص بل كان ينصح مريديه بالابتعاد عن التفكير في ما وراء الطبيعة /٤٦/ وصرف النظر عن الميتافيزيقيات والغيبيات /٤٧/ حتى أنه نصحهم أن لا يفكروا في الموت إذ لما سأله أحد مريديه عن مغزى الموت ـ قال له (أنت لا تستطيع فهم الحياة فكيف تستطيع فهم الموت)؟.

كما تحسر كثيراً لأن السماء ـ كما يرى ـ لا يعتمد عليها بدليل أن الأشرار يزدادون رفاهية ولا تسفر جهود الأخيار إلا إلى العدم ويزداد الفقير فقراً والغني

---

(١) ❖الأغاني: (شي كنج) مجموعة أناشيد وأشعار دينية حوالي /٣٠٠-٣٠٥/ مقطعة صغيرة تعود إلى أسرة (تشو).

❖التاريخ: (شو كنج) ـ الوثائق التاريخية. وهي عدد من البلاغات والتوجهيات والتصريحات والتعابير التي يقال: إن حكاماً عديدين ووزراءهم قد ألقوها ابتداء من الإمبراطورين الأسطوريين و(شور) وهي إلقاء خطب على الجنود قبيل خوض المعركة ويضم /٥٨/ قطعة كما يضم أقدم الوثائق التاريخية الصينية وأقدم أساليب الكتابة الصينية، كما تحتوى على منابع الحكمة التي استخدمها (كونفوشيوس) في تعاليمه. المستطرف الصيني، هادي العلوي ص/٤١/

❖الطقوس: (لي ـ كي ـ كنج) ـ الشعائر والطقوس القديمة أو المراسم وهي مجموعة لتنظيم السلوك الاجتماعي ولها ملحق خاص (بالموسيقا) قصة الحضارة، ول ديورانت ج /٢/ ص/٤٩/.

❖حوليات الربيع والخريف: (شن ـ شو ـ كنج) (سجل مختصر وخبر لأحداث مملكة (لو) من /٧٢٢/ وحتى /٤٨١/ ق. م.

❖ التغيرات: (ي ـ كنج) أو قانون التغير وهو مرجع صيني صغير به مفاتيح وتأويل نتائج. وهذا ضرب من الكهانة يتكون من /٨/ متواليات ترمز إلى العناصر الثمانية الأساسية عند قدماء الصين: السماء/الرعد/الرياح/النار/الماء/الجبال/المستنقعات/. للمزيد راجع حكمة الصين، فؤاد محمد شبل ص/٤٦/.

غنى)[1] /٤٨/ ناهيك عن أنه لا توجد في اللغة الصينية مفردة دالة على الرب بالقطع بل هناك كلمة (شن) بالفتح التي يختلط فيها معنى الرب بمعنى الملاك، ويقابلها (كوي = الشيطان) /٤٩/. ولئن ركزت البوذية في تعاليمها على(أهمسا = اللا أذى) فإن (كونفوشيوس) قد ركز على فكرة الأخلاق الشخصية معتبراً أن (الدين هو المعاملة) وأن معاملة الناس فيما بينهم يجب أن تكون أسمى من معاملة الحكومة لرعاياها. فالحكومة إذا تغاضت عمن يسيء إلى البلاد وعن القائمين بالحكم فإن ذلك سيقود إلى الفوضى وسوء الحال أما إذا حاسبتهم على أعمالهم حساباً عادلاً فإن الأمور تستقيم، لأن الإنسان مسؤول عما كسبت يداه. لقد فتحت الكونفوشيوسية المجرى الثاني للفلسفة الصينية بعد (تاوية)(لاوتسه) ثم طغت عليها فصارت هي/٥٠/ الأُوْلى والأَوْلى بفضل بساطتها وشعبيتها وواقعيتها التي حَدَّتْ من طوباوية (لاوتسه) إذ جعلت الكونفوشيوسية التعليم لُبَّها وذلك من أجل اختيار وتوفير كوادر متعلمة لإدارة الدولة بأسلوب متحضر.

المجتمع الكونفوشيوسي[2] مجتمع أبوي منغلق قاس على المرأة إذ أن عليها أن تخضع للرجل خضوعاً مطلقاً كما أن على الأبناء الخضوع للآباء وعلى الأخوات الإناث الخضوع إلى الإخوة الذكور وعلى الصغار أن يخضعوا أيضاً للكبار/٥١/.

---

(١) وهناك أربعة كتب يقال إنها تثبيت للمحاضرات التي دارت بين (كونفوشيوس) ومعاصريه وهي باسم (شو).

(١) (تاهيسو) ـ المعرفة الكبرى ـ عبارة عن منهج قديم لتقويم الأخلاق والبحث عن الفضيلة.

(٢) (شونغ ـ يونغ) ـ منهج الوسيلة الوسطى. إرشادات في الاعتدال وعفة النفس والتوسط في الأمور.

(٣) (لون بو) ـ المنتجات أو المختارات ـ مجموعة حكم وأمثال كونفوشيوس وهو أكثر الكتب ذيوعا وانتشاراً وبخاصة بين الأجانب.

(٤) (منغ تسي) ـ مجوعة من الشروح التي قام بها كبار الشراح لمصنفات (كونفوشيوس) و(منشيوس) هو مريد له حمل أفكاره بعد /١٠٠/ مئة سنة. راجع الحكماء الثلاثة. أحمد الشنتاوي ص/١٤٢/.

(٢) كان يرى أن القوانين تمر بقنوات ثلاث:

١. السماء: هي التي تشرع القوانين ـ بمثابة السلطة التشريعية.

أهم صفات كونفوشيوس: كان يعلم تلاميذه كسقراط شفاهاً. متمسك بالعادات والتقاليد إلى حد الحرفية. لا يشرب اللبن لأنه في نظره من حق الحيوانات الصغيرة الرضيعة. لا يلبس الحرير، ولما سئل عن السبب قال: (أنا لا أسمح لنفسي أن أقتل دودة القز لأستولي على نسيجها الخاص وأصنع منه رداء). كما كان ذواقة محباً للشعر وموسيقياً بارعاً يطرب للغناء إذا أعجبه لحن شارك فيه مع مؤديه. وكان يعزف قبل أن يعلم تلاميذه لإيمانه بأن الموسيقا تفتح الأذهان معتبراً أن الخير شديد الصلة بالموسيقا /٥٢/.

ولما سئل عن رأيه فيمن يجب أن يضع قوانين للصين أجاب: (هذا لا يهم ما دامت أصنع أغانيها أنا).

صفات الإنسان الكونفوشيوسي: حكيم إذا فهم الناس وفضيل إذا أحبهم، يضيء شمعة خير من أن يلعن الظلام. يؤمن أن راحة الضمير هي أعظم الهبات جميعا، لا يعمل لمصلحته الشخصية حتى لا يورث الحقد عليه. ينجز للناس ما هو حري بإنجازه لنفسه.

قال: (كونفوشيوس): (لا تفعل بالآخرين ما يجب ألا يفعله بك الآخرون)[1]. الكونفوشيوسي أصدقاؤه أكفاء له لا يتقاتل مع أحد في صباه ولا يمارس الجنس في فتوته ولا يتملك في شيخوخته، لأن (الصبي طائش والفتي فحل والكهل شحيح). يعيش في انسجام مع طبيعته الخيرة التي وهبت له والتي تجعله مساوياً للسماء. إذا عرف شيئاً قال أنا أعرف وإذا لم يعرف سلم بعدم المعرفة لأن الإقرار بعدم المعرفة هو معرفة بحد ذاته. ألم يقل (سقراط) من بعده(الآن عرفت أني لا أعرف شيئاً)؟ إن نفي المعرفة هذا لهو معرفة بحد ذاته. إذ ما أجمل عندما نُسْأَل عن شيء ولا نعرفه أن نجيب قائلين (لا نعرف). لأن نصف العلم لا أعلم وخزائن العلم مفتاحها السؤال.

صفات الحاكم الكونفوشيوسي: على الحاكم الكونفوشيوسي أن يكون أكفأ من سائر الرعية نبلاً وعلماً وعلى وزيره أن لا يخدعه بل عليه أن يعارضه إذا اقتضت

---

٢. الحكومة: تتلقى القوانين وتنفذها ـ بمثابة السلطة التنفذية.

٣. الشعب: هو الذي تطبق عليه هذه القوانين.

(١) هذه الجملة أيضاً رددها السيد المسيح بعد /٦/ قرون تقريباً.

الضرورة في سبيل المصلحة العامة، وإن لم يفعل ذلك فهذا كفيل بتدمير الدولة /٥٣/. كما أن عليه أن لا يستعمل القمع السلطوي لإقرار الأمن والنظام وإذا فعل ذلك فقد يُنَفِّذُ الناس القرارات خوفاً من العقوبة لا احتراماً له.

لكن إذا قادهم بالفضيلة فسيرتبط الناس به برباط معنوي ويقوِّم الجميع أنفسهم بأنفسهم ويصلح الجميع ذواتهم طواعية منهم، وهذا عامل هام في بناء الإنسان من الداخل[1]. لقد خاطب (كونفوشيوس) الحاكم قائلاً: (أنت هنا لتحكم لا لتقتل). وعلى الحاكم أن يؤمن بأن قوة الدولة في ثقافة الرعية، ومن أجل هذا عليه أن يثقف الرعية ويهذبها. والرعية في نظر (كونفوشيوس) لا تغدو خيِّرة إلا إذا كان الحاكم خيّراً. وعلى الحاكم أن يمارس الفضائل قولاً وعملاً، تنظيراً وممارسة، فإذا امتنع عن أي عمل سلبي فلن يجرؤ أحد على أن يقوم بارتكابه، وإذا تمسك بالحق سارت الأمور على ما يرام حتى دون أن يحتاج إلى إصدار أوامر. من هذه الزاوية نرى أن الكونفوشيوسية تقر بأن (الأكثر مواطنية هو الأكثر تمسكاً بالقانون). ولقد طلب (كونفوشيوس) من الرعية الطاعة العمياء غير المشروطة للحاكم لقاء تحميل الحاكم تبعات الفساد والأخطاء إذا بدرت من الرعية، لأن الرعية تعيش بين حق لها وواجب عليها، فإذا أدت الرعية كل الواجبات حق لها أن تحصل على سائر الحقوق. إن على الحاكم أن يحرر نفسه من الرغبات والشهوات، وأن يحرر شعبه من ذلك أيضاً. ولما سأله الحاكم ماذا سيفعل إذا داهم اللصوص بيته أجاب (إذا حررتهم من الرغبات فلن يسرقوا). كما أن على الحاكم أن لا يقود الناس إلى ميادين القتال من دون أن يتعلموا فنون الحروب لأن هذا يعني القضاء عليهم. إن الحاكم الظالم في نظره أخطر من الوحوش المفترسة. إذ لما رأى امرأة تصرخ سألها عن السبب... فقالت: (لقد قتل نمر مفترس في هذه البقعة والدي وزوجي ومن بعدهما ولدي فاستنكر عليها سكنها في هذه البقعة الموحشة، فقالت له: أعيش هنا لأنه لا يوجد حاكم ظالم. فقال لتلاميذه اكتبوا : (**الحاكم الظالم أخطر من الوحش المفترس**). ولقد طالب أن يكون كل فرد في مكانه الصحيح ويقوم بواجبه على الوجه الأكمل يقول: (توجد

---

(١) **عندما أطيع القانون أكون حراً إذ أنني لا أطيع إلا نفسي. هذا ما أكد عليه (جان جاك روسو).**

الحكومة الصالحة حيث يوجد الأمير أميراً والوزير وزيراً والأب أباً والابن ابناً). وقبل أن أنهي حديثي سأورد سريعاً أهم الأمور التي طالب كونفوشيوس بتطبيقها. **وذلك بعد أن حدد مواصفات الحاكم:**

١ ـ الجين: (**GEN**) ومعناها حب البشر أو طيبة القلب الإنسانية أو أن تكون خيراً إلى حد أقصى. وهو المبدأ المطلق لأي فعل إنساني وسر الكونفوشيوسية الذي يجعل الإنسان يتمسك بالحق والقانون ولا يحيا على حساب ضرر الآخرين و((**te**)) هي القوة التي تبلغ بها هذه القداسة، وإذا كان كل إنسان يكره الفقر وضِعَةَ المرتبة ويسعى إلى الثروة والرفعة فعليه أن يرفض ذلك إذا كان هذا لا يتم إلا عن طريق مخالف لمبادىء الأخلاق أو عن طريق جعل الناس مطية للوصول. (نقيض الميكيافلية تماماً) إن الإنسان السامي السوي لا يتخلى عن "الجين" من أجل وجبة طعام واحدة ولو كان في أسوأ حالاته. يقول: (إن الحياة بغير الجين غير جديرة بأن تعاش).

٢ ـ لي (**LI**) وأساسه الجين ومعناه (السلوك الشخصي القويم في الآداب العامة والتمسك بالسائد السفلي المألوف واتباعه اتباعا يحل محل القانون المكتوب)[١].

وهو تمسك إيجابي غير سلبي لا يجلب معه العقاب لأنه أمر لا نهي. أمر بمعنى افعل كذا.. بدلاً من أن يقال: لا تفعل كذا. وعلى الرغم من أن حرفية الاتباع تستبعد مضمونية الإبداع فإن كونفوشيوس آثر التمسك بـ (لي) أي باللباقة العامة وآداب المجتمع المتعارف عليها من عادات وتقاليد ومراسم وعلاقات من خلال ممارستها عبر العصور. يقول (كونفوشيوس): (إن من يحرز "لي" يعش ومن يفقدها يموت).

٣ ـ هسياو (**HISIAO**) ولاء الأبناء للآباء والأسلاف، ولقد أكد(كونفوشيوس) على أهمية العائلة في تطوير (جين) لأن العائلة تشكل البنية الاجتماعية للطفل وعلى الأبن احترام وبر أبويه اللذين تتشكل الحياة منهما وتصدر عنهما، كما أن على الطفل أن لا يجلب العار لهما. وإن احترامهما لهو أهم من تقديم القرابين لروحيهما. و(هسياو) ليست فضيلة عائلية فقط بل يجب أن تؤثر خارج المحيط العائلي لتصبح

---

(١) يقول شيلدون تشيني في كتابه تاريخ المسرح ج /١/ ص/١٧٨/ الصين بلاد شاسعة بطيئة جداً فلا تبتلع فناً أجنبياً بلقمة واحدة.

فضيلة اجتماعية. إذ عن طريق العائلة يتعلق الطفل باحترام الآخرين وحبهم وذلك عن طريق حبه لأبويه وإخوته وأقاربه. وعندما يوحّد حب الإنسانية أفعال البشر ساعتئذ سيتصرفون طبقاً لإنسانيتهم. إن بداية (جين) تنطلق من (هسياو).

يي ـ : YI الاستقامة وهي جوهر كل الأشياء التي تجعل الإنسان غَيْرِيًّاً لا يَتَشَخْصَن بل إنسان يَتَجَمْعَن ليَتَرَوْحَن. **بمعنى أخر:** هي الاستعداد الأخلاقي للقيام بالسلوك السوي تجاه الماحول دون الانطلاق من منظور ضيق نفعي شخصي، لأن السويّ بإمكانه أن يضحي بحياته في سبيل الآخرين لا لشيء سوى أن ما يقوم به نابع من منظور أخلاقي حقّاني. إن (يي) هي منبع كل فعل أخلاقي سليم.

مقارنة بين التاوية والكونفوشيوسية

يقول (ليون تانغ) /٥٥/ (إن الكونفوشيوسية تقف وقفة تعارض مع التاوية وكأنهما تمثلان السلبية والإيجابية).

التاوية	الكونفوشيوسية
ـ التاو مصدر كل شيء	**ـ الإنسان مصدر كل شيء**
ـ لا قانون ولا طقوس ولا فعل	**ـ تمسك بالقانون وطقوس**
ـ ولا عمل بل صمت مطبق وبساطة	**ـ مرهقة تؤطر المجتمع وتنظمه وهي فعل وعمل دائمان وإضفاء الواعز الأخلاقي على الكثير من الممارسات الدينية المبكرة.**
ـ نبذ العلم لأن سعادة المرء في عدم التفكير	**ـ تعليم الخاصة وسعادة الإنسان في المعرفة**
ـ معاملة الأخيار والأشرار معاملة واحدة	**ـ شريعة العين بالعين والسن بالسن**
ـ الحاكم يقود ولا يحكم	**ـ الحاكم يحكم وسلطة ولا سلطة لواحد على الأخر النظم الاجتماعية فوق الجميع**
ـ عدم نقد الحكومة	**ـ إيجاد طبقة تسير في منهجيين في آن معاً** **١ـ نقد الحكومة ٢ـ تنوير الشعب**

ولئن كانت التاوية شبْحاً في الميثوس فإن (الكونفوشيوسية) هي نقلة نوعية نحو (اللوغوس). **وأختم كلامي ببعض أقوال كونفوشيوس:**

١ ـ من السهولة خدمة المتفوق ومن الصعب إرضاؤه، ومن الصعب خدمة الوضيع ومن السهل إرضاؤه.

٢ ـ لست أبالي إذا لم أشغل منصباً كبيراً وإنما الذي يهمني هو أن أجعل نفسي جديراً بالمنصب الذي أنا فيه. ولا يهمني إذا لم يعرفني الناس ولكني سأعمل حتى أكون خليقاً بأن يعرفني الناس.

٣ ـ إذ بلغ المرء الأربعين ولم يسمع عنه شيء فلن يكون جديراً بالاهتمام.

٤ ـ إذا فسدت الأخلاق فسدت الأمة معها.

٥ ـ إذا أخطأت أخذ الخوف بمجامع قلبي ولو كان خصمي لا يأبه لخطئي. وإذا كنت على حق فسأمضي له حتى لو وقفت أمام جيش بحاله.

٦ ـ لما سئل عن الصفات التي يجب أن تتوفر في الحاكم الناجح فأجاب بجمل ثلاث: أ ـ أن يوفر السلاح لشعبه المحارب.

ب ـ أن يؤمن له لقمة العيش.

ج ـ أن يثق به الشعب. قالوا: وإذا أردنا أن نلغي واحدة يا كونفوشيوس قال: السلاح. قالوا: وإذا أردنا أن نلغى اثنتين قال لقمة العيش، لأن كرامة الشعب أهم من طعام الدنيا أما من دون ثقة الشعب بالحاكم فلا يمكن أن يتحقق النجاح.

المصادر والمراجع

١ ـ قصة الحضارة. ول ديورانت. ص/٩/ ج/٤/ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم جامعة الدول العربية.

٢ ـ المصدر نفسه ص/١٠/.

٣ ـ المعتقدات الدينية لدى الشعوب. جيفري بارندر ص/٢٦٧/ سلسلة عالم المعرفة. الكويت /١٣٧/ ويضيف. ول ديورانت. في كتابه قصة الحضارة ج/٤/ ما يلي: ولقد سمى الصينيون بلادهم (تيان هوا ـ تحت السماء) (زهاي بين ـ البحار الأربعة)(جونح جو ـ الدولة الوسطى).

٤ ـ الفكر الشرقي القديم. جون كولر ص/٣٢٥/ سلسة عالم المعرفة الكويت /١٩٩/.

٥ ـ قصة الحضارة. ول ديورانت. ج/٤/ ص/٧/.

٦ ـ تزيد مساحتها على عشرة ملايين كم[٢].

٧ ـ وكان على ذلك عام /٢١٣/ ق. م في عهد الإمبراطور الطاغية (شين ـ شيه ـ هوانج) الذي أحرق الكتب الكونفوشيوسية ودفن مئات من العلماء الكونفوشيوسين أحياء وعاقب بالموت كل صبي يحمل أفكاراً ثورية وعاقب بالأشغال الشاقة كل مخالف له. يقول إن اسمه (شي ـ هوانج ـ تي).

٨ ـ ص/٢٦٧/.

٩ ـ قصة الحضارة. ول ديورانت. ج/٣/ ص/١٣/.

١٠ـ المستطرف الصيني. هادي العلوي ص/ / دار المدى.

١١ ـ المصدر نفسه.

١٢ـ قصة الحضارة. ول ديورانت. ج/٤/ ص/٢٧/.

١٣ ـ حكمة الصين. فؤاد محمد شبل ج /١/ ص/٧/ دار المعارف بمصر.

١٤ ـ فلسفة من الصين. لين يوتانغ ص/١٤/ دار العلم للملايين.

١٥ ـ تاريخ الفلسفات الكبرى. البيير دوكاسيه ص/٣٧/ منشورات عويدات بيروت.

١٦ ـ قصة الحضارة. ول ديورانت. ص/٢٠/.

١٧ ـ المستطرف الصيني. هادي العلوي ص/٣٣/.

١٨ ـ حكمة الصين. فؤاد محمد شبل ص/٢٠/.

١٩ ـ قصة الحضارة. ول ديورانت. ج/٤/ ص/١٥/ ويضيف قائلا إنه لا يثق بالعهود السابقة في الصين لعام /٧٧٦/ ق.م على الرغم من أن الكسندر ستيبتسفتش في كتابه (تاريخ الكتاب) ص/ ٤٧/ يعتقد بأن الصينيين بدأوا منذ الألف الثالثة (ق. م) يتوجهون للكتابة.

٢٠ ـ ص/٣٣١-٣٣٣/.

٢١ـ انظر تاريخ المعتقدات الدينية. ميرسيا ايلياد ج /٢/ ص/١٣/.

٢٢ ـ قصة الحضارة. ول ديورانت. ج /٤/ ص/٣٩/.

٢٣ ـ المصدر نفسه ص/٢٧/.

٢٤ ـ فلاسفة الشرق والغرب. مصطفى غالب ص/٢٢٩/.

٢٥ـ قصة الحضارة. ول ديورانت. ج /٤/ ص/٣٠/.

٢٦ ـ سلسة الأديان العالمية، دين إبراهيم. هاشم الدفتردار ومحمد علي الزعبي ص/١٩/.

٢٧ـ المستطرف الصيني. هادي العلوي ص/ ٦٤/.

٢٨ ـ المصدر نفسه ص/٦٢/.

٢٩ ـ حكمة الصين. فؤاد محمد شبل ص/ ٢١٦-٢١٧/.

٣٠ ـ المصدر السابق ص/٢٣٠-٢٣١/.

٣١ ـ قصة الحضارة. ول ديورانت. ج /٤/ ص/٣٥/.

٣٢ ـ حكمة الصين. فؤاد محمد شبل.

٣٣ ـ المرجع السابق ص/٢٣٠/.

٣٤ ـ الفكر الشرقي القديم. جون كولر ص/٣٧٦-٣٧٧/.

٣٥ـ المرجع السابق ص/ ٣٢٧/.

٣٦ـ المستطرف الصيني. هادي العلوي ص/٣٥/.

٣٧ ـ ص/١١٨/.

٣٩ ـ المستطرف الصيني. هادي العلوي ص/٣٧/.

٤٠ ـ الحكماء الثلاثة. أحمد الشنتناوي ص/٣٧/ دار المعارف بمصر.

٤١ ـ فلاسفة الشرق والغرب. مصطفى غالب ص/ ٢٩٩/ .

٤٢ ـ حكمة الصين. فؤاد محمد شبل ص/٣٥/+ ص/٨٠/.

٤٣ ـ المصدر نفسه ص/٣٣/.

٤٤ـ دين إبراهيم. هاشم الدفتردار ومحمد علي الزعبي ص/٤٩/.

٤٥ ـ تاريخ الفكر الغربي . عمر فروخ ص/٥١/.

٤٦ ـ الصين. شعوب العالم. حسن جوهر ص/٨٣/.

٤٧ ـ حكمة الصين. فؤاد محمد شبل ص/٧٢/.

٤٨ ـ المصدر السابق ص/٧٧/.

٤٩ ـ المستطرف الصيني. هادي العلوي ص/٣٧/.

٥٠ ـ المستطرف الصيني. هادي العلوي ص/٣٧/.

٥١ ـ المصدر نفسه ص /٧٥/.

٥٢ ـ قصة الحضارة. ول ديورانت ص/٦٢/.

٥٣ ـ حكمة الصين. فؤاد محمد شبل ص/٨٠/.

٥٤ ـ قصة الحضارة. ول ديورانت. ج /٤/ ص/٤٥/.

٥٥ ـ فلسفة الصين ص/١٦٩/.

تاريخ الكتاب ح/ الكسندرستيبتفتش سلسلة عالم المعرفة . الكويت.

في العقد الإجتماعي. (جان جاك روسو) دار العلم . بيروت.

تاريخ الفكر الغربي. عمر فروخ ط /٣/.

ما هوية.........
المدينة الأفلاطونية

الأفكار كالتاريخ.. سيّالة دفّاقه.. سابقها غير لاحقها.. قد تتماثل.. لكنها لا تتطابق.. فمقولة(سقراط): وهي المقولة (الدلفية) (اعرف نفسك بنفسك) قد يماثلها قول الرسول محمد (ص): (من عرف نفسه فقد عرف ربه). ومقولة (أرسطو): (الرجل رأس الأسرة وسيدها وإليه تعود أمورها لتميزه بالعقل والحصانة، والمرأة دونه عقلاً ووظيفتها العناية بالأولاد وتدبير المنزل). هذه المقولة أيضاً قد نجد في موروثنا ما يماثلها. ولعل هذا ينطبق على سائر الآداب العالمية. فقول: (دانيال أوكنيل) (دعني أكتب أغاني الشعب ولا أبالي بمن يضع قوانينه). واعتبر هذا القول / يوم قيل / من الجدَّة بمكان. إلا أنه لا يختلف كثيراً عن قول (كونفوشيوس) عندما سأله حاكم

البلاد: يا (كونفوشيوس).. من يضع للبلاد قوانينها: أجاب (لا يهم يا أمير مادمت أصنع أنا موسيقاها). ؟. وقول (هوراس): كان آباؤنا خيراً منا وأباؤهم خيراً منهم. يماثله قول معاوية (لن يأتيكم من بعدي إلا من خير منه كما أن من قبلي كان خيراً مني) ولعل مرد التشابه: يعود لأمور كثيرة على الرغم من اختلاف الأقوال زَمَكَاناً وشخوصاً. وقد أكد ذلك (ول ديورانت) في كتابه قصة الحضارة حين قال: (إن أثينا إبان مجدها كانت شرقية أكثر منهاغربية) /١/.

كما أن تشابه جمهورية أفلاطون مع غيرها من (الأوتوبيات)[1] اللاحقة لا يصل إلى درجة التطابق، ولو قدر لأفلاطون أن يعيش خارج آثينا ويكتب جمهوريته لما تطابقت مع الجمهورية الأولى لاختلافات المكان. ألم يفت الشافعي للشيء مرتين..مرة في العراق وأخرى في مصر حين اختلف المكان؟ ولو قدر له أيضاً أي(أفلاطون) بحُكمين مُختلفين أن يعيش عمراً مديداً سواء في آثينا أم خارجها وكتب جمهوريته لما تطابقت مع الأولى أبدا لإختلاف الزمان. فالإنسان لا يعيش مرتين. مرة في نفسه وأخرى في بنيه أو في الأجيال التي تليه من مبدأ (ربوا أولادكم فإنهم مخلوقون لغير زمانكم. ألم يقل (هيرا قليطس): (لا يستحم الإنسان بماء نهر مرتين) حتى أن بعض الفلاسفة قد قال مرة واحدة لا مرتين. يقول د. (عبد الرحمن بدوي):

للتاريخ وجهان.. تاريخ حياة.. وتاريخ فكر

فتاريخ الحياة: زمن آلي يقاس بالساعات.. تشترك فيه سائر المخلوقات ما مضى منها وما هو آت.

أما تاريخ الفكر: فهو زمن حيوي حقيقي يقاس بما يبدعه العظماء الذين أوتوا سر الخلق الذي لا يعرف طعمه سوى اللّه.

---

(١) (إ= لا) و(توبيا = مكان) ــ (أي / لا مكان) وأول من صاغها (توماس مور) /١٤٧٨-١٥٣٥/ و(المتيافيزيقيا) كلمة أوجدها (نيقولاس)الدمشقي في القرن الأول بعد الميلاد.

قبل أن ينفصل العلم عن الفلسفة: في القرن الثامن عشر /٢/حملت الفلسفة ـ التي تتجاوز التقرير إلى التفسير[1] والتي وصفها (أفلاطون) في محاورات(جورجياس) بالسحر، ووصفها في (الجمهورية) بأنها التشبه بالله، قدر الطاقة الإنسانية ـ حملت على كاهلها ردحًا طويلاً من الزمن عبئًا ليس باليسير ـ إن لم نقل عسيراً ـ ساعية ما أمكنها إلى إيجاد مفاتح لحل لغز هذا الكون العصي عن الفهم، باحثة فيما حواه وما أحاط به، محاولة تصور مبدعه، مُنْسَابة عبر مساربه المتشعّبة وجوداً وجوهراً، سابرة غور النفس الإنسانية الخَلْقي والخُلُقي والنفسي والاجتماعي والسياسي والفلسفي عبر مراحلها (كينونة ـ وسيرورة ـ وصيرورة).

والأفكار: ضرورات حياتية ليس لأصحابها فقط، بل للعصور التي تليها والتي تعاقبت عليها من بعدها لأن فلسفة عصر من العصور تصبح في الأحوال العادية أدب العصر الذي يليها. /٣/

والإنسان بوصفه وجوداً وقدرة على التحكم على الوجود، هو الكائن الوحيد الذي يقذف بذاته خارج ذاته. يقول (فاليري): (إننا محبوسون خارج ذواتنا).

أما الحيوان فلا تشغله أخطاء اليوم، ولا ترهقه هموم الغد لأنه أسير اللحظة التي يمر بها وكأنها الأبدية حسب تعبير (برغسون).

وتبدأ الفلسفة: حين يداخل الإنسان الشك وكأن الشك مولّد يحرّض رحم الفكر على إطلاق التساؤلات والسؤالات: (**هل؟ / من؟ / ماذا؟ / لماذا؟ / كيف؟ / أيان؟** / ؟. !). هذه الأسئلة اللاهثات اللائبات الحائرات تستنطق أعماق الذات استنطاقاً لجوجاً لإدراك كنه المرئي واللا مرئي/ والماحول/ والمافوق/ والحسي/ وما وراء المدرك الحسي / والسيكولوجي/ والباراسيكولوجي وما إلى ذلك..........

ويمكن القول: (إن الشك نواة سائر الأفكار، لأنه العتبة الأولى من عتبات اليقين. ألم يعتبر (ديكارت) أن (الشك أس الفكر ومعيار الوجود) حين قال: (أنا

---

(١) لقد تنبأ (هيرافليطس) بكسوف الشمس الكلية في /٢٨/آذار عام /٥٥٨/ ق. م ودرسها دراسة علمية لا ميثولوجية.

/١/- انظر كتاب الفكر اليوناني قبل أفلاطون. د. حسين حرب.ص/٢٨/.

أفكـر إذاً أنـا موجـود) بمعنـى (أنـا أشـك إذاً أنـا موجـود) وقـال الفيلـسوف (ديـدرو) (الشك سبيل الحقيقة واليقين). ولعله بقوله هذا لا يكون قد أتى بجديد، لأن حجة الإسلام (أبو حامد الغزالي) الذي نبذ الفلسفة وحاول أن يعيد للصوفية ألقها قال: (الشك هو الموصل للحق. من شك نظر. ومن نظر أبصر ومن لم يبصر كان عمياً)[1].

لكن ليس شكّاً من أجل الشك بل شك منهجي./٤/ وإضافة إلى أن الشك يتطلب منا شاكّاً لا نشك فيه، فإنه دعوة إلى إقرار سيادة العقل لأن العقل شرع من داخل والشرع عقل من خارج /٥/.

بدأت الفلسفة اليونانية في (أيونيا) في القرن السادس ق. م فكراً عفوياً على يد (طاليس) رأس الفلسفة اليونانية الذي قال: (إن الماء أصل كل شيء)[2]. ويمكن اعتبار ذلك كما يقول د.(حسين حرب) في كتابه (الفكر اليوناني قبل أفلاطون) مرحلة انتقالية وسيطة بين الفكر البدائي والمعرفة العلمية./٦/ وقد بلغت هذه الفلسفة ذروتها في القرن الرابع / ق. م /يقول (شلي): (إن الفترة الواقعة بين مولد بركليس وموت أرسطو تعد بلا شك أهم فترة في تاريخ العالم كله سواء نظرنا إليها من حيث هي ذاتها أو من حيث أثرها على مصائر الإنسان المتحضر من بعدها) /٧/.

أطوار الفلسفة اليونانية: مرت الفلسفة اليونانية بثلاثة أطوار:

- **الطور الأول:** عصر ما قبل سقراط.
- **الطور الثاني:** العصر الذهبي المتمثل بالأثافي الثلاث (سقراط ـ أفلاطون ـ أرسطو).
- **الطور الثالث:** مرحلة الذبول والأفول. وتمتد حتى ظهور العصور الوسطى. إلا أن الفلسفة انتعشت في الإسكندرية عند ظهور

(١) انا مَوْسَقْتُ فكرة الغزالي ليسهل لفظها وحفظها يقول الغزالي: (الشكوك هي الموصلة للحق، فمن لم يشك لم ينظر. ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر وقع في العمى والضلالة).

(٢) عقب بعض المستشرفين على هذا القول بأن محمداً (ص) قد تناهى إلى سمعه هذا الكلام فقال (وجعلنا من الماء كل شيء حي) هنا نرى بأنه نعت الآية الكريمة بأنها من قول محمد (ص) (وهذا مرفوض أصلاً).

الأفلوطينية المحدثة في القرن الأول بعد الميلاد على يد (فيلون) /٢٥ق. م ــ ٤م/ ثم على يد أفلوطين من بعده وقد نعت العرب فلاسفتها بالأسكندرانيين./٨/ وإذا عد (أرنست رينان) عمل اليونان معجزة كبرى فإن سارطون /٩/ لم يؤكد قصب السبق لهذه المعجزة لأن هناك آلافاً من الجهود العلمية المبذولة التي سبقتها من خلال حضارة مصر وبلاد ما بين النهرين. ولست هنا بصدد إثبات أو نفي فضل العرب الأقدمين على اليونان حتى أورد ما أجمع عليه العلماء والمفكرون. ألم يقل (عمر فروخ): (إن ازدهار الفلسفة اليونانية يعود لعاملين خارجي وداخلي. أما الخارجي، فهو احتكاك اليونان بالمدينة الشرقية /١٠/ أو ما قاله (ديوجانوس اللا يرسي): (إن أول فلسفة قامت عند المصريين) أو ماذكره (رفاعه الطهطاوي) في كتابه (بداية القدماء وهداية الحكماء) /١١/ من أن مؤسس مدينة (أثينا) هو (ققروبيا)(تسمية لها بإسمه) وكان ذلك / ق. م/ بأكثر من ألف وخمسمئة سنة /١٢/ لكن يكفينا في هذا الصدد اعتراف (أفلاطون) بلسان حاله وإقراره بفضل المصريين عليه. لكن الإغريق كما يرى (نيتشه) قد منحوا الفلسفة شرعيتها./١٣/ ولما كان للفلسفة من شأن كبير عندهم فقد قال أحد فلاسفتهم (الكشف عن برهان واحد في الفلسفة خير لي من الحصول على عرش فارس /١٤/.

مولد أفلاطون

ولد (أفلاطون) بن (أرسطو) بن (أفريقطيون) عام/٤٢٧ـ٣٤٧/ ق. م أطلق عليه مدربه الرياضي سخرية لقب (بلاطون)[1] لعرض في منكبيه فلبسه اللقب حياً وميتاً حتى كاد أن ينسى اسمه الحقيقي وهو (أرسطو قليس)[2]. منهم من عده الفيلسوف

(١) حورت اللفظة إلى العربية بـ (أفلاطون) ونحن نقول (بلاط ـ باطون) لكل شيء قاسٍ وصلب.

(٢) معناها لأحسن الشهير. انظر قصة الحضارة. ول ديورانت ص /٤٦٨/ج /٢/.

الأول فأطلق عليه معمماً (هو الفلسفة والفلسفة هي أفلاطون) ومنهم من أطلق عليه مخصصاً فقال: (إنه الفلسفة اليونانية كلها).

ومنهم من رأى في تلميذه (أرسطو) اللاحق عليه زمناً بأنه الفيلسوف الأسبق من أستاذه تميزاً وعطاء لأنه استنزل الفلسفة من عليائها إلى العالم الأرضي وجردها من ثوبها الميتافيزيقي فكان بحق (رائد المذهب الحسي) ومؤسس علم المنطق. زعموا أنه ابن الإله (أبلون) فكانوا يحتفلون بمولده في أواخر أيار من كل عام)[1]. وقد وصفه (الشهرستاني) بـ (أفلاطون الإلهي). ويقول عنه (فرانسوا شاتيليه) (إنه يسعى لانتزاع الظلم من العالم وتحرير الجزء الإلهي في الإنسان).

رفض (أفلاطون)

قول (السفسطائيين): (إن الحواس خير وسيلة للمعرفة). وقول (بروتاغوراس): (الإنسان مقياس الأشياء كلها). آمن (أفلاطون) (بخلود النفس وبعالم المثل. وقد عَدُّوه مسيحياً قبل وجود المسيحية)./١٥/ نسج الخيال الشعبي عن مولده الكثير من الخوارق، شأنه في ذلك شأن سائر العظماء ومن جملة ما قالوا عنه:

(إن النحل كان يأتيه في طفولته ويضع له العسل في فمه). وكان يدعو الله قائلاً: (يا روحانيتي المتّصلة بالروح الأعلى، تضرعي إلى العلة التي أنت معلولة من جهتها لتتضرع عني إلى العقل الفعال في صحة مزاجي ما دمت في عالم التركيب)./١٦/ رسمه الفنان (روفائيل) في لوحة في مدرسة (أثينا) وبجانبه (أرسطو) يتوسطان الفلاسفة (أفلاطون) يومىء بنظره إلى السماء وأرسطو يشير بإصبعه إلى الأرض)./١٧/

نشأ أفلاطون في أسرة أرستقراطية. نبغ في الموسيقى والرياضيات والبلاغة والشعر والسياسة والكتابة المسرحية أيضاً. ثم ركز أخيراً على السياسة حباً بأستاذه (سقراط). ويظهر أن سائر الذين خاضوا غمار السياسة أغرقهم بحرها اللّجيّ فلم يستطيعوا منه فكاكاً. ولقد حمد الله قائلاً: (أحمد الله لأني ولدت

---

(١) **وهو عيد الاحتفال بالإله (أبلون).**

يونانياً لا بربرياً، حراً لا عبداً، رجلاً لا امرأة، لكن علاوة على ذلك أشكره لأني ولدت في عصر سقراط) /١٨/[1]. ولعل عشق (أفلاطون) المفرط (لسقراط) إلى حد التماهي جعله بطل محاوراته كلها حتى أنك حين تقرأ محاورة من محاوراته يَشْكُلُ عليك في كثير من الأحايين معرفة من المتحدث وايهما صاحب الفكرة[2].

نال جائزة الشجاعة لاشتراكه في ثلاث معارك وانتهت بحرب (البلوبونيز) /٤٠٤/ ق. م حيث هزمت (أثينا) هزيمة ساحقة أمام جيش إسبارطة وتحطم أسطولها العظيم.

أسس في (أثينا) بناء فخماً في حدائق البطل (أكاديموس) أطلق عليه فيما بعد اسم (الأكاديمية) ولهذا يقال: (إنه منشئ أول جامعة في التاريخ). وكان لا يسمح بالدخول إليها إلا لمن كان مهندساً، وقد نقش على بابها العبارة التالية: (من لم يكن مهندساً فلا يدخل هيكل الهندسة)[3].

مؤلفاته: كتب (أفلاطون) ستة وثلاثين كتاباً بلغة الحوار ماعدا اثنين منهما فقط[4]. ولعل لغة الحوار / حتى في المؤلفات الفلسفية / دليل حي يُظْهِرُ ما للمسرح اليوناني من شأؤ كبير كونه يعتمد على لغة الحوار. وَلِمَا لكتاب الجمهورية من أهمية بالغة ليس بالنسبة لمؤلفات (أفلاطون) فقط بل بالنسبة لسائر الكتب العالمية،

---

(١) نرى في حمده هذا شيئين:

- دعوة عرقية من خلال تعصبه لليونانيين.
- نرى تناقضاً في أرائه حيث حمد الله أن خلقه رجلاً لا امرأة وهو في سائر محاضراته لا يفرق بين الجنسين.

(٢) وأفلاطون واحد من أهم المصادر ـ إن لم نقل أهمها على الإطلاق ـ التي تعطينا فكرة عن (سقراط) لأن (سقراط) كان يعلم تلاميذه شفاهاً.

(٣) وبعده أسس (أرسطو) مدرسة (اللقيون) نسبة إلى (لوقيون) إله الرعاة وسماها باسم صديقه لأنه لا يحق له امتلاكها كونه أجنبياً ولكونه كان يعطي دروسه في الرواق جيئةً وذهاباً سمي تلاميذه بـ (المشائين). وابتداء من القرن /٣/ق. م شهد ظهور مدرستين (الرواقية والأبيقورية) واستمرت هذه المدارس عدة قرون، واستمرت حتى العصر الوسيط، ويقال إن سقراط: منشىء طريقة الحوار في التربية. انظر هنري توماس. أعلام الفكر الأوروبي ص/١٢/.

(٤) يقال: إن ستة منها منحولة واثنين مشكوك فيهما.

فقد عده (أمرسن) الكتاب الأول والأفضل فقال: (أحرقوا كل الكتب. ففي هذا الكتاب غنى عنها)/١٨/.

مدينة أفلاطون

عندما شرع (أفلاطون) بتصور مدينته الفاضلة وجه بصره نحو اسبرطة المنتصرة على (أثينا) واتخذها نموذجاً له /١٩/. فالدولة في نظر (سقراط) نتاج أفراد أهاليها وتستمد شكلها منهم وبالتالي فهي مرآة تعكس أحوالهم. رأى (أفلاطون) أن الدولة تنشأ لعدم إمكانية الفرد من سد حاجاته بمفرده، وقد رأى النقاد بأنه الجد البعيد لمختلف النماذج السلطوية في العصور الحديثة /٢٠/. لقد عني (أفلاطون) بسكان مدينته عناية فائقة منذ صغرهم لإيمانه بأنه لا يمكن أن تقام مدينة مثالية بأولاد صغار أفسدهم كبارهم /٢١/ **فرسم للمدينة صورة نلخصها فيما يلي:**

ـ الاستيلاء على الأطفال دون سن العاشرة. يُعتَنَى بأصحاب الأبدان منهم فقط ويُهْمل السقماء والمرضى ويُخْفَوْنَ عن أعين أهاليهم حتى يموتوا من تلقاء ذواتهم[1].

ـ يوضع أصحاء الأبدان في محاضن الدولة، وتعنى بهم مربيات ومرضعات. تحدد لهم ساعات إرضاع يومية.

و إذا امتلأت أثداء الأمهات بالحليب، يؤخذن على محاضن الدولة كمرضعات شريطة أن لا تعرف مرضعة ولدها أو أب أبنه وأن لا يعرف ولد والديه[2]. (نلحظ هنا أنه من أوائل الداعين إلى العالمية).

ــ ثم يخضعون للتدريبات الرياضية مدة عشر سنوات أُوْلى لتنمية أبدانهم ليكونوا في المستقبل قوة تدافع عن الوطن وتقيه شر المتكالبين عليه لإيمانه بأن الفردوس الأرضي يبدأ في جسم الإنسان (العقل السليم في الجسم السليم). وفي

---

(١) و(روبرت أوين) أيضاً.. طالب بعزل الأطفال عن الوالدين حين بلوغهم سن الثالثة من العمر.

(٢) هناك مادة اسمها (البرولاكتين) من خلا لها تعرف حتى أمات الطيور أبناءها ولهذا فالأم بحاجة إلى تفريغ عاطفتها في طفلها.

جمهورية (أفلاطون) يشترك الذكور والإناث معاً في سائر مناحي الحياة ابتداء بالأعمال الصغيرة وانتهاء بسدة الحكم، لأن الخلاف بينهما خلاف في الدرجة لا في النوع. والعمل بينهما موزع على القدرة والكفاءة لا على الجنس، وكل توكل إليه المهام التي تتلاءم مع نفسه وتنسجم مع طبيعته[1]. والملفت للنظر مطالبته الإناث ـ أثناء التدريبات الرياضية ـ أن يكن عاريات كما خلقهن الله صغيرات وكبيرات، (أول دعوة لإقامة نادي للعراة)، لأن تجريد الجسم في نظره خير من ستره وستار الفضيلة هو الستار الحقيقي للجسد[2]. وبعد عشر سنوات من التدريب الرياضي يبدأ التدريب الموسيقي. والموسيقى عند (أفلاطون) تهذب النفس وتصقل المشاعر وتهيئ المرء لأن يكون فيلسوفاً في المستقبل. فهي روح الكون وعلم الانسجام وتنتهي عنده في محبة الجميل، ذلك الجميل الذي هو خلاصة الخلاصات الهابط علينا من عالم المثل القابع في الملأ الأعلى. ويرى (أفلاطون) بأن الجميل هو أقرب الأشياء إلى القلب لكنه عسير المنال[3]. وما الحب سوى تعطش الروح البشرية إلى ذلك الجميل. ولقد كان الجمال الحسي عند قدماء الإغريق رمزاً للجمال الأخلاقي لأن كلا الجمالين يتعلق بكمال آت من لَدُنّ الآلهة /٢٣/. ولقد حذر من إدخال الجديد على الموسيقى خوفا من انحطاط سمو الروح وخوفا من الاختراق الموسيقي (الذي نسميه اليوم بالغزو الثقافي والفني) لأن الاختراق الموسيقى لا يؤثر على الشعب فقط بل حتى على الأنظمة السياسية/٢٤/[4]. كما أن علينا أن لا نُفْرِط أو نُفَرِّط في التدريبين الرياضي والموسيقي من مبدأ (لا إفراط ولا تفريط) لأن الإفراط في التدريب الرياضي يؤدي إلى الخشونة) (و الإفراط في التدريب الموسيقى يفضي إلى اللين).

ولقد ركز (أفلاطون) على شحذ خيال الأطفال من خلال الأسطورة أو القصص

---

(١) نوهنا عن هذا التناقض سابقاً.

(٢) السؤال المطروح: إذا كان الجسم ستاره الفضيلة.. لما لم يطلب من الذكور ـ أيضاً ـ أن يتدربوا عراة كالإناث؟.

(٣) نحن نقول في المثل العامي (الحلو مسبحة ربو.. مين ما كان بحبو) وأيضا (الحلو الله بيحبو).

(٤) (حتى الأغنية الهابطة هي أغنية سياسية (بالمقلوب) أي موجهة من قبل من ابتدعها إلى الجيل المراد هدمه لأنها حرف للجيل عن تطلعاته التي عليه أن يتمسك بها.

التي تسرد عليهم، ويرى الفيلسوف العقلاني (برشفيك) في استخدام (أفلاطون) للأسطورة (هجوماً مضاداً) على شكل الفكر البدائي الذي نجده عند (هزيود) إذ طالب (أفلاطون) بسرد الأساطير المحببة إلى الأطفال والتي تركز على الجوانب الإيجابية كالحب العظيم والخير العظيم ومكارم الأخلاق. لإنماء بذرة الفضيلة فيهم والإحجام عن سرد الأساطير المخيفة عليهم والمليئة بالتهويل والتهديد والوعيد والعقاب والهلاك لأنها تثبط العزائم سواء سردت بطريق الحقيقة أم بطريق المجاز، فالطفل لا يفرق بينهما. ويشترط في الأساطير التي تقص أن لا يذكر فيها مالا يليق بالآلهة أو الأبطال لتبقى الآلهة في الأذهان فوق المستوى الإنساني ولتكون مرجعاً وسبباً يعزى إليه كل ما لم نستطيع تحقيقه من مبدأ (الجبرية والقدرية)، وأن الإيمان بها يمدنا بالشجاعة في مواجهة الموت.

كما طالب بعدم زجر الأطفال و(نَهْرِهم) أثناء حثّهم على التعليم بل علينا أن نجعل الرغبة في التعليم تنبع من تلقاء ذواتهم حتى لا يمتزج تهذيب الأحرار بشيء من الاستعباد، وأن نقدم المعلومات لهم ـ ما أمكن ـ عن طريق ألعاب مسلية في أوقات نشاطهم لأن الإرهاق والنعاس عدوان للدرس[1]. (نلحظ هنا تركيزاً على علم النفس وعلاقته بالتربية).

هذه المعلومات جديرة بالاهتمام وبخاصة لدى كتاب الأطفال.

وعندما يصبح هؤلاء الأطفال يافعين في سن (السادس عشر) من العمر يتوقفون عن دراسة الموسيقى وينصرفون إلى العمليات العسكرية والرياضية وبقية العلوم مدة سنتين. عندها تكون الموسيقى قد (أرهفت) أسماعهم وقوت الرياضة أبدانهم وأصبحوا أهلاً لتلقي العلوم والمعارف فيخضعون لامتحانين اثنين عادلين لانتقاء الكفاءات، مجردين من المحاباة والمداراة والمحسوبيات والانتماءات والولاءآت وما إلى ذلك.. لأن هذين الامتحانين لا يقرران مصير فرد فقط بل يقرران مصير أمة بحالها.

---

(١) كثيراً ما كنا نطالب نحن في مدارسنا أن يكون درس الرياضيات أو الفيزياء أو الكيمياء بعد حصة نشطة كالرياضيّة مثلاً.. أو صباحاً لأن الإرهاق يخفف من وصول المعلومة إلى المتلقي كثيراً.

الامتحان الأول: ينتقى من خلاله القادرون على تحصيل العلوم. والمتخلفون في هذا الامتحان يفرزون إلى طبقة الصناع والزراع، أما الناجحون فيتابعون دراستهم ويتعلمون العلوم الرياضية والفلسفية.

الامتحان الثاني: امتحان عسير جدا يقام بعد عشر سنوات من دراستهم يصفى من خلاله الدارسون. فالمتخلفون فيه يفرزون إلى طبقة الجند والكتبة المساعدين، أما الناجحون الأكفاء فيدرسون الفلسفة مدة خمس سنوات، ثم يتمرسون بتجارب الحياة مدة (خمسة عشر عاماً)، وهذا هو المِحَكُّ الأخير لقدراتهم. وإذا بلغوا (الخمسين) من العمر، يكون السن قد هذبهم والخبرة قد صقلتهم والتجربة أغنت عقولهم التي امتلأت بالعلوم والمعارف، عندها يصبحون قادرين على امتلاك زمام الحكم أولئك هم الحكام الحقيقيون.

أقسام جمهورية أفلاطون

يرى (أفلاطون) أن الناس متساوون في الوطنية والمظهر إلا أنهم مختلفون في الإمكانية والجوهر فالناس في جمهوريته **معادن ثلاثة**:

١ ـ الذهب ـ تمثله طبقة الحكام وهو خير المعادن.

٢ ـ الفضة ـ تمثله طبقة الجند معدن وسط بين الاثنين.

٣ ـ البرونز والنحاس والحديد ـ تمثله طبقة الصناع والزراع الذين يقدمون للفئتين أسباب العيش.

فئة رابعة: فئة العبيد التي سمح بها (أفلاطون) شريطة أن يكونوا غير يونانيين. وعندما توفي (أرسطو) أوصى بعتق سائر عبيده وجعلهم أحراراً فكان هذا العتق أول إعلان تحرير في العالم كله.

وطبقة الجند لا وجود لهم داخل المدينة لأن الجمهورية الأرستقراطية التي يحكمها الفلاسفة لا خلاف بين أهلها، ومهمة الجند هو الدفاع لا الهجوم لأن (أفلاطون) يكره الحرب وعندما يستتب الأمن في الجمهورية فلا حاجة للجيش لأن الرفاهية ـ في نظره ـ هي التي تصنع الحرب عكس السفسطائيين الذين يرون في

الحرب تعبيراً عن اصطفاء طبيعي يؤمن استعباد الضعفاء وانتصار الأقوياء. ويرى (كاليكليس) و(ثراثيماخوس) أن نجاح الطاغية مهما كانت الجرائم التي حاز بها نجاحه هي دلالة على قوته، وبالتالي على قيمته /٢٢/، والجيش الذي يعسكر حول المدينة لا يسعى إلى سبل العيش ولا يكون أُسَراً حتى لا تكون أُسَرُهم في مكان وهم في مكان آخر، ولذا تصحبهم نساء أينما حلوا ينفسن عنهم من غير أن يرتبط جندي رباطاً زوجياً بإحداهن /٢٣/. وبما أنه يرى أن الدولة شخص كبير والشخص دولة صغيرة فقد طبق هذا التقسيم الثلاثي على النفس البشرية أيضاً. **فأقسام النفس عنده ثلاثة:**

١ـ قسم عقلي ـ فضيلته الحكم وتمثله طبقة الذهب = أي الحكام.

٢ـ قسم غضبي ـ فضيلته الشجاعة وتمثله طبقة الفضة = أي الجند.

٣ ـ قسم شهوي ـ فضيلته الاعتدال تمثله طبقة البرونز والنحاس والحديد = الزراع والصناع.

لقد آمن (أفلاطون) بأن الحاكم ولد ليكون حاكماً وأن المحكوم ولد ليكون محكوماً. لأن الحاكم من سلالة الحكام أولئك الآلهة الأرضيين. ومن هنا برزت عنده فكرة الملك الإله أو ممثل الإله على الأرض. وقد سيطرت هذه النظرية على العقول فترة طويلة من الزمن قبل أن يتأنسن الحاكم. يقول في الجمهورية (ولما كنتم متسلسلين بعضكم من بعض فالأولاد يمثلون والديهم[1]. إلا أنه ـ على ما يظهر أدرك خطأ تعميمه القطعي لأن لكل قاعدة استثناء ـ فخرق القاعدة التي أعلى هرمها بنفسه فقال: (على انه قد يلد الذهب فضة وتلد الفضة ذهباً. فإذا وُلِدَ للحاكم وَلَدٌ معدنه نحاس أو حديد فلا يشفقن والداه عليه بل يضعاه في المكان الذي يليق مع جبِلَّتِهِ. وإذا وُلِدَ للنحاس أولاد فضة أو ذهب فعليه أن يأخذ مكانه لأن حلول المرء في غير محله مجلبة للدمار. ونجد من خلال تصريحه هذا تناقضاً آخر

(١) ونحن مع النقاد الذين لم يوافقوه على طرحه لأن الحكم حسب الجدارة لا الوراثة المَلَكِيَّة فقد كان لـ (شيشرون) ولدٌ منحلٌّ وكان أولاد (سقراط) كأمهم بلهاء، وليس هناك أولاد لهما وفيهم صفات الحكم.

عنده لأن قناعته السابقة تقول إن المدينة التي يحكمها النحاس والحديد هي مدينة مآلها إلى الثبور والهلاك لا محالة.

الزواج في مدينة أفلاطون

يتم عن طريق الدولة وتختص به طبقة البرونز والنحاس والحديد فقط (وهي طبقة واحدة)، مع منع الزواج بالأقارب وأن لا ينسلوا أكثر مما يستطيعون (أول دعوة لتنظيم بل لتحديد النسل). وإذ بلغ الشاب (خمساً وثلاثين) سنة ولم يتزوج تفرض عليه الدولة عقوبة. كما حدد موعد نضوج الجنسين (نضج المرأة ـ من٢٠/٤٠) (و الرجل من ٣٠/٥٥)(نظرة بيولوجية). ومن يُنْجِب قبل أو بعد هذا السن يتهم بأنه آثم بحق الدين والعدل. وعندما يتجاوز أحدهما سن الإنجاب فله الحرية في معاشرة من يشاء من النساء (دعوة إلى الإباحية). وإذا حبلت إحداهن عرضا فعلى جنينها أن لا يرى النور. ولقد دافع اليونانيون عن الإجهاض ومنهم (أرسطو طاليس) بحجة أنه أفضل من قتل الأطفال بعد أن يروا النور[1] /٢٤/. لكنه حرّم على الرجل أمه وابنته وجدته وحفيداته، وحرم على المرأة أباها وأولادها وسلفها وخلفها. وكان القانون اليوناني يبيح زواج الأخت إن شاء الاقتراع ذلك وأكدته (نبوءة دلفي)[2]. ويباح للرجل أيضاً أن يتخذ خليلة ويباشرها فضلاً عن زوجه. يقول (ديموستين): (العاهرات للذة والخليلات لصحة أبداننا والأزواج يلدن الأطفال ويعتنين ببيوتنا عناية ملؤها الأمانة والإخلاص). كما أباح للرجل الزواج باثنتين نتيجة للحروب اليونانية التي ذهب ضحيتها الكثير من الشباب اليونانيين. وإضافة إلى ذلك أباح للرجل التسري، فكانت المرأة اليونانية تصبر على هذا الواقع كرها وتصبر صبر الشرقيات كما يقول (ول ديورانت).

---

(١) أذكر قولاً (لسفوكليس) فيما معناه (اسعد الناس هو الذي لم يولد بعد ويليه في السعادة من مات في طفولته).

(٢) كان الرومان يحترمون زواج الأخت أما المصريون والأثينيون واليهود فكانوا يجيزون زواج الرجل من أخته لأبيه. انظر كتاب. دراسات في النظم والمذاهب. د. لويس عوض. كتاب الهلال عدد/١٩٩/ ص/٣٥/.

أما المرأة اليونانية إذا زنت أو كانت عقيمة عاقراً تطلق شرعاً وإذا توفي زوجها فليس لها مما ترك أي نصيب.

صفات الحاكم الأفلاطوني: رسم أفلاطون للحاكم الذي تصوره صورة مثالية عز نظيرها في عالمنا الأرضي لأنه تخطى ـ في رسمه لها ـ الكفاية ووصل بها إلى درجة الكمال، وغوته يقول (الكمال معيار السماء والسعي نحو الكمال معيار الإنسان).

صفاته: طاعن في السن، وافر الفطنة، عظيم الذكاء، عريق الوطنية، قليل الأنانية، فيلسوفي النزعة، عظيم الحماسة، راكب خيل ماهر، حبيب الله، عادل لا يتجاوز نده بل يتجاوز ضده لأن المتعدي عدو الله يتجاوز نده وضده معاً، لا يعمل لإسعاد قسم في مدينته دون آخر بل يعمل على لإسعاد الجميع طالما أن الغرض من إنشاء الدولة هو اكتشاف العدالة التي ركز عليها (أفلاطون) كثيرا[1]. والحاكم يسعى جاهداً لإرساء دعائم الوحدة التي وصفها (بالخير الأعظم) ورأب الصدع ونبذ التفرقة والتجزئة ووصفها (بالشر الأعظم).

طعامه: (بسيط.. صحي.. معتدل) يكفل له عدم استشارة الطبيب، لا يخص نفسه بمال ولا بعقار ولا بإمرأة ولا بولد[2]. (سبق للشيوعية) ما دامت المدينة كلها حل له ونساؤها رهن يمينه متى يشاء. وبما أن التخصص لب الجمهورية فعلى الحاكم أن لا يتخصص بعمل سوى الحكم قولاً وعملاً. ولقد أجاز له الكذب. وحظر على غيره مشاركته هذا الامتياز لكن بشرطين اثنين ليكون دواء لا داء بمعنى (الكذب الأبيض).

أولاً: أثناء محاربتة الأعداء (من مبدأ الحرب خدعة).

---

(١) وفي الجمهورية نجد (كاليكليس) /الذي ابتدع شخصيّته (أفلاطون) ليكون تمهيداً لإجاباته/ التي نقد من خلالها (أفلاطون) ما كان يطرح مثل (العدالة هي منفعة الأقوى ويؤكد أن القوانين قد سنها الضعفاء لكبح جماح الأقوياء ومنعهم من إظهار تفوقهم).

(٢) انكر (أرسطو) على الحكام شيوعية النساء مطالباً بإقامة العلاقات بين الأب وابنه وبين الزوج والزوجة والأولاد لأن في ذلك استمرار للحياة والأسرة والا كان الابن ابناً للجميع والأب أباً للجميع والزوجة زوجة للجميع.

ثانياً: إقناع الأهالي بما فيه خير الدولة. يقول (هتلر) في كتابه (كفاحي هلتر) (لا ينبغي مخاطبة الجماهير بالحجة والمنطق العقلي). وإذا أصاب أحد رجال الدولة أزمة أو حظي بنعمة فعلى الجميع مشاركته أتراحه وأفراحه، وإذا كان في أحد السكان موجدة على أخيه فعليه أن يجد حلاً لها بمواجهته شخصياً ومصارحته حتى لا يتفاقم الشر فيما بينهم. كما حرم على الحاكم الإفراط في الضحك لأن الضحك المفرط يعقبه ردة فعل(1). جسور إذا ألمت به مصيبة غير نداب كالنائحات. غير مخنث ولا كسول ولا سكير لأن الحاكم آخر شخص في المدينة يحق له أن يشرب فيفقد صوابه لأن في يديه مصائر أهل المدينة(2). لا يمثل الأدوار المسرحية الشريرة بل يمثل أدوار الفضيلة لأن التمثيل يكمن في النفس بتأثير الإشارات ونغمة الصوت وطرائق الفكر وتصبح له طبيعة ثانية.(3) الحاكم العادل لا يقبل الحكم، إذا أمكنه التخلص منه لأن السفلة هم الذين يستميتون في سبيل الاستيلاء على الحكم وبخاصة أيام الرخاء، وهدفهم جني ثمار الآخرين. ولأن أثقل المصائب على الناس أن يحكم أسافلُهم وأراذلَهم فضلاءَهم وعقلاءَهم، فعليه أن يتبوأ المنصب تفادياً للوقوع في هذه المأساة والوصول على مثل هذه النتيجة. فالمدينة التي يحكمها أقل الناس رغبة في السلطة هي أسعد الدول حالاً.

---

(١) ونحن نقول أيضاً في المثل العامي بعد الضحك المفرط (الله يعطينا خير هذا الضحك) رغم أن الرسول محمد (ص) قال: (روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلت عميت).

(٢) أذكر أن البيت الأبيض الأمريكي قد عاب على (بوريس يلتسن) الرئيس الروسي الأسبق الإفراط في شرب الخمر على الرغم من أن النظر إلى المشروبات الروحية هناك لا تقاس بالمعيار الشرقي.

(٣) أنا شخصيا لا أوافقه على فكرته. لأني عندما (أخرجت ومثلث) مسرحية (يهودي مالطة) لـ(كريستوفرمارلو) وكان دوري فيها دور (باراباس) اليهودي. لم يتملكني الدور ولم تصبح لي طبيعة ثانية وكم كنت سعيداً عندما كنت أسمع بعض الغمزات واللمزات النابية من الجمهور والتي تكاد تصل إلى مرحلة الشتيمة تعقيباً على كرههم لهذه الشخصية التي رغبت في إظهارها لأصل إلى مثل هذه النتيجة وأظهر للناس جشع اليهود، وعندما انتهيت من أداء الدور عدت وكأن شيئاً لم يكن.

جماعة القول: إن (أفلاطون) ركز في مدينته على الحاكم الفيلسوف والفيلسوف الحاكم فقال: (لن تزول تعاسة الدول وشقاء النوع الإنساني ما لم يحكم الفلاسفة أو يتفلسف الحكام).

أشكال الحكم عند أفلاطون

للحكم عند (أفلاطون) خمسة أشكال/ومن ثم هناك خمسة أنواع من الأفراد/ حسب التالي (الأرستقراطي ـ التيموقراطي ـ الأوليغارشي ـ الديمقراطي ـ المستبد).

الحكم الأرستقراطي: وقد استعملها (أفلاطون) (بمعناها الفلسفي = أي حكم العقلاء لا بمعناها السياسي)[1]. قال (سقراط): (إذا كانت المعرفة أسمى الفضائل كانت الأرستقراطية خير أشكال الحكم). وهي عند (أفلاطون) وحدها على هدى وكل ما عداها على باطل. والصفات التي ذكرناها آنفاً عن الحاكم من عدالة وعدم تملك وما إلى ذلك هي صفات الحاكم الأرستقراطي حصراً. يقول (جان جاك روسو): (الشر بدأ حين وضع أول إنسان أول علامة على قطعة أرض وقال: هذه لي). وقد وصف (ول ديورانت) في كتابه (قصة الفلسفة) أرستقراطية (أفلاطون) بأنها (ارستقراطية ديموقراطية)/٢٥/. لأنها تعتمد على حاكم يركز عليه منذ طفولته إذ بعد أن يثبت جدارته من خلال تجاوزه الامتحانين يربى على الأيادي ومن السخف انتخاب مرشح غير كفء في كل شيء تصدره للانتخابات فئة (طامعة لا طامحة).

وإذا نجح مرشح من خلال العدد القطيعي الكمي لا الكيفي فلن يعمل إلا لمصلحة الفئة التي رشحته/ هذا إن عمل / لأنه كثيراً ما يعمل لمصلحته الشخصية ضارباً عرض الحائط بمن رشحه أو انتخبه. أما الحاكم الأرستقراطي كما نوهنا فيعمل لإسعاد الجميع بلا استثناء. يقول (اكسانوفون): (من السخف أن نختار الحاكم بالقرعة على حين لا يفكر أحد أن يختار بالقرعة ربان سفينة). كما أنه لا يمكن أن نختار رجلاً لا علاقة له بالطب لنطلق يده ليداوي المرضى. وأمر ما في

---

(١) حكومته المثلى ملكية (موناركية) عندما يتولاها فرد و(أرستقراطية) عندما تتولاها جماعة.

العملية الانتخابية أنه يتساوى عندها صوت (المقدس والمدنس) و(صوت النبي وصوت البغي) فكلاهما على الصعيد العددي صوت يضاف إلى قائمة المنتخبين. رقم ليس إلا. ولكن شتان ما بين الرقمين على الصعيد المنطقي والعقلاني فالفارق بينهما أعظمي نقاء وصفاء، طهارة وجدارة.

الحكم التيموقراطي: كل مخلوق عرضة للزوال حتى نظام الأشخاص الذين هُذِّبوا وأُعِدُّوا ليكونوا حاكمين. وهذا الزوال خاضع لقاعدة الخصب والمحل الذي تطول وتقصر حسب طول حياة الأشياء. ولهذا الزوال مسببات كأن يوافق الحاكم على زواج في غير وقته الإلهي فتكون ثمرة هذا الزواج غير سعيدة ويمتلك أحدهم بقوة السلف من غير جدارة ذاتية. وعندما يحكمون بدل آبائهم لا يميزون بين المعادن التي إن تزاوجت ولّدت تنافراً عديم المساواة كان ذلك سبباً للتصدع. فيميل الفقراء إلى اقتناء الحقول ويتحول معدن الذهب والفضة عن الفضيلة، وينتهي الصراع بالتفاهم على اقتسام الأراضي والبيوت واستعباد أصحابها المسالمين، وتحويلهم إلى طبقة سفلى كعبيد أرقاء حيث يستعبد الفلاحون ويسود الجنود.[1] ينعتها (سقراط) بحكومة الشرف وينعتها (أفلاطون) بالنظام الطموحي. وهذا النظام مركب من خير وشر.

فهو خير: لأنه يبقي على تعظيم العنصر الحماسي واحترام السلطة ومظاهر الحكم والطعام الجماعي والتدريبات الرياضية والإعراض عن المهن اليدوية.

وهو شر: لأنه يظهر من خلاله روح التحزب والتعصب وحب التمايز ويفضل الجند على الموسيقى وعلى الفلاسفة العظماء (حيث يعرف الفلاسفة عبر نماذج مختلفة).

صفات التيموقراطي: ولوع بالشهرة والإطناب في المديح، محب للخطباء وليس خطيباً، محب للذات والملذات، ينبذ الثروة في صغره ويتعلق بها في كبره.

وللمرأة: دور كبير في ولادة (التيموقراطي) حيث تقرع الزوجة زوجها أمام أولاده حاثة إياه على التكالب على المناصب التي تساعد وتسارع في الثراء غير المشروع، وأن ينحي الفضيلة جانباً لأنها مجلبة للعار والصَّغَار له ولها، فقد وضعها أمام

(١) لأنه في الأرستقراطية لا أرقاء يونانيين.

زميلاتها في وضع لا تحسد عليه حيث ترى زميلاتها يبدين زينتهن وهن في أبهى صورهن من خلال إبراز حللهن وحليهن والتباهي بأموالهن، وهي أقل زينة ومالاً، مما يجعلها بالتالي أقل منهن شأناً. وتُحَمِّل زوجها تبعات (هوانِها) على الأخريات وتخاطب أولادها أمام أبيهم قائلة: (لو كان أبوكم رجلاً حاذقاً ذكياً/ فلهوياً/ يتقن لغة عصره لشابه الآخرين الذين يسيرون مع التيار كيفما سار ويميلون معه حيثما مال، يقنصون الذهب والمال. وكأن أباكم يجهل الشرائع التي تحكم المدينة). فتتجاذب الطفل قوتان متضادتان قوة أبيه والذي تغذي فيه القسم العقلي. الذي يجب أن يسود ـ وقوة أمه التي تغذي فيه القسم الشهوي السائد. وتتصارع في ذات الطفل القوتان. قوة ما هو سائد وقوة ما يجب أن يسود. وهذا الطفل ليس سيئاً. فهو ابن هذا الفارس النبيل[1] المغلوب على أمره والذي سكن مدينة ساء نظامها فتجنب المرافعات والدعاوى وآثر الخسارة على المشاغبة وارتكاب الرذيلة. ولا يلبث في النهاية إلا أن ينتصر القسم الغضبي والشهوي على القسم العقلي ويغدو الولد فرداً شعاره كشعار الآخرين كما يقول المثل العامي (حط رأسك بين الروس وقول يا قطاع الروس).. وهذا التحول هو إرهاص لظهور الأوليغارشية.

النظام الأوليغارشي: تسيطر فيه فئة محدوة أو عدد من الأسر الغنية يحكمون لمصلحتهم الخاصة. يَدُوس الأوليغارشيون النظام ويستبيحون قدسيته مطبقين شرائعهم بقوة السلاح. وتكالبهم على المال يخلق هوة سحيقة بين الثروة والفضيلة. يقول (أفلاطون): (متى علا قدر الثروة والمثرين بخست الفضيلة والفضلاء أقدراهم).

صفات الأوليغارشي: كاذب.. جبان.. عبّاد للمال.. وأصدقاؤه عَبَدَةٌ له أيضاً. يبذر أموال الآخرين محتفظاً بماله، يسعى لإبقاء الحكم في أيدي الطبقة الغنية الفاسدة. والثروة في هذا الحكم مقياس الجدارة (يعني بجيبك قرش بتسوى قرش) يتخطى هذا الحكم العرف القائل: (لا يجوز أبداً أن يثرى إنسان حتى يستطيع شراء غيره). وبما أن القاعدة تقول: (كل ما عظم راج وكل ما حقر أهمل) نرى حتى المحاربين الأشداء في هذا النظام لا هم لهم سوى جمع المال. فينصب على الحكم الغني غير ذي

---

(١) نلحظ شدة تركيزه على النسل.

الجدارة لغناه ويبعد الفقير الجدير عن الحكم لفقره. لذا فلا مكان للفقراء في هذا النظام أبداً وأخطر ما في هذا النظام أنه يسمح للمواطنين ببيع ممتلكاتهم فيقتنيها سواهم ويغدو الذين باعوا الممتلكات فقراء معدمين صفر اليدين بلا عمل. مستهلكين لا منتجين. يقول (أفلاطون): (متى رأيت متسولين في مدينة فاعلم أن فيها لصوصاً ونشالين وسارقين هياكل). ويكاد يكون / في هذا النظام / سائر الشعب متسولاً باستثناء الطبقة الحاكمة. فتنقسم المدينة إلى قسمين: /أغنياء وفقراء/ أغنياء: حتى التخمة والتقيء (وهم الحكام) وفقراء حتى العدم والانسحاق (باقي فئات الشعب). وأذكر في هذا الصدد جملة قالها (توفيق الحكيم) في كتابه (عصا الحكيم) (الجوع أول ما يولد على الأرض وآخر ما يموت)[1]. مع غياب الطبقة الوسطى غياباً تاماً (ونحن نعرف أن الثورة الفرنسية كانت ثورة الطبقة الوسطى على الإقطاع)[2]. حيث تكيد كل طبقة للأخرى كيد المجروح لجارحه والسجين لسجانه. وبإمكاننا القول: (إن لب النظام الأوليغارشي) يحظر الاشتغال بالحكم على من لا يدفع ثمن المنصب الذي يطمح إليه أو يطمع به (مبدؤهم) (كلما عَظُمَ المبلغ المدفوع عَظُمَ المنصب المطلوب) كمعادلة الأواني المستطرقة. والأوليغارشي يشك بأقرب المقربين إليه. يتصيد زلات الآخرين حتى البسيطة منها والتي لا تصل في أعلى درجاتها إلى (الجنحة) وهو غارق حتى الأذقان في خضم الزلات وكل زلة من زلاّته (جناية عظمى) بحد ذاتها. والحكام الأوليغارشيون لا يستطيعون الدفاع عن الوطن لأنهم إن سلحوا العامة خافوا من تسليحهم أكثر من خوفهم من العدو الخارجي، ولأنهم يأكلون أموال غيرهم أكلاً لمّاً (ويحبون أموالهم حبّاً جمّاً) لا يمكّنهم بالتالي جشعهم من دفع ضرائب الحرب.

و يتم الانتقال من التيموقراطية إلى الأوليغارشية على الشكل التالي: كان للتيموقراطي ولد يفخر بوالده أيما فخار لأن أباه قاد جيوش المدينة في معارك حاسمة، وكان له إسهام كبير في كسب الحرب كما شغل والده ساميات

---

(١) انظر كتاب الهلال الذي يحمل الاسم نفسه ص /١٢/عدد/٢٣٥/.

(٢) انظر كتاب دراسات في النظم والمذاهب. د. لويس عوض ص/٩٠/.

المناصب. وبين عشية وضحاها تنقلب الآية بلمح البصر نتيجة لوشاية لا أساس لها من الصحة، ينساق والده مقيداً بالأغلال إلى المحكمة فيحكم عليه بالإعدام أو النفي أو سلب الحرية، دون التحقق من صحة الخبر وصدق المُخْبِر، ضاربة عرض الحائط بكل مآثره وأياديه البيضاء. وعندما يرى الولد فظاعة ما حل بوالده وهو في مدينة تضرب السرقة فيها أطنابها وتبدي في وضح النهار أنيابها (يبيع الجمل والجمال والرسن معهما أيضاً) ويرمي بالمثالية جانباً رافعاً شعار (الصيد لمن سبق).

النظام الديمقراطي: (سلطة الشعب)

- شجعت الأوليغارشية - كما رأينا - ظهور الطفيليين والبطالين. ولما كانت قوة الحاكمين متوقفة على ثرواتهم كانوا لا يمنعون الشباب من تبذير أموالهم ليقرضوهم المال ومن ثم يسلبوهم بقية أرزاقهم من خلال الفوائد الفاحشة. وعندما يفوز الفقراء على أعدائهم يقتلون البعض وينفون البعض الآخر ويقتسمون مع الباقين حقوقهم ومناصبهم بالتساوي وغالباً ما يكون ذلك عن طريق الاقتراع.

أوصاف الديمقراطي: فعال لما يشاء.. يسالم إن حاربت الدولة وبإمكانه أن يحارب إذا سالمت. غير مضطر لتولي الحكم بحق أو بغير حق. كالسفسطائين الذين طالبوا الشعب باختراق القوانين كلما سنحت لهم الفرصة بذلك. يستعصي على كل نظام لأنه بلا نظام. الجميع متساوون عنده في الحقوق والواجبات رغم الفروق الفردية بينهم (و إذا تساوت المكافآت.. تساوت الكفاءات) تنتهي حرية الآخرين عندما تبدأ حريته لا العكس. ف (جان جاك روسو) يرى أن الفرد الاجتماعي يحد حريته الفردية في طاعة المجموع، والحرية لا تتعارض مع القسر إذ جاء القسر من إدارة وإرادة المجموع ضمن سيادة القانون... ولقد وسَّع (روسو) مفهوم الحرية حتى شمل طاعة القانون[1]. وحتى المحكوم عليهم في هذا النظام يسيرون في الطرق العامة وكأنه لا أحد يراهم. والديمقراطية لا تملك دستوراً كونها معرضاً للدساتير وبالتالي.. تهدم نفسها بنفسها من خلال إفراطها في الديمقراطية. ويرون ما رآه (هيبياس الإ ليسي) أن القانون طاغية يتحكّم في الإنسان. و(الأحداث = الصغار) في هذا النظام لا يحترمون الشيوخ. والوالد

---

(١) دراسات في النظم والمذاهب. د. لويس عوض عدد /١٩٩/ كتاب الهلال ص /٧٥+٧٦ /.

يخاف من ولده والولد يمتهن والديه والأستاذ يخاف من تلاميذه فيتملقهم ويحتقر الطلاب معليمهم ويزدرونهم. حتى العبيد يترفعون على أسيادهم . فالديمقراطية الحقة هي تحرر من الشهوات إلا أن الديمقراطيين يفهمونها على أنها تحرر من القيم والشرائع وارتكاب ما لذ وطاب. حتى في حدودها الدنيا. وفي هذا النظام يحكم الجميع ما عدا أصحاب الجدارة. إن الحرية الزائدة، تقود إلى العبودية الزائدة والحرية المطلقة هي التي تصنع الاستبداد، وطبيعي أن يكره (أفلاطون) الديمقراطية كرهاً يجري مع الدم في عروقه لأنها السبب في قتل أستاذه (سقراط)، حيث سار (أفلاطون) على نهج خطاه والذي كان على يد الديموقراطيين منتهاه (أي سقراط).

النظام الاستبدادي: استجرت الحرية المطلقة في الديموقراطية الإباحة والفوضى وإهانة النظام والحكام وعاشت المدينة تسيباً لم يسبق له مثيل. قانونها أن لا يحكمها قانون وشريعتها أن لا تخضع لشريعة، فيستنجد الشعب بمن يرى فيه الكفاءة والجدارة ليوليه أموره فيعتلي هذا الرجل سدة الحكم كمنقذ ومخلص يهش ويبش أول حكمه.. يلغي الديون.. ويخفف الضرائب.. ويوزع الأراضي على الجميع ويتظاهر بالوداعة والأمان.. ومحبة السلام والوئام وإنصاف المظلومين وإسعاد المحرومين..حتى يتوقع الشعب أن لا منقذ إلاه، وسيحقق الشعب على يده مبتغاه ومرتجاه. وما أن تستتب الأمور ويقبض على زمام الحكم بيد من حديد، وهو يرى رضوخ الشعب له رضوخاً كاملاً، ويعظمه تعظيماً أعمى ـ يكسر شرنقة وداعته مظهراً بواطنه متحولاً من بشري إلى (جلجامش) جديد ثلثاه إله مع غياب (أنكيدو) يحد من جبروته، وشعاره (ابطش تبق الأجدر والأقوى). فيبدأ بفرض الضرائب الباهظة حتى يبقي الشعب في فقر مدقع ويبقيه عبداً لإرادته، ولا هم لشعبه سوى التفكير بتأمين لقمة عيشه اليومية، وبذلك لا يجد الشعب متسعاً للتفكير في طريقة الخلاص منه. يبدأ بشن الحروب الخارجية ليظل الشعب بحاجة إليه كقائد. وإذا ارتاب من أحدهم قذف به إلى الخطوط الأمامية في مواجهة العدو لتصفيته تحت شعار الدفاع عن المدينة وأنه لم يصرف مواطناً وإنما صرف عدواً أخل باستتباب الأمن وبحفظ النظام (كما فعل داود بزوج إيليا بنت شابع كما تقول التوراة) يضطهد الجميع بدعاوى مختلفة، وبخاصة أصحاب الجدارة، فإذا رأى بين أفراد

المدينة نبيهاً كريم النفس عفيفاً لديه بارقة إبداع تجعله في المستقبل ذا شأن، أو رأى مواطناً بإمكانه الوقوف في حضرته منتصب القامة في موقف رجولي، طهر المدينة من رجسه ودنسه ـ فوراً ـ بالطرق المشروعة وغير المشروعة، عكس الطبيب الذي يخرج الداء من الجسم أما هو فيخرج السليم من جسد المدينة. ويذكرنا ذلك بمسرحية الأيدي القذرة (لجان بول سارتر) حيث صور فيها زعيماً شيوعياً مزيفاً يرتكب الجرائم باسم الجماهير ويخرج السليم من جسد المدينة ليبقى الداء مستفحلاً فيها والأراذل يتبخترون في ساحاتها. يفعل ذلك لأنه فقد حس الانتماء للمدينة وأهلها. ومن يفقد حس الانتماء فَقَدْ فَقَدَ شيئين في آن معاً فقد الحس أولاً ـ و(سقراط) يقول: (من فقد حساً ما فقد فقد علماً ما) ـ وفقد الانتماء ثانياً لأن الشعور بالانتماء له شأن كبير في عدم الإيذاء. ومن يشعر بالانتماء إلى ثلة ما لا يؤذيهم حتى ولو حاولوا هم إيذاءه. وبما أن العادة تنشأ من التكرار فإن هذا الطاغية بحاجة إلى لعق الدم الطازج يومياً فيمص دم الشعب بشفتين نجستين حسب التعبير الأفلاطوني، فيغتال أعز أصدقائه، ويتطاول حتى على والده إذا استدعى الأمر ذلك، ويفعل كل باطل، ويكون بذلك أجرأ من (زينون الإغريقي) الذي قال: (إني جبان لأني لا أستطيع أن أفعل ما هو باطل) لأنه لم يعد يستطع التمييز بين الحق والقوة وبين القانون والسلطة.

وعندما يحس بكره الناس له يشعر أنه بحاجة إلى حراس (رماديين) ظاناً أنهم أشد إخلاصاً من أصحاب المبادىء، ويفضل العبد على الحر لأن العبد ـ في رأيه ـ مهما استعلى.. يبقى دونياً[1]. هذا المستبد ـ من خلال سلطته المطلقة ـ يدوس الشرائع كلها. يقول اللورد (أكتون) (السلطة المطلقة مفسدة مطلقة)[2]. يدوسها لخنق الأنفاس التي في الصدور حين يشتم رائحة خطر ينذر بثورة. يقول (أفلاطون): (لا يمكن خنق الثورات بالنفي والقتل بل بشرائع يخضع لها الحاكم قبل المحكوم). ولكي يشعر

---

(١) ونسي بأن الأحرار إذا صادقوا صدقوا، وإن وعدوا وفوا، وإن حرسوا ما ناموا، وإن إتمنوا ما خانوا.

(٢) يرى (جان جاك روسو) أن الأغلال التي يرسف بها الإنسان في كل مكان مصدرها السلطة. انظر كتاب (دراسات في النظم والمذاهب) د. لويس عوض ص/٧٤/ حتى أن هتلر زعم أن العناية الإلهية هي التي أرسلته لإنقاذ الشعب الألماني ليقود الناس إلى النظام العالمي الجديد.

بالأمان أكثر يطلب مزيداً من الحراس فيأتيه الحرس من كل حدب وصوب ومن خارج المدينة أيضاً طمعاً بالمبالغ الباهظة التي تخصص لهم. بمناسبة وغير مناسبة.. يقيم لهم وللمقربين الولائم ويجزل العطاء. وإذا رغب حراسه في الحصول على شيء منه جثوا أمامه على ركبهم يلعقون حذاءه بألسنتهم، وعندما يحصلون على مبتغاهم يعودون كما كانوا غرباء لأنهم بطبعهم (رماديون) لا منتمون وبالتالي فهم أحط من الكلب الذي تحدث عنه (أفلاطون) في جمهوريته. وبما أن الصغير صغير بالنسبة لمن هو أكبر منه فتراهم لا يحسون بصغرهم وصغارهم الا في حضرته وكل ما عداه في نظرهم محتقر وضيع. وإذا ما أردوا فعل شيء في المدينة تحدثوا بلسانه وضربوا بسيفه رافعين شعار (الحق للقوة) فيحققون مبتغاهم. وقد وصفهم (أفلاطون) بـ (أكبر المعتدين) ووصف المدينة التي يحكمها (طاغية مستبد) بأنها(أشقى المدن على الإطلاق).

كلمات مقتضبة

إذا رأى (تشرشل) أن جميع الأنظمة السياسية فاسدة لأن (السياسة لا تتفق مع الأخلاق في شيء) فإن (أفلاطون) ـ الذي لم يفرق بين ما هو سياسي وما هو أخلاقي ـ شأن الفكر اليوناني كله ـ قد استثنى من هذه القاعدة الحكم الأرستقراطي وعزا فساد الحكم كله إلى فساد (العدالة) التي عرفها بأنها (اقتصار الإنسان على ما يخصه). وعلى الرغم من أن بعض الفلاسفة قد رأى أن الإنسان الذي يتنازل عن حريته هو إنسان يتنازل عن إنسانيته فإن الفيلسوف (جروتيوس) رأى أن الناس يتنازلون برغبتهم عن حريتهم للسلطة المهيمنة عليهم من اجل تحقيق عدالة يتفيأ بظلها الجميع.

إلا أن (بركليس) رأى أن أي نوع من أنواع الحكم يبدو سيئاً إذا لم يعد عليهم بالخير، فوجه عنايته إلى سياسة البلاد الاقتصادية ليحقق هذه المعادلة[1].

---

(١) لقد خصص (بركليس) مبلغاً لسائر الشعب حتى لحضور العروض المسرحية التي تعرض في المناسبات والأعياد لقناعته بأن الثقافة ليست حكراً على الأرستقراطين بل يجب أن تكون لفئات الشعب كافة، لأن الأمة المثقفة أمة أكثر وعياً من الأمة الجاهلة.

ختاماً نقول:

إن سائر اليوتوبيات ـ التي حاولت تقليد (أفلاطون) والتي سبقت طوباويته كما ادعى (أرسطو) حين قال: (إن ما جاء به أفلاطون عرفته شعوب منذ أجيال بعيدة) ـ ما هذه اليوتوبيات إلا محاولات للانتقال من الألم إلى الأمل، ومن واقع مر إلى غد مرتجى. محاولات لاستنزال (الفردوس الدانتي).. لإستنزال الفردوس الأعلى حتى ينعم في سكناه الأرضيون. يقول (أناتول فرانس) (لولا اليوتوبيات لظل الناس يعيشون في الكهوف عرايا بؤساء) (اليوتوبيا مبدأ كل تقدم ومحاولة لبلوغ غد أفضل) و(كاوتسكي) رأى (أن الاشتراكية الحديثة تبدأ مع اليوتوبيا).

المصادر والمراجع

١ ـ قصة الحضارة. ول ديورانت /ج٧/ ص/١٠٣/.

٢ ـ من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية. د.محمد عبد الرحمن مرحبا ـ من الجوهر ـ كمال يوسف الحاج ص/٥٩/ دار النهار للنشر.

٤ ـ قصة الحضارة. ول ديورانت /ج٧/ ص/٢٣٩/.

٥ ـ من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية د. محمد عبد الرحمن مرحبا ص/٦٤٢/.

٦ ـ الفكر اليوناني قبل أفلاطون د. حسين حرب / من المقدمة /.

٧ ـ قصة الحضارة. ول ديورانت /ج٧/ ص/٦/.

٨ ـ من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية د. محمد عبد الرحمن مرحبا ص/٦٤٢/.

٩ ـ تاريخ العلم جورج سارطون /ج٣/ ص/٢٠ـ٢١/.

١٠ ـ أصالة الفكر العربي . عمر فروخ ص/٢١/.

١١ ـ ص/٦٣/ وقد أكد ذلك حديثاً روجيه غارودي.

١٢ـ بداية القدماء وهداية الحكماء ص/١٢/.

١٣ ـ الفلسفة في العصر المأساوي. فريدريك نيتشه ص/٤٥/.

١٤ ـ قصة الحضارة. ول ديورانت ص/٤٩٠/.

١٥ـ فلاسفة الشرق والغرب. مصطفى غالب ص/٢٩٦/.

١٦ ـ أفلاطون. جيروم غيث. من المقدمة ص/٧/.

١٧ ـ جمهورية أفلاطون. ترجمة حنا خباز من المقدمة ص/٨/.

١٨ ـ المدينة الفاضلة عبر التاريخ. ماريا لويز بيرنيري ص/٣١/.

١٩ ـ أفلاطون والأكاديمية. جان بران ص/١٢٣/.

٢٠ ـ المصدر نفسه ص/١٢٣ـ١٢٤/ وقصة الفلسفة. ول ديورانت ص/٤٣/.

٢١ ـ المصدر نفسه ص/١٢٤/.

٢٢ ـ أصالة الفكر العربي.. عمر فروخ ص/١٠٣/.

٢٣ ـ قصة الحضارة. ول ديورانت /ج٧/ ص/٨١/.

٢٤ ـ المصدر نفسه ص/٤٥/.

ديموستين..

بين الواقع والطموح

الواقع مشخص معيش، والطموح مجرد ما ورائي. وعلاوة على اختلاف كل منهما عن الآخر في الصفات والماهيات، فإنهما أيضاً يتفاوتان ـ كماً ونوعاً ـ باختلاف الشرائح على الصعد كافة، بل ويتفاوتان بين شخصيتين من شريحة واحدة، وحتى في شخصية واحدة بين فترة وأخرى، وربما بين عشية وضحاها. ويمكننا أن نقول بعامة. إننا نجد بوناً شاسعاً على صعيد الواقع والطموح بين حلم الفقير وحلم الغني وحلم الضعيف والقوي وبين حلم ذي العاهة والسوي. ولعل الأول كثيراً ما يفوق الثاني طموحاً.. منطلقاً من مبدأ المغالاة الذي تحدث عنه الفلاسفة لأن طموح الفقير ينبثق من حرمانه، وطموح الضعيف ينبع من عدم قدرته، وطموح

صاحب العاهة (ينطلق من إحساسه بعاهته) ومن ردة فعله تجاه نظرة الآخرين له من خلالها. ولكي يغدو الطموح واقعاً **لا بد له من توفربعض الشروط من أهمها:**

- **عدم استحالة المطموح به.**
- **وجود إمكانات لدى الطامح تتناسب وسوية الطموح المرغوب فيه لتحقيقه.**
- **وجود أو خلق الظروف الملائمة التي تساعد الطامح على تحقيق مرتجاه ومبتغاه.**

فإذا ما غدا الطموح واقعا أطلقنا عليه اسم الحلم الملغى. أما إذا بقي هدفاً ينشده الطامح بغية جعله واقعاً معيشاً فإنه يبقى في سماواته حلماً (لا ملغى) يداعب الخيال ليس إلا. وما (ديموستين) إلا واحد من أولئك الذين عاشوا واقعاً أليماً ينشد طموحاً كبيراً لا يحد على الصعيدين الفزيولوجي والوطني. فهل استطاع (ديموستين) أن يجعل من طموحه واقعاً وبالتالي حلماً ملغى؟ أم بقي طموحه (سنفونية) يعزفها خياله حتى النفس الأخير؟.

وقفة عند طموحه الفزيولوجي

قبل الحديث عن طموحه الفزيولوجي لا بد لنا من أن نسلط بقعة ضوء على حياته.

ولد (ديموستين) في أثينا/١/ عام (٣٨٤) ق.م. توفي أبوه وهو في السابعة من عمره مخلفاً له ثروة ضخمة تكفيه طوال سنيّ حياته وتزيد. أدخلته أمه المدرسة في طفولته فأعجب بفصاحة الخطباء، وتاقت نفسه إلى أن يصبح خطيباً وقبل بلوغه العشرين من العمر طالب برفع الوصاية عنه مطالباً في الوقت نفسه أوصياءه بالثروة التي بددوها بعد وفاة والده.

وكان النظام في أثينا كما يقول (أنور أحمد) في كتابه (خطباء صنعوا التاريخ) /٢/ يتيح لأي شخص أن يطلب إلى القضاء محاكمة من يرى أنه ارتكب أمراً يستحق عليه العقاب ويقوم الطالب في هذه الحالة بمهمة الدفاع العام. فدخل معهم في نزاع قضائي دام ثلاثة أعوام.

ولا يهمنا اختلاف الآراء بشأن ثروته إن عاد جلها أو بعضها إليه. لكن / الذي يهمنا معرفته / هو أنه استطاع من خلال هذا النزاع أن يكسب خبرة قانونية لا بأس

بها فولد ذلك عنده حب دراسة القانون ليتمكن من القيام بمهمة الدفاع العام. فتتلمذ على يد فصيح الأسلوب، العالم بالقانون (إسايس). لاحظ (ديموستين) أثناء مرافعاته الأولى عجزه عن التعبير عما يريد لإقناع الآخرين بعدالة قضيته. ولقد وصفه كل من كتب عنه بأنه كان (ضعيف الصوت ألكن اللسان مرتبك الإشارات يضحك عليه كل من حضر له مرافعة).

أقض هذا الضعف الفزيولوجي مضجع (ديموستين)، وصار البحث عن وسيلة للخلاص مما هو فيه هو شغله الشاغل. فلف حياته الهم والغم واليأس والقنوط إلى أن شجعه ذات يوم الممثل (ساتيروس) إذ لمس فيه من خلال خطبه الذكاء الحاد والذهن الوقاد والموهبة المتميزة في الخطابة فقال له: إن الإنسان لا ينال عظائم الأمور إلا بعد تعرضه للمصائب الكبيرة لأنه من زوايا الألم يولد الإبداع فابحث من خلال معاناتك عن مفتاح خلاصك. فكانت كلمات (ساتيروس) برداً وسلاماً على (ديموستين) حيث أعادت له ثقته بنفسه ودبت فيه الروح من جديد. فانبرى يفرض على نفسه تدريباً يومياً مضنياً. ولقد قال عنه المؤرخ (بلوتارك): (إن ديموستين شيَّد لنفسه حجرة تحت الأرض وكان ينفرد بها ليتمرن على الخطابة. فكان يحلق نصف شعر رأسه ليجبر نفسه على البقاء في البيت ـ إذا ما سولت له نفسه بالخروج ـ مدة تزيد على ثلاثة أشهر. كما كان يقف أمام المرآة ليختار الإشارات المناسبة للإلقاء ويضع في فمه حجرة يفرك بها لسانه ليحل عقدة ذلك اللسان[1] إضافة إلى صعوده الجبل عدواً وهو ينشد الشعر ويرفع صوته في مواجهة البحر حتى يطغى صوته على هدير الأمواج. إلى أن استطاع أخيراً أن يجعل من طموحه واقعاً. فإذا بهذا الألكن (الذي كاد أن يكون أبكم وكان محط سخرية لمن يسمع مرافعاته) ينفث لسانه سحر الملكين هاروت وماروت من خلال خطبه التي تلهب الحماس وتذكي المشاعر ويصبح لسان حال أثينا كلها. فسما بالنثر اليوناني إلى أن بلغ به درجة الكمال كما وصفه (دايو نيزياس). اتخذ (ديموستين) القانون ـ بعد دراسته له ـ مهنة وعملاً يدر عليه ربحاً وفيراً من خلال المرافعات التي يدافع عنها سواء بنفسه أو من

---

(١) لما لحل عقدة اللسان من تأثير فقد نادى موسى ربه قائلاً: (واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي) (وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً) القصص /٣٤.

خلال ما كتبه لغيره. حتى أنه في بعض الأحايين كما يقول (فلوطرخوس): كان يعد دفاعاً لكلا الطرفين المتنازعين/٣/.

أما إذا كان هو المدافع.. أذهل الجميع وكحل أعينهم بسحر رباني، وشنف أذانهم بقول محكم فصل يجعلهم في حالة تنويم مغناطيسي. قال المؤرخ الكبير (فيلون): (إننا إذ نسمع (ديموستين) لا نفكر في كلماته فهو يبرق ويرعد وهو سيل يجرف كل شيء يمكن أن يعترض سبيله فلا نستطيع أن ننتقده أو نعجب به لأننا نكون قد فقدنا السيطرة على مشاعرنا). ويذكرنا هذا الوصف بالخطبة التي ألقاها (انتوان) على الشعب الإنكليزي في مسرحية (يوليوس قصير) لشكسبير إذ غيرت هذه الخطبة آراءهم بزواية /١٨٠/ درجة /٤/.

لقد استطاع (ديموستين) بفضل جهده الدؤوب أن يجعل من طموحه الفزيولوجي واقعاً وبالتالي حلماً ملغى. فهل استطاع أن يجعل من طموحه الوطني كذلك؟.

لن أتحدث عن أحوال اليونان ونشأتهم لأن موضوعي ليس تاريخيّاً لكني سأجتزئ بعضاً مما قاله (رفاعة الطهطاوي) في كتابه (بداية القدماء وهداية الحكماء) لنتعرف أحوالهم، يقول: (وكان اليونان في بداية حياتهم متوحشين لا تأنس عندهم ولا تمدن، وكان عندهم من الملوك بقدر ما عندهم من الطوائف. لذا فقد كانوا يتحاربون مع بعضهم لكثرة ملوكهم ولم يتمكنوا بسبب ذلك من دفع أحد من الغرباء الأعداء). وهذا يدلنا على آن بدايتهم كانت بداية تفرق وتمزق وقتال دائم فيما بينهم. ثم يضيف قائلاً: (فانتهى الأمر إلى تعاهد أهل اثنتي عشرة من أعظم مدنهم وتحالفوا على الاتفاق. وكان رسل المدن تحضر كل سنة مرة واحدة أو مرتين إلى مدينة (تيرموبوليس) وهناك يعقد مجلس شورى باسم (مفقطيون) نسبة إلى اسم مؤسسه. إذ يبحثون من خلال هذا المجلس (الأمور العصية عليهم ويعاقبون بقوة السلاح كل من شق عصى الطاعة وفارق الجماعة). أيضاً من خلال ما قرأناه الآن يمكننا أن نرى أن أحوالهم قد نظمت بعد فوضى وجمعت بعد تشتت. ثم يقول في موضع آخر: (وفي مدة غياب جبابرة اليونان وأبطالهم وشجعانهم في مدينة طروادة ـ وهي عشرين سنة ـ اختل نظام بلاد اليونان وصار السلب ونحوه) نستشف من هذه العبارة أيضاً أنهم في

أواخر أيامهم عادوا كما كانوا في بدايتها فعاشوا عصر ضياع واختلال نظام وفساد أمور فغدت مقدونيا ـ التي كانت دائماً بحاجة إلى حماية أثينا واسبرطة ـ هي صاحبة الشأن، وهي الآمرة الناهية ليس على أثينا فحسب، بل على بلاد اليونان كلها. (وعلى الرغم من أن المقدونيين يزعمون أنهم من ذرية (هرقل) فإن اليونان لم تعتبرهم كأهالي بلادها، بل كانت تعاملهم معاملة الأعاجم والبربر)[1].

نهوض مقدونيا على يد فيليب

يتفق (جورجي ديمتري سرسق) في كتابه (تاريخ اليونان) مع من كتبوا حول اعتلاء فيليب عرش مقدونيا على أنه عندما توفي الملك (برديكاس الثالث) أخو فيليب حاول رجلان كل منهما عدو للآخر أن يتولى المملكة عوضاً عن ابن(برديكاس) الصغير (أمنتاس). فبلغ ذلك سمع (فيليب) وكان عمره آنئذ (أربعة وعشرين عاماً) لكن رجاحة عقله وسعة إطلاعه تفوقا سنة بكثير، وذلك لما نهله من علوم ومعارف (أبا مننداس)/٥/. فخرج من (طيوه) حيث كان في قتال مع العدو وقصد مقدونيا وتولى الحكم كوصي للعرش نيابة عن ابن أخيه القاصر. وما هي إلا أيام قليلة حتى جعله أهل مقدونيا ملكاً مستقلاً عليهم لحاجتهم الماسة لمن يرتب مملكتهم وينظمها. وهذا لا يقدر عليه ملك صغير طفل قاصر مثل (أمنتاس) لأن مقدونيا كما وصفها (ول ديورانت) في كتابه (قصة الحضارة) (كانت بلاداً همجية يسكنها أشداء جبليون). بدأ فيليب بتحسين الأمور في (مقدونيا). فرتب العساكر وعاملهم برفق حتى دعاهم بـ (الأصحاب)، وعاش عصر تسامح لم يسبق لمقدونيا أن عاشته، وذلك ليكسب ود وثقة الجميع. فلقد روي عنه أنه سمع بأذنه أسيراً شتمه جهاراً فبدلاً من أن يعاقبه كافأة وأجزل له العطاء مما حدا بالأسير أن ينقلب من عدو وحاقد إلى محب وعون وسند[2]. وعلاوة على معرفته بأمور التدبير والسياسات

---

(١) (اليونانيون يقولون عن غير اليونانيين بربراً) و(العرب يقولون عن غبر العرب أعاجم) أما (اليهود فيقولون عن غير اليهود غوييما)ـ (حيوانات أو بهائم).

(٢) ولعل تصرفه هذا كثيراً ما كان يقوم به الأذكياء. إذ لما شتمت معاوية حاقدة عند الكعبة لم يعاقبها.

فلقد كان على قدر كبير من الشجاعة والبراعة والحكمة والحنكة لا يشهر السلاح إلا مضطراً وذلك بعد استقراء لمجريات الأحداث المحيطة به ليكون النصر حليفه مئة بالمئة. ولقد ساعده على توطيد أركانه وتحقيق طموحاته وجود الذهب في مقدونيا فكسب به أنصاراً جدداً وبخاصة خارج مقدونيا وكان يقول (كلما كثرت أموال المرء أمكنه الحصول على كل ما أراد). إذ مكنه هذا الذهب من شراء بعض النفوس الضعيفة التي سلمته مقاليد بلادها من دون أن يريق في احتلالها قطرة دم واحدة. أمام هذا الخصم العنيد والداهية الشديد وجد (ديموستين) ناهيك عن وجوده زمن ضياع آثينا وتفرقها وتمزقها وطمع الآخرين بها. ولئن وجده الآخرون خطيباً متمكناً لا يشق له غبار فلقد وجده (هيرلاند) /٦/ سياسياً بعيد النظر يستشف الحدث قبل وقوعه. ف (ديموستين) اشتهر لا بتفوقه في الخطابة فقط بل بنظرته السياسية أيضاً حيث مكنته هذه النظرة لوحده من بين سائر معاصريه من التنبؤ بالخطر الذي يتهدد اليونان من نهوض مقدونيا ، فأولع بالسياسية ، أو لنقل إن واقع آثينا الأليم وأطماع مقدونيا بها دفعه للانخراط في السياسية حتى العظم.

لقد كان (ديموستين) فخوراً بآثينيته فخاراً لا يعلو عليه فخار ، لأنه كان يرى أن آثينا هي الزعيمة الوحيدة الطبيعية لبلاد اليونان. فحاول نفخ الروح في الآثينيين ليستعيدوا أمجادهم من جديد ، فطالب أول ما طالب بإصلاح القوانين وإجراءات التقاضي.

(فقدم برنامجاً علمياً لإصلاح النظم السائدة بصورة تعزز الديمقراطية وتزيد من ثروة الدولة وتضاعف قوتها العسكرية)/٧/. صار يتخذ من فصاحته سلاحاً يشهره في وجه فيليب محرضاً اليونان للثورة عليه مما جعل خطبه تشتهر باسم الخطب الفيليبية أو الفيليبيات. ومن يتحدث عن (ديموستين) لا بد له من أن يقف طويلاً عند خطبه لما لها من قيمة على الصعيدين الأدبي والسياسي ، حيث وصفته الموسوعة العربية الميسرة بأنه ليس أعظم خطيب أغريقي فقط ، بل أعظم خطباء الأرض

بل اشترى سكوتها بالحسنى واجزل لها العطاء مما حدا بها أن تكون معه بعد أن كانت عليه.

قاطبة. يقول في خطبته الأولى[1]: (أيها الآثينيون، حتى متى سكوتكم وإخلادكم إلى التواني؟ متى تدب الحياة في عروقكم؟ ويسري الشعور بالواجب في أعصابكم؟ ماذا تنتظرون؟؟ هل تنتظرون معجزة تهبط من السماء عليكم؟! أي دافع للنفوس الأبية لعمل الواجب أقوى من تهديد مجد آثينا بالزوال وشرفها بالتمزق وكلمتها بالتفرق؟!.... إنه لعار لن يفارقكم ولن يمحوه الموت يوم يواريكم في قبوركم. هل الوطنية أن تكتفوا بالذهاب هنا وهناك يسأل بعضكم بعضاً عما جاء من أنباء فيليب؟؟ فواحد يقول إنه مات والآخر يقول: إنه مريض. عجباً!! عجباً يمزق القلب.. أي نبأ هناك سوى أن (مقدونيّاً) يسعى لقهر آثينا وسحق مجدها واستعباد اليونانيين جميعاً؟ ماذا عسى يصيبكم من الغنائم لو مرض فيليب أو مات؟ أو انقضت على رأسه مصيبة من السماء؟ وحق الآلهة لئن لم تهبوا من رقادكم ليسلطن عليكم فيليب آخر ليس دون هذا في الشدة عليكم. فإن فيليب ما قوي اليوم إلا بضعفكم ولا تحرك إلا بسكونكم).

ثم بدأ يعنفهم ليرفضوا الاعتماد على الجنود المرتزقة لأنه لا يمكن أن يدافع عن البلاد دفاع المستميت إلا أبناء البلاد، فقال: (لا تقولوا المرتزقة. نريد رجالاً أحراراً أنبتتهم آثينا.. يرون سعادتهم في عزها وشقاءهم في ذلها. من أرضها كانت بدايتهم، وفي أرضها نهايتهم. منها خلقوا... وإليها يعودون تارة أخرى. أولئك هم أباة الضيم الذين يبذلون دماءهم لتخليص شرفها من الأذى). ثم بدأ يفند لهم نوايا فيليب الذي يخطط للقيام بغزوة مفاجئة عليهم قائلاً: (إن الحرب لا ضابط لها ولا قانون. فهل تريدون الانتظار حتى يأتيكم نبأ الإغارة المفاجئة فيضيع الوقت.. إن كنا نفعل ذلك فيما مضى فلأنه لم تكن لدينا تجارب ولم نكن قد ابتلينا بمثله، أما الآن وقد عظم الخطب وتفاقم الأمر، وأصبح فيليب على أبوابنا فلقد وجب علينا المبادرة إلى تغيير هذه الخطة الخرقاء). ولقد تزامنت هذه الخطبة مع تهيؤ فيليب للاستيلاء على حصن الآثنيين بالقرب من بيزنطة. فَسَرَتْ هذه الخطبة في الآثنيين سريان النار في الهشيم فهبوا يجهزون الأساطيل لحماية ذلك الحصن مما حمل فيليب على أن يعدل عن غزو الحصن، فغير خطته وهاجم

---

(١) أورد بعضاً من مقاطعها فقط.

(أولنتوس) في بحرايجه لأنها المدينة التي بقي في وسعها أن توقف زحفه، فاستنجدت (أولنتوس) بـ (آثينا) فهب (ديموستين) يُعَرّي من خلال خطبه سياسية فيليب الطامعة ويؤكد للأثينيين أن مصلحتهم تقتضي عليهم مقاومته فقال: (لن تكونوا مخطئين أيها الآثينييون إذا أخذتم على عاتقكم عبء القتال من اجل الحرية والسلامة للجميع). ولكي يدغدغ مشاعرهم أكثر.. بدأ يحلف لهم بعظمة آبائه الأولين الذين قابلوا العدو عند (ماراتون)[1] بأنهم إن لم يتصدوا لفيليب ليهلكنَّهُم فيليب عن بكرة أبيهم، لأن الموت لا محالة ملاقيهم. فاستجاب الآثينييون لندائه وأرسلوا حملة من الجنود المرتزقة لمساعدة (أولنتوس) غير أن فيليب بحكمته وسياسته واعتماده على اللعب وراء الكواليس استطاع أن يشتري بالمال أكثر قضاة (أولنتوس) ففتحوا له أبوابها وسلموه المدينة بأسرها. فما كان من فيليب ـ بعد أن أحكم قبضته على المدينة ـ إلا أن دمرها وفعل بها ما فعل (يشوع بن نون) بسكان (أريحا) حيث أباحها للسلب والنهب وأقام الحفلات على أنقاضها. ودعى لحضور هذا الحفل الكثير من أهالي اليونان لا حباً بهم أو تعظيماً لقدرهم، بل (لغاية في نفس يعقوب)، فأحسن استقبالهم واستمال بالعطاءات قلوبهم، مما حدا بهم أن يصبحوا أبواق دعاية له بعد عودتهم إلى بلادهم. وبسقوط مدينة (أولنتوس) وإخفاق آثينا في إنقاذها بدأ يسطع نجم الحزب الآثيني المنادي بمسالمة فيليب، حيث ضم هذا الحزب خليطاً من مخلصين ومنافقين ومن أبرزهم (ديمادس) الذي كان لسان حال فيليب أينما حل وحيثما ذهب و(فوسيون) الآثيني الذي كان دائما يقاطع (ديموستين) حتى نعته (ديموستين) بقطاع الكلام، والذي رأى أن فيليب قد فعل ما أوجب احترامه عند اليونان. فاضطر (ديموستين) أن يساير الأوضاع الجديدة ويرضخ لدعاة السلم آنياً وذلك من خلال آرائه التي بدأ يعلنها في المجلس المتكون من خمسمئة عضو وهو واحد منهم. فأرسلت آثينا وفداً يطلب الصلح مع فيليب على أن يكف الطرفان عن الحرب مع احتفاظ كل منهما بما في يده من البلاد. وكان ذلك.. إلا أن هذا لم يدم طويلاً لأن الصلح لا يتناسب وسياسة فيليب التوسعية إذ حاول بهدوء عزل

(١) تقول الموسوعة العربية الميسرة ص /١٦١٢/ قرية أو سهل في بلاد الإغريق القديمة على بعد /٣٢/كم إلى الجنوب الشرقي من آثينا حيث انتصر الآثينيون والميلانيون بقيادة (ملتياوس) على الفرس /٤٩٠/ ق. م وجاء في الأساطير أن هذا الحفل شهد انتصار ثيثيوس على ثور كبير.

آثينا شيئاً فشيئاً عن باقي المدن الإغريقية. أدرك (ديموستين) ذو العين النفاذة البصيرة ما يرمي إليه فيليب، فبدأ ـ على الرغم من كل الظروف التي تحيط به ـ بفضح النوايا الفيليبية ويحرضهم على القتال. وفيما يلي أورد بعض مقاطع من الخطبة: (إن الصداقة التي تعقد بين الجمهوريات وبين الطغاة ليست بالصداقة الوثيقة التي يركن إليها. ماذا تريدون؟.. الحرية...؟ ألا ترون أن ألقاب فيليب نفسها هي أنكار لهذه الحرية التي تنشدونها؟ إن كل حاكم مستبد هو عدو للحرية وعدو للقانون ؟ إنكم تحاولون تجنب الحرب ولكني أخشى أن تقودكم هذه المحاولة إلى الوقوع تحت نير الاستعباد.. اذكروا أولاً أن فيليب نقض عهدكم وهذه حقيقة لا مراء فيها ولا محل للخلاف عليها. ثم اذكروا أيضاً أنه عدو آثينا الألد، عدوها الذي يكره أرضها وأسوراها. إن أعظم ما يخشاه فيليب ويمقته هو حريتنا ونظامنا الديموقراطي. يجب أن يسارع كل منكم إلى التبرع بنسبة مما يملك. ثم انهضوا بالجيش واحتفظوا بقوات مسلحة قوية حتى إذ ما تهيأ فيليب لغزو الإغريق وجدتم الجيش اللازم لصده وإمداد حلفائكم. هل تظنون أن فيليب لن ينالكم بأذى إذا ظللتم وادعين لا تحفلون بما يعمل؟ لو أكد لكم ذلك أحد الآلهة فإني لا أشير به عليكم، فماذا تنتظرون؟! هل تنتظرون حتى تروا رجال فيليب في طرقات آثينا يلقونكم أرضاً بالصفع والجلد لا قدرت الآلهة؟ إن مجرد النطق بهذه الكلمات لهو ذل ومهانة). وكما أن (ديموستين) يعرف أنه أمام خصم عنيد فإن فيليب أيضاً يعرف أنه أمام خصم لا يقل عناداً عنه. خصم إن خانته الظروف المحيطة به فإن إمكاناته الشخصية كفيلة بتعويض كثير من هذا النقص. فبدأ يرسل له في الخفاء أعوانه ليشتري سكوته بالمال كما اشترى غيره فما أفلح، لأن أمثال (ديموستين) من الشرفاء لا يساومون على عرضهم أو كرامتهم أو حرية بلادهم وعزّتها. ويكفي (ديموستين) فخراً إعجاب فيليب به في أكثر من تصريح من مبدأ (والفخر ما شهدت به الأعداء). استمر فيليب في حملاته فاحتل أكثر مدن تراقياً مما حدا بالفرس أن تنهض وتتصدى له. لكن (ديموستين) الذي كان لا يملك من القوة إلا لسانه قام مطالباً في خطبه الفيليبية الأخيرة بتخليص (برنتوس) و(بيزنطة) من فيليب، وتبرع للآثينيين بسفينة مجهزة بالعدد والعتاد لتسير مع الأسطول الذي جهزه اليونان المكون من ثلاثين سفينة. فاضطر أيضاً إلى رفع الحصار عن بيزنطة، فامتلأت قلوب الآثينيين غبطة وسروراً

وأحسوا بعظمة (ديموستين) الذي أوعز لهم بذلك، فارتفعت منزلته عندهم أكثر، وخبا بالمقابل نجم الحزب الموالي لمقدونيا، فأهدوه تاجاً من الذهب تقديراً منهم لجهاده. لكن فيليب الذي كان لا يكل ولا يمل سعياً لتحقيق أطماعه بدأ يستولي بهدوء وعلى فترات.. على بعض المدن التي تعترض سبيله للوصول إلى اليونان، وهكذا دواليك حتى استطاع أن يقف وجهاً لوجه مهدداً آثينا. أحس (ديموستين) بالخطر الذي غدا قاب قوسين أو أدنى فانتفض كالملدوغ يدعو اليونانيين للحرب ثانية وسافر إلى (بيوثيا) فحملها بقوة حديثه السحري على التحالف مع آثينا ضد فيليب. والتقى الجيشان، لكن أنى لجيش (آثينا) و(بيوثيا) الصمود أمام جيش مدرب جهزه فيليب بروية ليتناسب وتحقيق طموحاته فهزم فيليب خصومه هزيمة نكراء وعاد بعد نصر ساحق ثانية ليحتفل بهذا النصر الذي حققه على آثينا. وبينما الضحكات تعلو والكؤوس ترتفع والشراب يدور بالرؤوس.. إذ بصيحة شقّت عنان السماء فصمت الجميع ونظروا مشدوهين إلى قائدهم فيليب وهو يتلوى من طعنات خنجر (بوزانياس) الذي قتله لأمر اجتماعي لا سياسي لأنه لم ينصفه في مشاجرة /٨/. فتوفي فيليب على أثر هذه الطعنات بعد أن حكم مقدونيا أربعاً وعشرين سنة. وكشأن كل الشعوب المستضعفة المغلوبة على أمرها / عندما تسمع بموت الطاغية التي سلب منها حريتها / عمت الفرحة بلاد اليونان كلها عندما سمعت بموت (فيليب). وكلل الاثينيون (ديموستين) في المجلس بالغار والفخار وعاد (ديموستين) يحثهم على النهوض بآثينا ومقارعة الإسكندر الذي خلف أباه على عرش مقدونيا. فأذعن الآثينيون لمطالبه وأرسلوا رسلهم إلى بلاد اليونان قاطبة للدعوة إلى مقارعة الاسكندر. فاعلنت مدينة (ثيبيا) تمردها عليه لكن الاسكندر الذي نهل المعارف فأتقن نقلها على يد المعلم الحكيم أرسطو. كان على الرغم من صغر سنه لا يقل شأناً عن كفاءة أبيه، بل حتى أن الأب عبر التاريخ صار يُعْرَفُ عن طريق الابن. فسار لإخماد الثورات التي قامت عليه في آسيا الصغرى وزحف على (ثيبيا) وفعل بها ما فعل أبوه بمدينة (أولنتوس)، إذ نكل بأهلها وجعل عاليها سافلها ولم يبق منها سوى بيت الشاعر (بيندار)[1]، فلف الرعب أرجاء آثينا ثانية وبدأت تستعد

(١) ويذكرنا ذلك أيضاً بما أدعته التوراة من أن (يشوع بن نون) عندما فتح أريحا نكل بسكانها ولم

خوفاً من غزو مقدوني مفاجئ. لكن الاسكندر الذي كانت نظرته الثاقبة كنظرة أبيه آثر أن لا يغزوها. وإنما طالبهم بتسليم زعمائهم وقوادهم وخطبائهم وفي طليعتهم (ديموستين). فانعقد المجلس سريعاً وابتدأت المشاورات فوصلوا إلى طريق مسدود. إذ ليس أمام المجلس سوى حلين إما الرضوخ للمطالب والنجاة بآثينا أم رفضها وبقاء آثينا عرضة لردة فعل الاسكندر نتيجة الرفض. فقطع (ديموستين) حيرتهم قائلاً: (إن الذئاب التي عاهدت الرعاة مرة على أنها لن تهاجم القطيع إذا سلمها الرعاة كلاب الحراسة.. ما أن سلمها الرعاة الكلاب عن طيب قلب حتى هاجمت الذئاب القطيع كله وفتكت به). فأعلن المجلس على الفور رفض مطالب الاسكندر لكنهم أرادوا محاولة امتصاص نقمته بالحسنى فأرسلوا وفداً إلى الاسكندر ليطلب منه العفو والصفح /٩/. وبعد أخذ ورد نجح الوفد في مسعاه وتم الصلح بين آثينا والاسكندر. وأثناء انشغال الاسكندر في حروبه الآسيوية إذ وصل إلى الهند وقال كلمته الشهيرة (ماذا بعد؟)، انتهز هاريبال وزير ماليته الفرصة فاستولى على مبلغ طائل من المال جهز به جيشاً من المرتزقة وهرب به إلى آثينا ليشعل الثورة فيها على الاسكندر، فبذل الأموال الكثيرة ليستميل قلوب الوعاظ فيها فما أفلح لا عن طريق (فوسيون) الذي كان من الحزب الموالي لمقدونيا، ولا عن طريق (ديموستين) الذي كان مضطراً لاتباع سياسة المداراة والحذر خوفاً من بطش الاسكندر حتى لا يعرض آثينا إلى الدمار الذي تعرضت له (ثيبيا) على يد الاسكندر، أو إلى الدمار الذي تعرضت له مدينة (أولنتوس) على يد أبيه من قبل. لكن (هاريبال) الذي لم يستطع إغراء وإغواء خطباء آثينا بالمال. دخل مجلسها العام وأعلن أنه يضع نفسه ورجاله رهن إشارة آثينا إن هي هبت في وجه الاسكندر مُوْهِمَاً (المجلس) بأن قواد الاسكندر قد سئموا سياسته وهم بانتظار من سيعلن إشارة البدء للثورة عليه. فانقسم الآثينيون بين مؤيد ومعارض. بينما هم على هذا الحال جاء وفد أرسلته (أم الاسكندر) والقائد المقدوني العام (أنتيباتر) الذي خلف الاسكندر فيما بعد يطالب المجلس بتسليم (هاريبال) مع المال المسروق فوقعوا في الحيرة ثانية، ولكنهم بعد مناقشة قصيرة وافقوا على اقتراح (ديموستين) بأن يقبض على (هاريبال) حتى عودة الاسكندر مع الاحتفاظ

يستبق فيها حياً سوى بيت الزانية رحاب والجاسوسين.

بالمال في (الأكروبول)[1]. فقبض على (هاريبال) وأودع المعتقل ولكنه استطاع أن يفر من معتقله، وعندما قصدوا (الأكروبول) ليتفقدوا المال لم يجدوا من المال شيئاً فوجد خصوم (ديموستين) فرصة مناسبة ليصطادوا في الماء العكر بل عكروا الماء ليصطادوا بها حيث كان المال محفوظاً بإشراف لجنة يرأسها (ديموستين) فاتهموه ـ إضافة إلى إهماله الجسيم في مراقبة الحرس ـ بأنه قد قبل رشوة من (هاريبال) لقاء مساعدته على الهرب[2]. فطلب (ديموستين). من المجلس تشكيل لجنة للتحقيق في الموضوع وأعلن أنه يقبل حكم الموت إذا تبين أنه أخذ هذا المال. لكن بعد التحقيق ـ وبكل أسف ـ نتيجة للضغوط والرشاوات التي مارسها أعداؤه بغية إدانته والطعن في عفته أدان المجلس (ديموستين) على الرغم من عدم وجود أي دليل مادي ولو كان بسيطاً يثبت إدانته فحكم عليه أن يدفع غرامة مالية قدرها خمسون وزنه فغص (ديموستين) ألماً وحبس

---

(١) كان الإغريق القدماء يطلقون كلمة (أكروبول) على الموقع الجبلي الذي تقوم عليه المدينة أو معابدها واشهرها جميعا (أكروبول) آثينا. وهو مرتفع صخري جنوبي المدينة ويعلو عن مستوى السهل حوالي /٥٥/ م ويمتد طولاً /٣٠٤/م وعرضاً /١٥٢/ م تقريباً. وينحسر جانباه الشمالي والشرقي عند هوة سحيقة وينحدر جانبه الجنوبي بميل شديد. ويمكن ارتقاؤه من الجانب الغربي. خصص منذ عهد بعيد لإقامة الهياكل لآلهة المدينة وبعد أعمال التخريب التي سببتها الحروب الفارسية اكتسب أكروبول آثينا مظهراً رائعاً منذ أمر (بركليس) بتعميره فأعيد بناء بوابته الفخمة (البروبولايا) ومعبد الباراثون وأنشىء إلى جانب البوابة معبد آثينا المنتصرة حوالي /٤٥٠/ ق. م بدأ إنشاء معبد الأرختيوم شمال الباراثون. راجع الموسوعة العربية الميسرة ص/١٨٨/.

(٢) أنا بكل تواضع لا أوافق رأي (ول ديورانت) لأنه لو كان المال غاية (ديموستين) لقبله (ديموستين) بل وأخذ أضعاف أضعافه من فيليب لقاء سكوته ولكان من المقربين إليه. وإذا سلمنا جدلاً بأن (ديموستين) قد هرب (هاريبال) ـ وهذا لا أؤيده أبداً. فإنه لم يهربه حباً بالمال بل ليبقيه حياً كونه أحد أهم معادي الاسكندر. ولئن قال ديورانت في كتابه قصة الحضارة ج/٧/ ص/٤١٣/ بأن زميله (هبيريدترو) كان يتلقى المال من الفرس فما ذلك إلا ليجد باباً يسد فيه حاجة إشعال النار على فيليب. حتى أن (ديورانت) قد اتهمه بأنه مستأجر إذ قال: (بأنه بلغ من النزاهة درجة رضي معها التعذيب والموت في سبيل الآراء التي استؤجر من أجلها ج/٧/ ص/٤١٢/ وأنا أرى أن هذه الكلمة (استؤجر) كبيرة جداً على (ديموستين) الذي كان يدافع عن آثينا دفاع المستميت بها ولها لا دفاع المستأجر.

دمعه في مآقيه إذ عز عليه أن يتهم وهو البري لأن ذلك يسقطه معنوياً في أعين الآثينيين. فكان هذا الاتهام بمثابة قاصمة ظهر له فهرب إلى أحد الجزر وأقام في المنفى والغصة في حلقه تكاد تقطع عليه الأنفاس. كان الإسكندر في هذه الأثناء يصارع شبح الحمى حيث كان في أواخر أيامه بين مد الحياة وجزر الموت إلى أن وافته المنية عام /٣٢٣/ ق. م في بابل. وعندما بلغ الآثينيين موت الإسكندر هبوا هبة رجل واحد للخلاص من الحكم المقدوني. فما كان من المجلس العام إلا أن أرسل في طلب (ديموستين) عاد (ديموستين). إلى آثينا التي هبت عن بكرة أبيها لاستقباله (قضاة وحكاماً وكهاناً وشعباً) فأسقط هذا الاستقبال العقوبة المعنوية عن (ديموستين)، تلك العقوبة التي هي بالنسبة له لا أقسى ولا آلم، وأعفاه المجلس من دفع المبلغ (بصفة غرامة)، وقبل أن يقدمه بشكل منحة كضحية للإله (زيوس) كما هي العادة في آثينا لكل من يريد أن يقدم ضحية، فدفع خمسين وزنة راضياً لأنها قدمت بشكل منحة لا بصفة غرامة[1]. وما لبثت الحرب إلا أن وضعت أوزارها من جديد بين (أنتيباتر) خليفة الاسكندر وبين (البلاد الإغريقية) الثائرة على حكمه وعلى رأسها (آثينا)، فاستطاع (أنتيباتر) بفضل الجيش المدرب القوي من أيام فيليب مروراً بالاسكندر وانتهاء به، استطاع أن يقهر البلاد الثائرة في معركة (كرانون) عام /٣٢٢/ ق. م. واتجهت جيوش (أنتيباتر) نحو آثينا، وتتالت وفود الدول المنهزمة طالبة الصفح من (أنتيباتر)، ومن الجملة وفد (آثينا) فوافق (أنتيباتر) على عدم مهاجمة آثينا شريطة تسليمها له بعض الزعماء الوطنيين وعلى رأسهم (ديموستين). واستطاع (ديمادس) أكبر خصوم (ديموستين) والذي سطع نجمه هو و(فوسيون) لأنهما من الحزب الموالي لمقدونيا مع (أسكينر) كما أسلفنا، فاستطاع أن يحمل المجلس على قبول الشرط الذي اقترحته مقدونيا بتسليم (ديموستين)..

شعر (ديموستين) بأن موافقة المجلس على تسليمه هي طعنة له في الصميم. ولامناص من موت قادم محتم.

فهرب ـ لكن هذه المرة هرب إلى المعبد ـ والتجأ إلى معبد (بوزيدون) فأرسل (أنتيباتر) الممثل العملاق (أركياس) للقبض عليه. فحاصر وجنوده المعبد من كل

(١) **ولعل هذا تأكيد أخر بأن المال لم يكن هدفه.**

جهاته لكنهم لم يدخلوه لأنه كان مقدساً عند اليونان جميعاً.

حاول (أركياس) بالكلام المعسول الخلبي إقناع (ديموستين) الذي عجم عود الحياة بحلوه ومره فلم يغره معسول الكلام، فنظر إلى (أركياس) نظرة ملؤها السخرية قائلاً: (إنك يا أركياس لم تستطع يوماً أن تؤثر في بتمثيلك ولن تستطيع اليوم أن تؤثر في بوعودك). فهاج أركياس وماج وبدأ يتهدد ويتوعد، فأجابه (ديموستين) بكل هدوء: إنك تتكلم الآن كمقدوني أما قبل ذلك فقد كنت ممثلاً زائفاً). ثم أضاف (انتظر حتى أكتب لأصدقائي). وانسل (ديموستين) إلى داخل المعبد تأكله عيون محاصريه، وجلس أمام منضدة في الهيكل ومسك بالقلم كمن يريد أن يكتب ووضعه بين أسنانه وبدأ يعضه كعادته في الكتابة عندما يريد أن يفكر بعمق. وما هي إلا لحظات حتى شاهد محاصروه تقلص عضلات وجهه، ثم أمال برأسه إلى الخلف واستلقى بعد أن سحب عباءته متثاقلاً وغطى بها وجهه والواقفون حول المعبد المقدس ينظرون إليه ذاهلين. فقال قائل منهم: إنه الخوف صنع به ذلك. وقال آخر: بل هي حيلة. وقال ثالث: إنه يمثل. وكثرت الأقاويل مما حدا (بأركياس) إلى دخول حرم المعبد مشجعاً (ديموستين) على الخروج ومكرراً وعوده الخلّبية له، فأزاح (ديموستين) عن وجهه العباءة ونظر إلى وجه (أركياس) بعينين لا نضّاختين مطفأتين غائرتين غائبتين وشفتين مرتجفتين. فساعده (أركياس) على النهوض، فقال له (ديموستين) بعد أن شعر بأنه قاب قوسين أو أدنى من الموت: (يمكنك الآن أن تلعب في المأساة دور (كريون) /١٠/ كما يحلو لك، ويستطيع أعداء آثينا أن يطرحوا جثتي للجوارح من غير اكتراث. ثم صمت قليلاً وهو يبلع ريقه ويستجمع قواه ليلقي كلماته الأخيرة. ونظر بصعوبة بالغة نحو الأعلى نظرة يحاول بها شق طريقة إلى الملكوت وقال: (أيها الإله الكريم بوسيدن. ها أنذا أترك معبدك ومازلت حياً كي لا أسمح لـ (انتيباتر) ورجاله ولأعداء آثينا أن يدنسوا قداسته). فسرى السم في سائر جسده لكنه كابر وحاول الخروج من المعبد معتمداً على القوة المتبقية من قواه لكنه ما استطاع . مد يده كمن يطلب العون فسحبه (أركياس) من يده والمحاصرون يراقبون هذا الحدث الدرامي وهو يشرف على نهايته. ولما وصل عتبة الآلهة خطى خطوة.. ثم سقط كما يسقط الشهداء. وهذا السقوط هو السقوط

الوحيد الذي يكون فيه السقوط نحو الأعلى. وأسلم الروح بعد أن لفظ بغاية الصعوبة وشق النفس كلمة ضعف من أجل قوتها، وتعذب من أجل راحتها، وشقي من اجل سعادتها، وأهين من أجل صون كرامتها، ثم مات من أجل استمرارية حياتها. نطق حروفها الخمسة وبين كل نطق حرف وحرف شهقة روح وانطفاءة جسد (**آثينا**..... آ..ث..ي.. **ن** ..ا..).

بهذه الخاتمة المفجعة تنطوي صفحة واحد من أهم العشاق الذين أحبوا آثينا حب العبادة. عاشق استطاع بفضل إمكاناته وملكاته الشخصية أن يجعل طموحه الفزيولوجي واقعاً معيشاً وبالتالي حلماً ملغى، لكنه لم يستطع ـ على الرغم من تقديم حياته فداء ـ أن يجعل من طموحه الوطني حلماً ملغى لأن الظروف التي كانت تحيط به وتلف آثينا لم تكن مناسبة لتحقيق ما يريد، فحاول خلق الظروف المناسبة فأخفق لأن هذه الظروف لا يستطيع تخطيها أو إلغاءها فرد واحد وإنما بحاجة إلى الكل والكل كان في شغل عنها.

فكان بحق من أهم المناضلين أيام زمانه والذين خلدتهم آثينا. ومن يرَ تمثاله في متحف (الفاتيكان) الآن، والذي يعد رائعة فنية يرى جسداً نحيلاً ووجهاً عليلاً بدا عليه الهم والغم وكأن كل نصر أحرزه (فيليب) أو (الاسكندر) أو(أنتيباتر) فوق أرضه قد أحدث في وجهه أخدوداً عميقاً.. ومن يرَ تمثاله لا يسعه إلا أن يقف أمامه خاشعاً في احترام وإجلال قائلاً: لو لم يكن لكل أمة ـ في مرحلة نضالها السلبي ـ ديموستينها...[1] لما استطاعت أمة من الأمم المغلوبة على أمرها أن تثور. وأن تفتح نافذة للنور لتنال استقلالها وحريتها. لكن (ديموستين) ـ وإن لم يستطع تحقيق طموحاته عبر حياته ليضع آثينا في المكان الذي يجب أن تكون فيه ـ فإنه بموته قد علم الآثينيين ـ بل والعالم أجمع ـ أن الأمة التي تعرف كيف تموت ـ هي الأمة التي تعرف كيف تعيش.

---

(١) ولو وجد ديموستين زمن فخار الآثينيين لاستطاع أن يوقف طمع أهل مقدونيا بهم. انظر كتاب بداية القدماء وهداية الحكماء. رفاعة الطهطاوي ص/١٢١.

المصادر والمراجع

١ ـ آثينا كان اسمها في بادي الأمر (قفروبيا) نسبة إلى بانيها (قفروبس المصري). انظر كتاب بداية القدماء وهداية الحكماء لرفاعة الطهطاوي.

٢ ـ سلسلة اقرأ رقم /٤١٣/.

٣ ـ قصة الحضارة. ول ديورانت ص/٤١١/.

٤ ـ انظر مسرحية (يوليوس قيصر) أو كتاب أعلام المسرح الأوربي. محمد غلاب. ص/٤٢/ حتى /٤٥/.

٥ ـ أبا منتداس نقلاً عن الموسوعة العربية / ت عام ـ ٢٦٢/م قائد إغريقي من طيبة في بيوثيا اثبت انتصاره على اسبرطة في موقعه (ليوكترا) /٢٧١/ ق. م بفضل التعديلات التي أحدثها في الخطط الحربية المألوفة. وانتصر ثانية على اسبارطة /٢٦٤/ ولكنه كان انتصاراً غير حاسم ومات بسبب الجراح التي أصابته.

٦ ـ تأليف ليليان هيرلاندز وآخرون ص/١٥٦/ .

٧ ـ كما يقول أنور أحمد في كتابه خطباء صنعوا التاريخ.

٨ ـ يقول رفاعة الطهطاوي في كتابه (بداية القدماء وهداية الحكماء) ص /١٢٥/: (إن بوزانياس واحد من الأعيان قتل فيليب في حفل عام لأنه وقع سابقاً بينه وبين عم كيلوباترا. (وكيلوباترا ابنة فيليب) ـ مشاجرة وعداوة فلم ينصفه منه ولم يخلص له حقه.

٩ ـ يقال: إن ديموستين كان من جملة الوفد لكنه خاف من فتك الاسكندر به فعاد أدراجه من نصف الطريق لذلك قال المثل: (كم من شجاع كثير الكلام جبان عند الأقدام).

١٠ ـ كريون. احد الشخصيات في مسرحية(أنتيغونا) لـ (سفوكليس).

أفلاطون والفارابي
في المدينة الفاضلة

ظل وحرور... شر وخير.. ظالم ومظلوم.. شيطان ورحمن.. وضيع ورفيع.. دمار وعمار.. ترح وفرح.. فقر وغنى.. فناء وبقاء.. إلى آخر ما هنالك من المثنويات التي ـ إن ذكرناها برمتها ـ لملأنا صفحات وصفحات. هذه الصفات تسبقها ذوات لأنه لا صفات بلا ذوات.. فعلى سبيل المثال صفة النور وصفه الخير يمثلها في الزاردشتية (أهورامازدا) وصفة الظلمة والشر يمثلها في الزاردشتية (أهريمن)... وهكذا. وثنائيات الوجود هذه قديمة قدم العالم (بالذات لا بالزمن) لأن الزمان صورة من صور الوجود الفاني وستبقى ما بقيت الحياة على ظهر هذه الأرض. من الفلاسفة من رأى الحياة سقط متاع لا تحوي بارقة سعادة وأنها معبر مأساوي إلى المستقر. (دار أولها فوت وأخر موت) كما يقول (أرسطو). ومنهم من رآها خزاناً طافحاً بالملذات لا

تتكرر لمرئ مرتين فعب من لذيذها عباً (ابيقورياً)[1] ومازال يطلب المزيد. ومنهم من رآها تحوي النقيضين في آن معاً كوجه (جانوس) في المثيولوجيا الإغريقية (وجه ملاك ووجه شيطان). إلا أن البشر قادرون على جعلها حياة مثلى طافحة بألوان السعادة إذا استطاعوا الانتقال بها مما هي كائنة عليه إلى ما ينبغي أن تكون لتحقيق غائية الوجود الإنساني. فتخيلوا مدناً (يوتوبية) متصورين أنه لو انتقلت هذه المدن من التنظير إلى الممارسة، ومن التخيل إلى ساحة الفعل، لعاش البشر حياة نعيم مقيم في جنة أرضية قطوفها دانية وأنهارها من عسل مصفّى.

ومن هؤلاء الفلاسفة.. (أفلاطون) و(الفارابي) ومن بعدهما (توماس مور)[2] و(توماسوكامبانيلا)[3] وآخرون. وإذا أعدنا مقولة (أرسطو): (إن ما جاء به أفلاطون، عرفته شعوب منذ أجيال بعيدة) لأصابنا العجب بعض الشيء ولأدركنا محاولات البشر الحثيثة منذ وجودهم آملين بتحسين أحوال عيشهم وأمور دنياهم بغية الانتقال من واقع مر أليم إلى طموح مرتجى حلو مأمول. أقول: لو استرجعنا مقولة (أرسطو) لأدركنا العجب بادئ ذي بدء لأننا كنا نتوقع أن (أفلاطون) كان السبَّاق في تصور (المدينة الفاضلة) لكن لو فتشنا في ثنايا التاريخ لأدركنا ما كنا نتوقع. لن أقف عند (هيبوداموس)[4] الذي رسم (أفلاطون) مدينته الفاضلة على منواله[5] بل سأقف قليلاً عند بعض ما حدثنا به (بلوتارك)[6] عن مدينة (ليكورجيوس) في القرن الأول (ق. م) والذي تصفه الروايات التاريخية بأنه واضع تشريع (اسبرطة) لِمَا رأيت من تماثل أحياناً وتطابق أحياناً بين آرائه وبين المدينة الفاضلة الأفلاطونية، فعلى الصعيد الاجتماعي: فوجئ (ليكورجيوس) بالهوة العميقة والفروق الكبيرة بين الأغنياء والفقراء وهاله

---

(١) فيلسوف يوناني ولد في (ساموس) /٣٤٢/ ق.م نسب إليه مبدأ (اللذة = الهيدونيّة).

(٢) (توماس مور) ولد في (لو) /١٤٧٥-١٥٣٥/.

(٣) (توماسوكامبانيلا) إيطالي /١٥٦٥-١٦٣٩/.

(٤) (هيبوداموس) ولد في (أيونيا) ثم أسس المستعمرة الإيطالية المسماة (توريوم) كان مهندساً وعالماً معاً.

(٥) من أفلاطون إلى ابن سينا. جميل صليبا ص/٥٩/.

(٦) /٤٦-١١٩/ ب. م.

اكتظاظ المدينة بالمعدمين، فصمم على إعادة توزيع الأراضي الزراعية.

كما أجبر (الاسبارطيين) على تناول نوع من اللحوم حدده القانون وضمن وجبات مشتركة يجتمع فيها الأغنياء والفقراء على مائدة واحدة. والزواج في عرفه لا يتم وفق ميول الأفراد بل وفقاً لمصلحة الدولة. ويجب أن لا يحل حب الأسرة محل حب الدولة.

كما سمح للرجل المسن أن يقدم لزوجته الشابة شاباً يوافق عليه يتسم بالشرف واللياقة، وعندما تنجب زوجته (طفلاً) من هذا النسب الكريم يربيه كما لو كان ابنه. وإذا أعجب رجل بامرأة متزوجة بسبب تواضعها وجمال أطفالها يسمح له بأن يستأذن زوجها ليصرح له بالاجتماع بها لأن زرع تربة جميلة يمكن أن يثمر أطفالاً ممتازين، ويرجع هذا إلى أن (ليكورجيوس) يعبتر ـ كما أسلفنا ـ أن الأطفال ملك الدولة قبل أن يكونوا ملك آبائهم ولهذا لا يريدهم أن يأتوا من أبوين عاديين. فقد لاحظ سخف الأمم التي يجتهد أهلها في الحصول على أفضل سلالة من الخيول والكلاب (أي التهجين في العصور الحديثة) ولا يبخلون على ذلك بالجهد أو المال، بينما يغلقون الأبواب على زوجاتهم ويمنعوهن من إنجاب أطفال من احد سواهم. ولكي يجعل النساء جذابات للرجال من الناحية الجنسية قام بتنظيم حفلات راقصة عامة، وتمرينات رياضية أخرى لفتيات عاريات بحضور الشباب ـ وهذا ما سنجده عند أفلاطون أيضا ـ لأن هذه التدريبات وهذه الحفلات تثير في الشباب من الغرائز ما تثير.. وتحفزهم على الإقبال على الزواج. أما فيما يتعلق بالأطفال: فكان الطفل بعد مولده يؤخذ لفحصه عند شيوخ القبيلة.. فإذا كان قوياً متجانس الأعضاء يعطون الأوامر بتعليمه ـ بعد حصوله على ما نسميه اليوم ب (الشهادة الصحية) ـ أما إذا كان ضعيفاً أو مشوهاً فيلقى في (أبوثيتات ـ كهف عميق) لإخفائه عن أعين أهله وتصريفه بالتي هي أحسن لأن حياة هذا الطفل لن تكون نافعة له ولا للمصلحة العامة ما دامت الطبيعة لم تمنحه منذ البداية القوة وسلامة البنية[1].

---

(١) المدينة الفاضلة عبر التاريخ. ماريا لويزي بيرنيري. سلسة عالم المعرفة. الكويت العدد /٢٢٥/ من ص/٦٢/ ولغاية /٧٧/.

توصيف مكثف لأهم المحطات في حياة أفلاطون

ـ ولد في (أثينا) /٤٢٧/ ق.م وتوفي /٣٤٧/ ق. م. عن عمر يناهز الثمانين عاماً.

ـ نشأ في أسرة (أرستقراطية) شريفة النسب كانت تعده ـ ويعد نفسه أيضاً ـ للعمل السياسي حيث كان اليونان يعتبرون المشاركة في الحياة السياسية مزية للرجل الحر وأنها ميزة خاصة ترفعه عن البرابرة.

ـ قضى حياة الأولى في ظل اضطرابات سياسية وأزمات اجتماعية.

ـ اسمه الحقيقي (أرسطو قليس) لقبه مدربه الرياضي سخرية بلقب (بلاطون) لعرض منكبيه فلبسه اللقب حياً وميتاً.

ـ حاز في الجندية على عدة امتيازات، وحصد الكثير من الجوائز في الألعاب الرياضية لامتلاكه لياقة بدنية عالية.

ـ بعد انتهاء معارك (البلوبونيز) /٤٠٤/ ق. م انكسرت (أثينا) وتحطم أسطولها العظيم. سقطت حكومة رئيس الطغاة (كريتياس) عم أفلاطون، فاستلم زمام الحكم بعد موته (الديمقراطيون)، وكان أفلاطون يكره استبداد عمه الطاغية (كريتياس) كرهه للديمقراطيين على رأسهم (بيركليس)[1].

يكره أولئك الديمقراطيون الذين قتلوا أستاذه (سقراط). ولم ينبع حبه لسقراط إلا لأن (سقراط) كان عادلاً حكيماً صاحب مبدأ. دفع حياته ثمناً لذلك. وبعد مقتل أستاذه سقراط اعتزل أفلاطون الحياة العامة.

ـ سافر إلى (مصر) واطلع على حضارتها ثم إلى (صقلية) واجتمع بطاغيتها (دينيس السيراقوزي) وعرض عليه مبادئه السياسية فانزعج الطاغية من المبادئ ومن وقاحة عرضها فنفاه إلى (اسبرطة) وعاش هناك أسيراً كونه يونانياً، حتى افتداه أحد القورينائيين وهو (انيقرس) فعاد سالما إلى (أثينا) وأسس (الأكاديموس) بالقرب من (كولون) فألقى دروسه وألف كتبه فيها. ويبدو تشاؤمه السياسي واضحاً من خلال كتابيه (الجورجياس) و(الجمهورية).

---

(١) ٤٩٩-٤٢٩ ق.م

ـ كان دائرة معارف عصره. فالكون في نظره هيكل هندسة.. وصانع الكون مهندس (ومن لم يكن مهندساً فلا يحق له أن يدخل هيكل الفلسفة).

ـ عشق الفلسفة وطفق يجوب في رحابها ويغوص في أعاميقها حتى منعه ذلك من الزواج. وبدلاً من أن يجعل بيته هو العالم فقد جعل من سائر العالم الرحب بيتاً له فلم ينجب أولاداً لعدم زواجه وإنما أنجب للإنسانية تراثاً فلسفياً ضخماً يعد نقطة علاّم بارزة في التاريخ الفلسفي ومرجعاً أُسّاً لكل باحث ومهتم ومتخصص. يمم وجهه شطر الفلسفة غائصاً في بحرها اللجي.

ـ آراؤه قريبة من الشرائع السماوية[1] حتى عدوه مسيحياً قبل ظهور المسيحية. ومنهم من قال (أفلاطون عليه السلام)، وهذا يذكرنا بقول (فارنجتن): (إذا ظهر المفكر في الشرق نعتوه نبياً.. وإذا ظهر المفكر في الغرب نعتوه فيلسوفاً).

ـ الفكرة الدينية عنده قوام الأخلاق. يقول في كتابه المدينة الفاضلة: (إن الأمة لا تكون قوية إلا إذا آمنت بإله يعزي القلوب الجريحة ويشجع العزائم الخائرة). كما طالب الكبار أن يبقوا في أذهان الأطفال فكرة الإله لو عزينا إليه كل ما لم نستطع تحقيقه.

ـ طرد الشعراء من جمهوريته لأنهم دعاة أوهام يضللون الناس، ولكن إذا شذ شاعر عن ذلك وكان خيِّراً فقد استثناه من الطرد ولا بأس من بقائه في المدينة. وكان يكره (هوميروس وهزيود) لأنهما تجرآ على الآلهة، ناهيك عن أنهما يزرعان الخوف بشكل هستيري في نفوس قارئيهم مهوِّلِين الموت وما بعده).

ـ كتب (مدينته الفاضلة) في فترة تدهور النظام اليوناني، وذلك بعد أن هزمت (اسبرطة) (أثينا) ـ كما أسلفنا ـ فاستمد (أفلاطون) من عظمة (اسبرطة) ومجدها وكتب (جمهوريته أو مدينته الفاضلة).

العالم عنده عالمان. **عالم المثل:** كامل حقيقي ثابت أزلي أبدي تجريدي هو عالم الله ـ **العالم الأرضي:** عالمنا. عالم ناقص. خداع. متغير. حسي. مثال الكهف[2]. ولعل

---

(١) من أفلاطون إلى ابن سينا. جميل صليبا ص/٣٣.

(٢) يصور أفلاطون أناساً يعيشون في كهف ويدخله النور من باب خلفي وقد سجن فيه أولئك

نظرية المثل هي حجر الزاوية في فلسفته كلها[1].

آمن بالتقمص وخلود النفس: فالنفس عنده كانت سابحة في ملكوت السماوات العلا وراء مركبة (جوبيتر)[2]، لكن بعد جنوحها نحو الملذات هبطت إلى العالم الأرضي وأُسِرَتْ في غواسق البدن وبقيت تحن إلى موطنها الأول. فالنفس الكريمة ينتظرها الثواب والنفس الخسيسة ينتظرها العقاب. وقد تخيل أن (آر بن أريوس البامفيلي) قد مات ثم عاد إلى الحياة فروى ما شاهد من الثواب الذي يناله الأبرار والعقاب المحيط بالأشرار.

النفس: عنده ثلاثة أنواع:

- **شهوية مركزها البطن ملتصقة بالشهوات الجسدية من غذاء وملبوس ومنكوح.**
- **غضبية مركزها القلب تلتصق بالغرائز النبيلة وتحافظ على المروءة الإنسانية.**
- **عاقلة مركزها العقل وتلتصق بالتأمل والتفكير ووظيفتها السيطرة على القوتين الغضبية والشهوية لتحركهما نحو الفضيلة.**

كما قسم **الجمهورية** إلى ثلاثة أقسام أيضاً:

- **ذهب ـ يمثله الحكام وينتمي إلى العقل.**
- **فضة ـ يمثله الجند وينتمي إلى الغضبي.**

الناس منذ صغرهم مقيدين بالسلاسل في أعناقهم وأرجلهم مما اضطرهم إلى الجمود والنظر إلى الأمام فقط دون المقدرة على الالتفات. ثم تصور من ورائهم ناراً ملتهبة وأن بينهم وبين النار جداراً منخفضاً كسياج المشعوذين، وتصور أناساً يمشون وراء ذلك الجدار حاملين تماثيل بشرية وحيوانية مرفوعة فوق الجدار بعضهم يتكلم وبعضهم لا يتكلم، والسجناء لا يرون سوى الظلال الذي يحدثه اللهيب وراءهم، ويحسبون أن الظلال حقائق وأنها تتكلم، وافترض أن أحدهم استطاع الإفلات من ربق العبودية وخرج وتأمل نور الشمس الحقيقي، وعندما عاد ليقص على أصدقائه ما رأى سفهه الجميع. رمز أفلاطون بذلك إلى (السجين / الإنسان. الظلال / المدينة الحسية،. المعرفة اليقينية / معرفة المثل. الشمس / صورة الخير) لأنها مبدأ جميع المثل وأصلها

(١) تاريخ الفلسفة العربية. حنا الفاخوري. خليل الجر. ج /١/ ص/٧١/.

(٢) جوبيتر وهو سيد الأرباب عند الرومان وهو (زيوس) عند اليونان من قبلهم ثم (زاديش) عند العرب.

- **نحاس ـ الصناع والزراع وينتمي إلى الشهوي.**

والزواج من اختصاص (الصناع والزراع = النحاس = الشهوي) أما (الجند = الفضة = القلب). فترافقهم خليلات ينفسن عنهم شريطة أن لا يرتبط أحد بإحداهن. أما طبقة (الحكام = الذهب = العقلي) فلهم ما شاؤوا من النساء وجميعهن رهن يمينهم متى شاؤوا...

منشأ الدولة عنده

رأى أفلاطون على لسان (سقراط) (أن الدولة تنشأ عن عجز الفرد عن سد حاجاته بنفسه وافتقاره إلى معونة الآخرين). فالدولة في نظره (نتاج أفراد أهاليها وتستمد شكلها منهم). ولأن (أفلاطون) لا يفرق بين الفرد والجماعة سوى في الكم **فالعدالة** عنده عدالتان:

أ ـ عدالة في الفرد **ب ـ عدالة في الجماعة.**

وبما أن (الدولة فرد كبير والفرد دولة صغيرة) فحري أن تكون العدالة أظهر في الأكبر وأسهل تَبَيُّنَاً. ولم تكن الدولة هي ما يشغل بال (أفلاطون) وإنما الإنسان ضمن الدولة. فالمدينة العادلة هي التي يمكن أن يعيش فيها إنسان عادل (كسقراط) من دون أن يخشى الحكم عليه بالنفي أو الموت[1].

كما ركز (أفلاطون) في مدينته الفاضلة على جملة من الأمور أهمها:

ـ التركيز على أصحاء الأبدان وإهمال السقماء كما كان (ليكورجيوس). وقد استهوت هذه الفكرة من بعد (أفلاطون) (فريدريك نيتشه)[2] فتحدث عن الإنسان (السوبرمان) بعد أن أعلن عن موت الإله، فوجد ذلك استحساناً في نظر النازي (هلتر) الذي ركز على العنصر الجرماني المتفوق كما رأى[3].

---

(١) مدخل لقراءة أفلاطون. الكسندر كواريه. ص/١٢٩.

(٢) فيلسوف ألماني. صاحب نظرية الإنسان المتعالي والمتفوق /١٨٤٤-١٩٠٠.

(٣) كان لا ينام إلا وكتاب نيتشه تحت رأسه كما أن نده الفاشستي (موسيليني) في إيطاليا كان لا ينام إلا وكتاب الأمير (لميكيافيللي) تحت رأسه أيضاً. كما كان (نابليون) لا ينام إلا

ـ يخضع أصحاء الأبدان للتدريبات الرياضية والموسيقية مع عدم الإفراط فيهما لأن الإفراط في الرياضية يؤدي إلى الخشونة والإفراط في الموسيقى يؤدي إلى زيادة الليونة. كما حذر من الاختراق الموسيقى وطالب الفتيات أثناء التدريب الموسيقي، كما طالب (ليكورجيوس)، بأن يكن عاريات كما خلقهن الله. كما حدد شروط الزواج والإنجاب، وكل أعزب بلغ خمساً وثلاثين سنة تحاسبه الدولة على عزوبيته. وحدد سن الرجل في الإنجاب من (٥٠ـ ٥٥) وحدود سن إنجاب المرأة (٤٠) سنة، وبعدها يعاشر كل منهما ما يشاء شرط عدم الإنجاب.

ـ يخضع الأصحاء لامتحانين عادلين خاليين من المحاباة لأن في هذين الامتحانين مصير أمة بحالها، فإذا رسب المتقدم في الفحص الأول فرز إلى طبقة (النحاس = طبقة الزراع والصناع)، وبعد مدة يخضع الناجحون لفحص ثان فالراسبون ينضمون إلى طبقة الجند والناجحون يستمرون في دراسة الفلسفة وينتقى من هؤلاء الحكام.

ـ الحاكم في نظره ولد ليكون حاكماً، إلا أنه على ما يظهر شعر بخطأ تعميمه فقال (قد يلد الذهب فضة وتلد الفضة ذهباً. فإذا ولد للحاكم ولد معدنه نحاس أو حديد فلا يشفقن والداه عليه، بل يوليانه المكان الذي يليق مع جبلته، وإذا ولد للنحاس فضة أو ذهب فعليه أن يأخذ مكانه لأن حلول المرء في غير محله مجلبة للدمار).

صفات حاكمه: طاعن في السن جاوز الخمسين من العمر، وافر الفطنة، عظيم الذكاء عريق الوطنية، قليل الأنانية، فيلسوفي النزعة، عظيم الحماسة، عادل لا يتجاوز نده بل يتجاوز ضده، يعمل لإسعاد جميع من في المدينة، طعامه بسيط صحي معتدل.

ليس بسكير ولا ضحوك.. لا يخص نفسه بمال، إلى آخر ما هنالك من المواصفات التي قلما توجد في فرد واحد.

أشكال الحكم عنده: أفرد (أفلاطون) فصلاً في الجمهورية يعالج من خلاله أضداد الدولة العادلة الاستقراطية التي هيأ لها (أفلاطون) من خلال سائر الصفات التي ذكرناها. ورأى أن باستطاعتنا فهم الدولة الأرستقراطية العادلة من خلال فهم

والأليازة بجانبه آملاً أن يغدو مثل (آخيل).

مضادها ونقيضها ، فحدثنا عن نقيض المدينة الفاضلة الأرستقراطية من خلال **أشكال أحكام أربعة**:

التيموقراطي: دولة الجاه والنفوذ ، وللمرأة دور كبير فيه حيث تقرع الزوجة زوجها أمام أولاده وتوبخه على مثاليته. وتشبه كما سنرى دولة التغلب عند الفارابي

الإوليفارشي: حكم الإقطاع والأقلية. يقيم الشخص في هذا النظام من خلال غناه المادي (و بقدر الدفع يكون المنصب).

الديموقراطي: حكم الشعب الفوضوي.. الذي يفعل كل ما يهوى.. وهو كالمدينة الجماعية عند الفارابي وقد قال عنها (جان بول سارتر) هذا تعبير كلاسيكي سقط لأن حكم الشعب هو مجرد اشتقاق، إذ من الواضح في الديموقراطيات الحديثة أنه لا يوجد شعب يحكم لأن الشعب ذاته غير موجود)[1].

الاستبدادي: حكم الطغيان والظلم والمنفعة الشخصية وهو أسوا أنواع الحكم. أن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة. وشبه معاونيهم بأنهم أحط من الكلب. كما نجد في الجمهورية دراسة فلسفية نفسية تتعلق بالأطفال وعلى كل مُرَبٍّ قراءتها لما لها من بالغ الأهمية وبخاصة عند المتخصصين بتدريب الأطفال.لقد بنى (أفلاطون) مدينته بناء هرميا ابتداء من الحاكم وانتهاء بطبقة النحاس والحديد. وخلاصة جمهورية (أفلاطون) (لا يمكن زوال بؤس الدولة أو الحكام وشقاء النوع الإنساني ما لم يحكم الفلاسفة أو يتفلسف الحكام).

آراء المدينة الفاضلة عند الفارابي

الفارابي هو نصر بن محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ المعروف ب (الفارابي) أبوه فارسي وأمه تركية. ولد في مدينة (فاراب) ويقولون: إنها تابعة لتركيا وبعضهم يقول إنه من بلاد الفرس ولهذا يضطرب نسبه بين التركي والفارسي[2].

---

(١) السارترية. د. خليل أحمد خليل. ص/٧١.

(٢) انظر من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية. د. محمد عبد الرحمن مرحبا. دار عويدات بيروت.

ولد سنة (٧٨٠) وتوفي (٩٥٠) م عن عمر يناهز الثمانين عاماً كأفلاطون ودفن في ضواحي دمشق. عاش في أسرة ذات سعة من المال. درس في (فاراب) العلم والآداب. ومما يروى أن أحد أصدقاء (الفارابي) استودعه كتباً فلسفية كأمانة، فلما اطّلع عليها (الفارابي) مال إلى الفلسفة وبرع فيها. سكن (بغداد) في مرحلة لاحقة اصطحب فيها (أبا بشر متى بن يونس). اتصل بسيف الدولة في حلب وعاش فترة من الزمن في مدينة حماة[1]. زهد بالدنيا فاعتزل. والتأمل بداية كل نبي ومفكر وحكيم وفيلسوف كـ (إبراهيم ع) و(زارداشت) و(بوذا) الخ. رفض ما أنعمه عليه سيف الدولة من مال واكتفى بأربعة دراهم في اليوم ليسد بها حاجته. ويروي عنه ابن خلكان ما يلي: ((قدم إلى سيف الدولة فوجده في مجلس من العلماء فزاحمه على مجلسه.

ثم أخذ الفارابي يتحدث مع العلماء الحاضرين في المجلس في كل علم وفن. فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل وبقي يتكلم وحده، ثم أخذوا يكتبون عنه ما يقول. صرفهم سيف الدولة وسأله:

ـ هل لك أن تأكل؟

ـ قال الفارابي: لا.

ـ هل لك أن تشرب.

ـ لا.

ـ قال: فهل تسمع؟

ـ قال: نعم.

فأمر سيف الدولة بإحضار القيان فحضر كل ماهر في هذه الصناعة بأنواع الملاهي فلم يحرك أحد منهم آلة موسيقية إلا وعابه. فقال له سيف الدولة: وهل تحسن هذه الصناعة أيضاً؟ قال: نعم. ثم أخرج من وسطه خريطة وفضّها وأخرج منها عيداناً وركبها ولعب بها فضحك منها كل من كان في المجلس، ثم فكها وركبها تركيباً آخر وضرب بها فبكى كل من كان في المجلس، ثم فكها وغير

---

(١) الفلسفة العربية عبر التاريخ. د. رمزي نجار ص/٨٥/.

تركيبها وضرب بها فنام كل من كان في المجلس حتى البواب. فتركهم نياماً وخرج)). ويقال: إنه كان يتقن سبعين لغة.

ما سمعناه لا يمكن أن نسلم به جملة وتفصيلاً فـ (أوروفيوس) لم يكن قيثارة مُنَوّماً ومضحِكاً ومبكياً ولم يبق لعود (الفارابي) سوى أن يبرئ الأكمه والأبرص! ثم.. هل من المعقول أن يصل أحد إلى بساط سيف الدولة ويزاحمه في مجلسه ـ وهذا لا يمكن أن يكون بين عشية وضحاها ـ إلا بعد أن يعرف كل شيء عن أصله وفصله وملكاته، فكيف لا يعرف سيف الدولة هذه الملكة التي تشبه سحر عصى موسى فيسأله مستفسراً غير عارف إن لم نقل يسأله سؤال الجاهل، وحاشا له ذلك، حين قال (و هل تحسن هذه الصناعة أيضاً؟). أما على صعيد إتقانه (سبعين لغة) فيحق لنا أن نسأل: ترى !! ما هي هذه اللغات السبعون و(حنا الفاخوري وخليل الجرح) يخبرانا في كتابيهما المكون من جزأين (تاريخ الفلسفة المعاصرة)[1] بأن (الفارابي) كان يجهل (اليونانية والسريانية) وهما من أهم اللغات في عصره إن لم نقل أهمها. إلا أن هذه القصة تنبينا بمكانة (الفارابي) المرموقة ومنزلته العليا لدى الجميع لتميز إبداعه ـ إن لم نقل لتفرده في عصره ـ بدليل أن سيف الدولة بنفسه صلى عليه يوم مماته.

وقد عده (مسينيون) (أول مفكر مسلم كان فيلسوفاً بكل معنى الكلمة). وفي ذلك رد على ما قاله بعض المستشرقين: (لا توجد فلسفةإسلامية) و(لا يفلح عربي إلا بنبي)... الخ.

لقد قام (الفارابي) ـ في الفلسفة العربية ـ بالدور الذي قام به (أفلوطين) في الفلسفة الأفلوطينيّة المحدثة. و(أفلوطين) هذا صاحب نظرية الفيض الذي ركز عليها (الفارابي) حيث رد (أفلوطين) كل شيء إلى الله.

ـ أطلق على (الفارابي) المعلم الثاني بعد المعلم الأول (أرسطو). ولقد اعتبرتُ في كتابي الأخير (قراءات مسرحية)[2] أن المعلم الثالث قد فاق المعلمَيْن واحتواهما. هما

---

(١) ص/٩٠/.

(٢) **طباعة اتحاد الكتاب العرب.**

ومن سبقهما ومن بينهما أيضاً. وما أتى بعدهما حتى الآن ألا وهو (التلفزيون).

ـ آمن (الفارابي) بوحدة الفلسفة على الرغم من اختلاف الفلاسفة لأن الزمان لا يبدل مقاصدها وغاياتها بل يبدل صورتها وطرائقها.

ـ حاول التوفيق بين الدين والفلسفة شأنه في ذلك شأن سائر فلاسفة المسلمين لأن الدين والفلسفة في رأيه يصدران عن اصل واحد هو العقل الفعال ولا فرق جوهرياً بينهما. كما أنه لا فرق بين الحكماء والأنبياء، وبين الحكمة والشريعة. وقد حذا في ذلك حذو (فيلون)[١].

كما قدم (الفارابي) حلولاً لمشكلة العلاقة بين الدين والفلسفة كما قدمها (فيلون) إذ هي وليدة ظروف متشابهة، وهذا الشبه في الكليات والعموميات لا في جزئيات الحلول وتفاصيلها، فالرجل العادي لا يختلف عن العبقري في الكليات بل في الجزئيات[٢].

ـ ألف الفارابي كتبا كثيرة وقد أُحْصيَ له حوالي /١٨٧/ كتاباً لم يصلنا سوى بعضها، بعكس (ابن سينا) الذي تلاه حيث وصلتنا أكثر كتبه.

ـ يتصف أسلوبه بشدة الغموض وكثرة الإيجاز وقلة التكرار لاهتمامه بالمعنى أكثر من اهتمامه بالمبنى.

ـ افتتن الفارابي بالجانب السياسي في فلسفة أفلاطون فألف كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة) ابتدأ بتأليفه في بغداد وحمله معه إلى الشام وأتمه في دمشق وجعل فصوله في مصر.

ـ لم يؤلف الفارابي كتابه هذا في أيام شبابه.. بل في شيخوخته بعد أن بلغ السبعين من العمر. لذا فكتابه هذا لم يكن حلماً من أحلام الشباب بل هو خلاصة مذهبه في الكون والحياة معاً (كأفلاطون) الذي لم يتكون مذهبه دفعة واحدة بل تبلور طوال حياته. ـ قد يتبادر إلى ذهن القارئ لكتاب (الفارابي) أنه سيجد فيه

---

(١) من أشهر فلاسفة اليهود (لقب بأفلاطون اليهود) /٠٢٥/ ق. م /٤/ ب.م وهو قبل أفلوطين، وأستاذ (فيلون) اسمه (أمونيوس سكاس).

(٢) من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية. د. محمد عبد الرحمن مرحبا.

انتقاداً لجمهورية أفلاطون أو ـ على الأقل ـ رداً عليه في الأمور التي تتعلق بأحكام الدين، إلا أن الكتاب ليس فيه ما يصرح أو يلمح إلى ذلك. ولعل النقد لم يكن هدف (الفارابي). ولقد عرف (الفارابي) المدينة الفاضلة بأنها (المدينة التي يقصد الاجتماع فيها بالتعاون على الأشياء التي ينال بها السعادة الحقيقية). وفيما يتعلق بالاجتماع فقد قال: (والإنسان مفطور على الاجتماع لأنه لا بقاء للأفراد إلا إذا تعانوا على نيل ما يحتاجون إليه). فالاجتماع في نظره ينشأ عن حاجة الأفراد إلى التعاون. وقد أخذ ابن خلدون عنه هذه الفكرة التي أخذها (الفارابي) بدوره من (أفلاطون). قال ابن خلدون: (إن الاجتماع الإنساني ضروري). ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم (إن الإنسان مدني بالطبع أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم أي بمعنى العمران).

قسم الفارابي في كتابه الاجتماعات بحسب روابطها إلى كاملة وغير كاملة:

الكاملة:

١ ـ عظمى: وهي اجتماعات الجماعات كلها في المعمورة تحت سلطة رجل واحد (أكمل الجماعات).

٢ ـ وسطى: وهي اجتماع أمة في جزء من أجزاء المعمورة (كالأمة العربية مثلاً).

٣ـ صغرى: وهي اجتماع أهل مدينة ما.. مثلاً.

غير كاملة:

١ ـ اجتماع أهل القرى.

٢ ـ اجتماع أهل المحلة.

٣ ـ اجتماع في منزل وهو (أصغر المجتمعات).

وأحسن دولة تنال بها السعادة الكبرى ـ في نظره ـ هي الدولة الكبرى. ولقد رأى (الفارابي) أن السعادة ممكنة على الأرض إذا تعاون أفراد المجتمع على نيلها بأعمالهم الفاضلة. وتنبأ باجتماع الأمم كلها تحت سلطة رجل واحد. وقد سبق في تصوره هذا اليونانيين لأن مفكريهم لم يخرجوا في الأمور السياسية عن أفق الحياة اليونانية. وكأنه

كان يستشرف أفاق القرن العشرين والواحد والعشرين مبشراً بـ (عالمية إنسانية تحت سلطة رجل واحد) (لا بعولمة أمريكية) تضطرك لأن تسير وفق تيارها، فإن لم تكن أمريكياً فأنت (إرهابي). ولعله استقى عالمية مدينته بشكل مباشر أو غير مباشر من معتقده الإسلامي (لأن الإنسان أخو الإنسان) و(لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى).

النفس: عند الفارابي

قسم الفارابي النفس وقواها أيضاً إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ **نباتية**: مهمتها الإغتذاء والنمو والتوالد وهي أدنى مراتب النفوس. وموجودة في سائر الكائنات.

٢ ـ **حيوانية**: تحس وتتحرك بحركة إرادية. أسمى من النباتية.

٣ ـ **إنسانية**: تدرك المعقولات وهى الأسمى والأرقى. كما أجرى (أفلاطون) مقايسة بين النفس وأقسام الجمهورية وأجرى مقايسة بين الجسد والدولة.

حيث شبه الكسالى بالبلغم، والمسرفين بمرض الصفراء، هكذا أجرى (الفارابي) مقايسة بين الجسد والدولة حيث شبه مدينته الفاضلة ببدن تام صحيح تتعاون أعضاؤه كما تتعاون (المدن في الأمة) و(الأمم في المعمورة) فقال : (إن العضو الرئيسي في الجسد هو القلب، والقلب عند (أفلاطون) يمثل الغرائز النبيلة... أكمل أعضائه وأتمها، وكذلك رئيس المدينة يجب أن يكون أكمل أجزاء المدينة)، فالعضو القريب من القلب يخدمه في أغراضه أما الأبعد فإنه يخدم العضو الأقرب إليه كالأفراد الذين يلازمون الرئيس أيضاً يكونون في المرتبة الأولى (كالجند عند أفلاطون)، والأفراد الذين في المرتبة الثانية يخدمون أفراد المرتبة الأولى (وهكذا تترتب أجزاء المدينة إلى أن تنتهي إلى أعضاء يَخدِمون ولا يُخدمون ويكونون في أدنى المراتب[1] (وهم طبقة الصناع والزراع عند أفلاطون). هذه الآراء تذكرنا بآراء (سبنسر) وغيره من أصحاب المذهب العضوي الذين يقايسون بين المجتمع والجسم

---

(١) من افلاطون إلى ابن سينا. جميل صليبا ص/٦٨.

الحي. فكأن الجماعة ـ في عرفهم ـ جسد كبير وكأن البدن جماعة صغيرة. وكما فعل (أفلاطون) في عرضه لمضادات النظام الأرستقراطي فعل (الفارابي) في عرضه لمضادات المدينة الفاضلة، **وكانت عنده أربعة** كعدد المضادات عند (أفلاطون):

الجاهلة، الفاسقة، المتبدلة، الضالة[1].

أ ـ المدينة الجاهلة: تذكرنا بكلام (أفلاطون) عن (التيموقراطية) وهذه المدينة لم يعرف أهلها السعادة ولا خطرت ببالهم ولا يعرفون من الخيرات سوى سلامة الأبدان والتمتع باللذات... ونيل المجد والعظمة. وإذا أضاع أحد أفرادها مالاً أو أصيب بآفة ما.. أو فاتته لذة عد ذلك فساداً وخسارة كبيرة.

أقسام المدينة الجاهلة:

المدينة الضرورية: يتعاون أهلها على الضروري فقط من مأكول ومشروب ومنكوح.

المدينة المتبدلة: يتعاون أهلها على بلوغ الثروة والغنى لظنهم أن الغنى هو غاية الحياة وهدفها (المال غاية لا وسيلة).

مدينة الكرامة: يتعاون أهلها ليكونوا مكرمين ممدوحين مشهورين ذوي فخامة وبهاء مذكورين عند الأمم.

مدينة الخسة والشقوة: يكتفي أهلها بالمتع الحسية والمتخيلة والملذات الجسدية ويؤثرون اللعب والهزل على الجد.

مدينة التغلب: وهم القاهرون المتلذذون بقهر الغير (و تذكرنا هذه بالمدينة الأوليغارشية والمتبدلة).

مدينة الجماعة: (تذكرنا بديموقراطية أفلاطون) وأمور أهل هذه المدينة فوضى يفعل كل منهم ما يشاء حسب هواه.

ب ـ المدينة الفاسقة: أهلها يعلمون ما يعلمه أهل المدينة الفاضلة من أسباب السعادة ويعرفون الله.. إلا ان أعمالهم أعمال المدن الجاهلة.

---

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة. الفارابي ص/٩٠.

ج ـ المدينة المتبدلة: كانت أراء أهلها وافعالهم مطابقة لأفعال أهل المدينة الفاضلة إلا أنها تبدلت وحلت محلها الأراء الفاسدة فاستحالت أفعالها إلى أفعال مذمومة.

د ـ المدينة الضالة: يعتقد أهلها بالله والعقل الفعال[1] اعتقاداً فاسداً ويدّعي رئيسها أنه يوحى إليه فيخدع الناس ويغريهم بأقواله وأفعاله. ثم تحدث عن النوابت فجعلهم بمنزلة الشيلح من الحنطة أو كالشوك في الزرع وهم بمنزلة البهائم.من آراء أهل المدن غير الفاضلة الداء السبعي. وهو عرض لمفهوم العدل الناقص كما فهمه(الفارابي) عن (أفلاطون) ؟. قال (الفارابي): (إن كل موجود يحاول إبطال الآخر. فأكثر الحيوانات تقضي على باقي الحيوانات الأضعف منها لإبطال وجودها حتى ولو لم يكن له في ذلك هدف ومصلحة وكأن الموجودات طبعت على هذه العادة وتريد أن يكون لها

---

(١) العقل الفعال: يسميه الفارابي الروح الأمين وروح القدس آخر العقول المفارقة. واهب الصور، هو كالشمس يحيل المرئيات التي هي بالقوة إلى مرئيات بالفعل وحال الشمس في المحسوسات كحال العقل الفعال في المعقولات.

العقل الهيولاني: عقل بالقوة يسمه الأفروديسي العقل المادي وظيفته انتزاع صور الموجودات وماهيتها دون موادها فالمعقولات قبل أن تعقل تكون معقولات بالقوة.

العقل بالفعل ـ (بالملكة) إذا حصلت المعقولات بالفعل أصبحت ملكة وأصبح بالنسبة إليها عقلاً بالفعل لكنه يظل عقلاً بالقوة للمعقولات التي لم يعقلها بعد فإذا ما عقلها أصبح بالفعل (عاقلة بالفعل وعقل بالفعل ومعقول بالفعل معنى واحد بعينه). للمعقولات وجودان: وجود بالقوة قبل أن تفعل ووجود في الفعل.

العقل المستفاد: هو العقل بالفعل الذي عقل المعقولات المجردة وصار قادراً على إدراك الصور المفارقة. والفرق بين المعقولات المجردة والصور المفارقة أن الأولى كانت في مواد فانتزعت منها والثانية فهي دائما مفارقة وليست في مواد ولم تكن فيها أصلاً كالعقول السماوية مثلاً ولا يبلغ العقل بالفعل درجة المستفاد إلا بعد أن تحصل له (المعقولات) كلها معقولة بالفعل وحينئذ لا يكون بينه وبين العقل الفعال شيء آخر.

العقل الإنساني عند الفارابي ثلاثة أنواع:

- أدناها الهيولاني ـ بالقوة وهو كالمادة بالنسبة إلى العقل بالفعل.
- العقل بالفعل وهو كالصورة بالنسبة إلى العقل الهيولاني وكالمادة بالنسبة إلى العقل المستفاد.
- العقل المستفاد: أعلاها وهو كالصورة بالنسبة إلى العقل بالفعل وكالمادة بالنسبة إلى عقل آخر ليس بإنساني هو العقل الفعال.

البقاء وحدها وإذا أبقت على حياة موجودات أخرى فإنها تريدها لمصلحتها لاستبعادها وسلب حريتها). نشتم من ذلك رائحة أن البقاء للأقوى لا للأصلح).

(نظر الإنسان إلى هذه الحال فظن أنه هو أيضا يجب أن يحيا على هذا الطراز ونسي أنه الإنسان العاقل الذي يميزه عن غيره اختياره وإرادته ورويته. وهكذا ظن البعض أن المدن يجب أن تتعارك وتتحارب لا نظام فيها ولا رتب. بل كل إنسان يحاول أن يبقى هو وحده ويزيل الآخرين. لا مجال للحب والارتباط ولا اجتماع إلا لمصلحة.. ولا يجتمع أحد بالآخر إلا لقهر من هو أقوى منه وبعد القهر لهذا الإنسان تبدأ محاولات القهر الجماعية وهذا الداء السبعي أثر على الآراء الإنسانية)[1] من خلال ما تقدم نرى أن وصف (الفارابي) للمدن الضالة أبلغ من وصفه للمدن الفاضلة[2] فالعدالة: في الأنظمة غير الارستقراطية عند (أفلاطون) (هي منفعة الأقوى) والعدالة وعند (الفارابي) في المدن غير الفاضلة هي (أن استعباد القاهر للمقهور) أيضاً من العدل وأن يفعل المقهور ما هو أنفع للقاهر. (وهذا عند نيتشه ـ وهو حق القوي على الضعيف) هو أيضا عدل. هذه كلها هي العدل الطبيعي وهي الفضيلة. والفضيلة في المدن غير الفاضلة دالة على ضعف وخوف لأن ما يسمى عدلاً في البيع والشراء.. وما إلى ذلك.. فإن مستعمله يستعمله لأجل الضعف والخوف. فإذا كان المتعاقدون ضعفاء يخاف بعضهم بعضاً يحافظون على الشركة.. لكن.. متى قوي أحدهم على الآخر غيَّر شروط الاتفاق (مثال أمريكا والدرع الصاروخي مع روسيا).. (وإسرائيل والعرب وبخاصة القضية الفلسطينية) ونظرة الضعفاء في المدن غير الفاضلة عند (الفارابي) تذكرنا بقول (نيتشه)[3]: (الضعفاء يحسبون أنفسهم صالحين لأنه ليس لديهم براثن). وهذا يذكرنا أيضا بقول (هوبز)[4]: (الإنسان ذئب على أخيه الإنسان). والجنس

---

(١) الفلسفة العربية عبر التاريخ. رمزي نجار ص/١١٣-١١٤/.

(٢) المصدر نفسه ص/٧٣/.

(٣) فريدريك نيتشه. فيلسوف ألماني /١٨٤٤-١٩٠٠/ ب. م تحدث عن الرجل (السوبرمان) بعد أن أعلن موت الإله: يرى أن الحواس مصدر المعرفة وكل شيء، وجميع المعارف تصدر عن الحواس.

(٤) يقول: الله ليس موضوع فلسفة بل هو موضوع إيمان وعدل. يقول بالمادة وينكر عالم الرياضيات /١٥٨٨-١٦٧٩/ فيلسوف إنكليزي ـ الفلسفة العربية عبر التاريخ. رمزي النجار ص/١٠٣/.

البشري كله في رأي (هوبز) ينقسم إلى قطعان من الماشية ولكل قطيع راعيه الذي يحرسه ليفترسه).

صفات رئيس المدينة الفاضلة عند الفارابي

أ ـ أن يكون المرشح مُعَدّاً للرئاسة بالفطرة والطبع وهذا يذكرنا بـ (أفلاطون) (ولد الحاكم ليكون حاكماً).

ب ـ أن يتمتع بالملكة الإرادية والهيئة (والرئاسة تتوفر فطرياً لمن أُعدَّ لها) /٣/. فرئيس الفارابي حكيم فيلسوف نبي إمام منذر بما سيكون (لحلول العقل الفعال فيه). فيفيض عليه ما يفيض من الله على العقل الفعال. وصفات رئيسه تكاد تطابق أوصاف رئيس المدينة الفاضلة عند (أفلاطون) إذ على رئيس المدينة الفاضلة الفارابية أن يتمتع بـ (باثنتي عشرة خصلة) (اثنتان جسديتان) (أربع خصال فلسفية) (ست خصال خلقية).

الجسدية (تام الأعضاء)، (حسن العبارة). **الفلسفية** (جيد الفهم والتصور)، (جيد الحفظ لما يسمع ويرى بلا نسيان) فطن ذكي محب للعلم والاستفادة ولا يؤذيه الاجتهاد في تحصيل ذلك العلم. أدرك (الفارابي) كما أدرك (أفلاطون) من قبل أن صفات رئيسه صعب أن توجد مجتمعةً في رجل واحد فقال: (فإذا لم يوجد إنسان واحد اجتمعت له هذه الصفات ولكن وجداثنان احدهما حكيم والثاني فيه بقية الصفات كانا هما رئيسين. وإذا اجتمعت هذه الصفات في ثلاثة أو أربعة كانوا جميعاً رؤساء[1]. أما في مرحلة الفراغ حيث لا يوجد مثل هذا الإنسان فيقترح الفارابي أن يحكم الرئيس في المدينة الفاضلة بشرائع الرئيس السابق وقوانينه شرط أن تتوفر فيه شروط ستة وعلى رأسها الحكمة[2] أما إذا لم يوجد رئيس تضاف إليه إدارة المدينة لم تلبث هذه المدينة بعد مدة أن تهلك.

---

(١) من أفلاطون إلى ابن سينا. جميل صليبا ص/٧٧/.

(٢) الشروط الستة. الحكمة. العلم. حفظ شرائع من سبقه في الحكم. القدرة على استنباط ما غاب عن السابقين مراعياً خطة الأولين غير محيد عنهم. يتمتع بالروية في معالجة الأمور والحوادث متحرياً إصلاح المدينة في جميع ما يستنبطه. جيد الإرشاد في حديثه عن شرائع الأولين وعلى

جماعة القول: لقد تصور (أفلاطون) جمهوريه (ارستقراطية) يحكمها فلاسفة حكام أو حكام فلاسفة بينما تصور (الفارابي) جمهورية (أوتوقراطية) (ثيوقراطية) يحكمها فرد حكيم نبي إمام بيده مقاليد كل شيء. وكأن (لا خافيته = لا شعوره) قد همست في أذان (واعيته = شعوره) أن تذكر خليفة المسلمين الحاكم لشعوب تعددت أنسابها وتوحد معتقدها تحت راية الإسلام فصارت جسداً واحداً في ظل دولة اتسعت رقعتها الجغرافية في الاتجاهات الأربعة. لقد سار (الفارابي) على خطا(أفلاطون) في أمور وابتعد عنه في أمور أخرى لو تحدث بها مؤيداً لسار حافياً على حد سيف مصقول، أو مشى على حبل تحته جرف هار، لأن الحديث فيها قد يوصله إلى أمور لا تحمد عقباها ولنورد بعضها(لضيق الوقت) في صيغة أسئلة.

- هل يستطيع الفارابي أن يطلب من خليفة المسلمين أن لا يخص نفسه بمال أو بولد (و المال والبنون زينة الحياة الدنيا)؟

- هل يستطيع أن يؤيد شيوعية النساء والنظرة الشرقية بعامة والإسلامية بخاصة تضع هذه المسألة في سلم الأولويات وفي أعلى قمة الهرم وأن الحفاظ على العرض أسمى مقاييس الشرف (ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً)؟

- هل يمكنه المطالبة بقتل الأطفال السقماء (ليس على المريض حرج) وكيف يقتل نفساً حرم الله قتلها إلا بالحق.. (ومن قتل نفسا بغير حق فكأنما قتل الناس جميعا) نفسا وجدت بغير إرادتها ورغبتها.. وبعاهة ليست مسؤولة عنها فباريها وموجدها هو الذي أوجدها بما هي عليه (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء).

- وكيف يقسم مجتمعه إلى طبقات ثلاث وشعار المسلمين (الناس سواسية كأسنان المشط)؟ لكن المشكل عنده أنه لم ينتقد هذه الأمور ولم يتحدث عنها سلبا وإنما أهملها إهمالاً مطلقاً. وإذا غفرنا له إعراضه عن الحديث في هذه المسائل الشائكة فإننا لا نغفر له إغفاله الحديث عن الرياضة والطلب من الآخرين على المواظبة عليها، فالرسول الكريم يقول: (علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل). ومهما غفرت له أنا شخصياً فلن اغفر له (نسيانه أو تناسيه) الحديث في الموسيقى والحث على تعلمها، فـ (فيثاغورث) اعتبر

ما استنبطه هو من بعدهم. متقن لصناعة الحرب يستطيع أن يؤدي دور الجند والقائد في أن معا. الفلسفة العربية عبر التاريخ. رمزي نجار ص/١٠٥-١٠٦/.

الموسيقى رياضيات راقصة. و(زارادشت) سمى الجنة (بيت الغناء). و(شوانغ تسي)[1] تلميذ (لاوتسه) زعيم الطاوية وحبرها وإمامها كان يعطي الأولوية للموسيقى التي تستوعب بألحانها السماوية كل شيء. و(شوبنهاور) (أخرج الموسيقى من دائرة الفنون وعدها فناً قائماً بذاته). و(الفارابي) كما يقولون (مخترع آلة القانون) وعوده ينفث سحر الملكين (هاروت وماروت) بل فاقهما سحراً. رغم ذلك لم يذكر الموسيقى في مدينته الفاضلة وهذا أمر يدعو للاستغراب. ترى هل أحجم عن ذكرها لأن(الموسيقى في سائر التراث العالمي كانت محرمة على الإماء متروكة بحرية للحُرّات والأحرار)(وفي التراث العربي كانت محرمة على الحرات والأحرار متروكة باحتقار للإماء).

وأنا لم أورد هذا المثال لقناعتي بصدقه لكن لأخرج من خلاله بسؤال استنكاري فقط.. أترى هل هذا هو السبب في إحجامه عن الحديث في الموسيقى؟ لا أعتقد ذلك. لأنه لو كان هذا هو السبب لكان (الفارابي) أول من أحجم عن الموسيقى في زمنه أو على الأقل، لما فاخر وجاهر بإتقانها أمام عظيم الرجال سيف الدولة وحاشيته وأمام أمهرعازفيه ومغنيه. لكن ما نسجله للفارابي:

ـ إنه المجتهد العربي الإسلامي الأول الذي تصور مدينة فاضلة (يوتوبية) آملاً أن تكون الأحلام الوردية في متناول الجميع. ولا يضيره بعض التعثر لأن البدايات من أصعب المشكلات في كل شيء ويكفيه فخراً أنه صاحب قصب السبق في هذا الموضوع.

ـ كما أنه المؤسس الأول للفلسفة الإسلامية ـ ولو كان الكندي سابقاً عليه في الوجود زمناً[2].

ـ وهو أول من وضع نواة تصنيف العلوم وفصل السياسية عن علم الكلام. ولا احد يعرف ما كان عساه يكون الفكر الفلسفي في الإسلام لولاه /٣٥/.

وإذا عابوا على (الفارابي) تقليده (لأفلاطون)، وكلنا يعرف أنه لا جديد تحت الشمس، فماذا يسعنا أن نقول عن (أفلاطون) بعد أن عرفنا ما قاله (هيبوداموس)

---

(١) فيلسوف صيني. توفي عام /٣٢٠/ ق. م.

(٢) /٨٠١-٨٧٢/ م عربي النسب لقب بـ (فيلسوف العرب) عاصر المأمون برع في الفلسفة والطب والرياضيات اسمه (أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي) قام في الفلسفة العربية بدور سقراط في الفلسفة اليونانية. وكان معتزلياً.

و(ليكورجيوس) السابقين عليه زمناً وموضوعاً، وكان مماثلاً لما جاء به (أفلاطون)؟ أنا شخصياً لن أقول شيئا ولن أعقب ولو بكلمة بل سأورد على مسامعكم في النهاية جملة قالها أفلاطون بلسان حاله في كتابه (الجمهورية والتيتانوس): (لا يكون الإنسان فيلسوفاً إلا إذا انبثقت الأفكار من نفسه وكانت معبرة عنه هو.. لا صدى لأفكار الآخرين). قولوا أنتم عنه ما تشاؤون.. فقد قلت عنه أنا ما سمعتم..

وسواء أخالفنى أحدكم.. أم حالفني.. فما ذلك إلا بمثابة إغناء للموضوع الذي نحن بصدده.

قال (ص): (اختلاف أئمتي رحمة)

وقال أحدهم لآخر: دلّني على الفقه، قال: اسمع الاختلاف.

المصادر والمراجع

١ ـ الفلسفة العربية عبر التاريخ. رمزي نجار. دار الآفاق ط/١/ ١٩٧٩.

٢ ـ مدخل لقراءة أفلاطون. الكسندر كواريه. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر. مصر .

٣ ـ من أفلاطون إلى ابن سينا. جميل صليبا. دار الأندلس ط/٤/.

٤ـ تاريخ الفلسفة المعاصرة. حنا الفاخوري + خليل الجر. دار المعارف بيروت ج/ ١ـ٢/.

٥ ـ من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية. د. محمد عبد الرحمن مرحبا. منشورات دار عويدات بيروت.

٦ ـ المدينة الفاضلة عبر التاريخ ماريا لويزي بيرنيري. سلسلة عالم المعرفة الكويت ٢٢٥.

٧ ـ السارترية. تهافت الأخلاق والسياسة د. خليل أحمد خليل. المؤسسة الجامعة للدراسات والنشرو التوزيع بيروت /١٩٨٠/.

٨ ـ تهاقت الفلسفة. تأليف. السيد محمود أبو الغيض المنوفي. دار الكتاب العربي ١٩٦٧م.

الدولة

عند ابن خلدون

قبل أن ألج محراب الدولة عند ابن خلدون أرى أنه من المفيد أن أقف عند أهم ما قاله ابن خلدون وما قيل عنه لعلّنا نزيد الموضوع غنىً.

العرب أبعد نجعة وأشد بداوة لأنهم متخصصون بالقيام على الإبل فقط /١٢٦ـم /وهم أبعد الناس عن سياسة الملك. ولا يحصل لهم الملك إلا بعصبية دينية /١٥٣ـ م/ من مبدأ " لا يفلح عربي إلا بنبي "لا يستولون إلا على البسائط /١٥١ـ م/ وإذا تغلبوا على أوطان اسرع إليها الخراب لأنهم أمة وحشية فالحجر مثلاً، إنما حاجتهم إليه لنصبه في (أثافي) القدر فينقلونها من المباني ويخربونها عليه. والخشب أيضاً إنما حاجتهم إليه ليعمّدوا به خيامهم /١٥١ـ م/ (أي ليصنعوا منها أعمدة خيامهم). إنهم أكثر بداوة من سائر الأمم. وإذا ملكوا أمة من الأمم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع

بأخذ ما في أيديها /١٥٣ـ م/. طبيعتهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران/١٥١ـ م/. طبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس،وإن رزقهم في ظلال رماحهم وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه، بل كلما امتدت عيونهم إلى مال أو متاع انتهبوه همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهباً أو غرامة /١٥٢ـ م/ هذا هو حالهم على العموم. /١٥١ـ م/ حتى أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم وليس في العرب حملة علم لا في العلوم الشرعية ولا العقلية إلاّ في القليل النادر. وإن كان منهم العربي نسبة فهو أعجمي في لغته ومرباه /١٦١ـ م/. كما ان صنّاع النحو وحملة الحديث وعلماء اصول الفقه وحملة علم الكلام كانوا من فارس. ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم وظهر بذلك مصداق قوله (ص): (لو تعلق العلم بأكناف السماء، لنا له قوم من فارس[1]). (من المقدمة)

مقدمةٌ ليست بالموفقة كما أعتقد.أو على الأقل ليست بالسارّة. ولقد انتابتني الصدمة حين قراءتي لها للوهلة الأولى كما انتابكم حين سماعها وقلت: لابد ان تكون هذه الآراء صادرة عن مُتَمَشْرِقٍ حاقد على العروبة والاسلام. إلاّ أني بعد ان عدت وقرأتها قراءة متأنية خفَّفت من غلوائي. لا لأن هذه الآراء قد جاءت على لسان علاّمة عربي مسلم من فقهاء المذهب المالكي هو (ابن خلدون) موضوع حديثنا لهذا اليوم في كتابه ذي العنوان الطويل المسجوع كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.

أقول: لا لأن هذه الآراء قد جاءت على لسانه، بل لأمر أجد أنه من المفيد أن أقف عنده، لأنه قد يُفْهَم من سياق الكلام بغير معناه المُراد. وسأقف عند كلمتين فقط(كلمة عرب) و(كلمة عصابة) اللتين استعملهما ابن خلدون في (كتابه العبر).

١ـ كلمة عرب: يرى ساطع الحصري في كتابه " دراسات في مقدمة ابن خلدون " ان ابن خلدون قد استعمل هذه الكلمة بمعنى الأعراب لا العرب (الأعراب أشد كفراً

---

(١) الأرقام... تعني الصفحات في المقدمة التي رمزت لها بحرف/م/ وهي من كتاب ابن خلدون "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر . أما ذلك الحديث، فهو حديث موضوع.

ونفاقاً). (وقالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) "قرآن كريم". ولقد خضعت كلمة ـ عرب لتطورات كثيرة عبر التاريخ حيث كانت الكلمة تخص البدو وحدهم، ثم صارت تطلق على كل من يسكن المدن والأمصار./١/ ويرى د. محمد عابد الجابري في كتابه (مسألة الهوية ـ العروبة والاسلام والغرب) أن الأعرابي هو من سكن البادية والعربي هو من سكن المدن. ويضيف قائلاً: "وظهرت كلمة عرب وعروبة بشدة في منتصف القرن الماضي ١٩/م ـ عصر القوميات) أول ما ظهرت في لبنان وسورية وفلسطين. (والعرب والعروبة) كلمتان تستمدان معناهما من رد الفعل ضد الآخر الذي كان يهدد الوجود العربي ككيان متميز داخل الامبراطورية العثمانية، وكان هذا الآخر هم الأتراك الذين كانوا يطمحون في دمج القوميات الأخرى في القومية التركية الطورانية، مما عرف باسم (سياسة التتريك) وبخاصة بعد نشوء جمعية "تركيا الفتاة" التي انبثق من صفوفها وعي قومي يقوم على فصل العنصر التركي وتفضيله على العناصر الأخرى داخل الامبراطورية العثمانية./٢/ ثم حاول بعد ذلك الاستعمار الغربي طمس معالم القومية العربية الذي إزداد تفتحا بعد الاستقلال واشتدأُواره بين الخمسينات وأوائل السبعينات حيث طرح حزب البعث العربي الإشتراكي" شعار"أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة"، وبروز القائد القومي العربي الراحل جمال عبد الناصر، ثم سطوع نجم القائد حافظ الأسد. إن الآراء التي طرحها ابن خلدون بشأن العرب... لم تحمل بعض المستشرقين فقط على الاستشهاد بها للطعن بالعرب...... بل دفعت حتى بعض القوميين العرب أيضاً إلى التهجم عليه. فبعضهم طالب بإحراق كتبه /٣/ زاعماً أنه من الكافرين بالعربية، وبعضهم كالدكتور(طه حسين)، الذي شك وشكك بقضية الشعر الجاهلي برُمّته وشك حتى بالشخصيتين التاريخيتين (ابراهيم واسماعيل)، قد شك أيضاً بنسب ابن خلدون العربي في كتابه (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) ثم نفى (عبد الله بن عنان) عن ابن خلدون نسب العروبة وأرجع أصل نسبه إلى البربر/٤/. لكن بعضهم كان على النقيض من ذلك. فقال: "إن الذين شكوا بنسب ابن خلدون العربي لو عادوا إلى كتابه آنف الذكر وتمحّصوا مضمونه برويّة لأدركوا أنهم قد تسرعوا في إطلاق أحكامهم عليه لأن ابن خلدون

قد عامل البربر معاملة العرب بلا زيادة ولا نقصان. ويورد مثالاً تحت عنوان (إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع) فيقول: "و هؤلاء مثل العرب وزناتة ومن في معناهم من الأكراد والتركمان وأهل اللثام من صهناجة/١٤٧ ـ م/ وزناته وصهناجة ـ كما نعلم ـ هما أقوى قبائل البربرعلى الاطلاق. فقد وضعهم والعرب في مقام واحد. حتى أن بعضهم قد عدّه الفيلسوف القومي العربي الأول/٥/ معتبراً أن ابن خلدون قد لمّح وصرّح بعروبته من خلال قوله (وهي في لغتنا وليست في لغتهم) أي في اللغة العربية التي ينطق بها وينتمي إليها ويعتزّ بها./٦/ وختاماً لهذه الفقرة نقول من مبدأ(لا إفراط ولا تفريط) لسنا مع الذين أخرجوه من نسب العروبة ولا مع من عدّه القومي العربي الأول. بل نحن مع الذين يقولون: إنه عربي النسب ويطيب لي أن أردد جملة قالها ابن خلدون حفظتها فور قراءتي لها إذ يقول"النسب علم لاينفع وجهالة لاتضر". أما فيما يتعلق (بالمقدمة) فإنها قد جارت كثيراً على (العرب والعروبة) أياً كان الهدف والمعنى لكلمتي (عرب وعروبة). ولقد حاولت جاهداً أن أجد نعتاً إيجابياً ـ ولو كان خيط عنكبوت ـ صدر عنها بشأن العرب فلم أجد. وإن أي قارئ للمقدمة سيرى فيها ما رأيت ويخلص إلى ما خلصت أثناء قراءته الأولى لها ولا بد أن ينتابه العجب من أقوال ابن خلدون وسيتخذ منه موقفاً معادياً ، ولكن بعد أن يتمحّص ويعرف السبب حتماً سيبطل العجب. ولهذا... أرى أنه من المفيد جداً بل من الضروري في هذا المجال أن أُذكّر بما حصل من تزوير لكثير من المخطوطات العربية بعد خروج العرب من اسبانيا... تزوير قامت به أوربا ضمن خطة مدروسة مؤدلجة لخدمة أغراضها الاستعمارية وذلك من خلال إخضاع المخطوطات العربية لعملية نسخٍ إجبارية تزويرية على يد خطاطين (عرب وغير عرب)، غير عرب لتحقيق مآربهم، وعرب أُرْغِموا على القيام بهذا العمل الرهيب مُهَدَّدين بين أن ينسخوا ما يُراد وما يُملى عليهم وبين أن يُهدر دمهم. فها هو ((وليد الحجار)) أحد مثقفينا العرب السوريين يفضح العملية التزويرية في روايته التاريخية ((رحلة النيلوفر أو آخر الأمويين))، وسأورد ما قال باقتضاب مُرَكّزٍ لعدم الإطالة وبتصرف لا يتعدى تلاصق الجمل. يقول: ((واعْلم يا أخي...أني عبد مأمور لاحول له ولا قوة وأني ما عدت من طليطلة من فاس إلاَّ بأمر من الملك (فيليب) نحمل إليه كتباً من خزانة السلطان... وأني لن أترك حراً طليقاً

لأذيع خبر النسّاخ المائة والخمسين الذين /أنا/ منهم. نعمل ليلاً ونهاراً في إعادة كتابة ما لدينا من مخطوطات عربية. وإن مخطوط/كتاب العبر/ الذي حملناه معنا لم يكن يحمل في الأصل كلمة/ بربر/ في عنوانه.

واعلم يا أخي أن هذه شهادتي قبل أن أموت...إني أقسم بالله العظيم وبالقرآن الكريم أني رأيت النساخ ((الموريسكاس))[1] يعيدون نسخ كتاب /العبر/ وغيره فيبدلون كل ذكر لكلمة /اعرابي/بكلمة /عربي/ في كتاب ابن خلدون ويضيفون إليه فصولاً بكاملها في مدح البربر/حسب مشيئة السلطان بذم العرب/و/حسب ما بنفوس أصحاب الدير/ ويحذفون فصولاً بكاملها في ذكر مآثر العرب مما كتبه ابن خلدون وأنا الذي أكتم إسلامي وعروبتي وقد ساعدت في هذا العمل الكريه اسوةً بمن حولي من مسلمين غُلبوا على أمرهم نعمل سويةً مع مولدين ويهود جميعاً في خدمة /الأسكوريال/[2] والملك/فيليب/المأفون. إلى أن يقول: (وهكذا تحول كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر /بمسحة قلم/ وأصبح ما نعرفه

---

(١) المريسكاس أو (موريسكوز) (المغاربة الاسبان) الذين تنصروا عقب اعادة فتح المسيحيين اسبانيا وكان المسلمون في اسبانيا حتى ١٤٩٢ يسمح لهم بالاحتفاظ بعقيدتهم ولكنهم واجهوا بعد ذلك الخيار بين اعتناق المسيحية أو الطرد. استمر عدد كبير من المسامين العرب يمارسون سراً الفرائض الاسلامية وأدت سياسة عدم التسامح الديني الى نقص عدد المسلمين. وفي عام/١٦٠٩/ طُرِدَ جميع المسلمين العرب من اسبانيا. فكان لهذا الإجراء النتائج السيئة على اقتصاديات اسبانيا. انظر الموسوعة العربية الميسره ص: ١٧٧٧.

(٢) الاسكوريال (دير) أو (قصر) على بعد /٢٠/ ميلاً من (مدريد) في (اسبانيا) بناه الملك (فيليب الثاني) حاكم اسبانيا/١٥٣٦- ١٥٨٤/ والذي تحطم على زمنه أسطول (الأرمادا) الاسباني. كما بنى معه ديراً وكنيسة ومقابر ملكية. قام بزخرفته فنانون مشهورون وفيه مجموعة رائعة من اللوحات الفنية الاسبانية ومكتبة ضخمة تضم كثيراً من المخطوطات العربية. وكان أسطول (الأرمادا) اسطولاً لا يقهر ايام فيليب الثاني يوم كانت اسبانيا اقوى دولة على وجه الارض إلا أن (انكلترا) استطاعت أن تقضي على ذلك الاسطول من خلال تكتيك قتالي جديد حيث قاتل الانكليز على ظهر السفن في حين أن أسطول (الأرمادا) كان يقاتل بأسلوب مضى زمانه. انظر (الموسوعةالعربية الميسره) ص/١٥٣/ وكتاب (دون كيشوت). دار البعث.عدد/٢٠/ وزارة الثقافة ص/٦-٧- ٩-٢٠/.

اليوم بمقدمة ابن خلدون التي تحتوي صفحات في هجاء العرب) صفحات بنى عليها المستشرقون حقدهم ويقدمون هذه الصفحات لنا على أنها صفات للعرب على لسان علامة عربي مسلم من مبدأ.. رب البيت أدرى بما فيه. لقد بُدِّل عنوان (كتاب العبر) وأصبح (كتاب العبر في أيام العرب والعجم والبربر).. إن ابن خلدون الفخور بأصله العربي لم يكتب ديوان العبر لتمجيد العجم والبربر والطعن بأصله العربي الحضرمي أبداً وعلى قارئ المقدمة أن يقرأ- فيما يتعلق بكلمة عرب - على هذا الأساس[1].

كلمة عصابة: يقول القاموس: تعصب له وتعصب معه = نصره. والعصابة كالعصبة هي جماعة من الناس " وأتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة" وقول أخوة يوسف لأبيهم في القرآن الكريم أيضاً "لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون". والعصبية هي المحاماة والمدافعة عمّن يلزمك أمره أو تلزمه لغرض. كانت تطلق هذه الكلمة قديماً على جماعة ذوي أخلاق حسنة. وقد وردت في مدح أشراف الغساسنة في قول حسان بن ثابت:

لله درّ عصابة نادمتهم   يوماً بجلق في الزمان الأول

أو على الهائمين بحب الله كقول محي الدين بن عربي... على البحر الكامل نفسه:

لله در عصابة سارت بهم   نجب الفناء لحضرة الرحمن

ثم خضعت هذه الكلمة مع مرور الزمن ــ للتطوّر الدّلالي فصارت كلمة العصابة تطلق تحديداً على مجموعة من اللصوص والقتله وقطاع الطرق وشذاذ الآفاق. وهناك الآن بعض كلمات تغذ الخطا نحو معناها الجديد مثل (الطغمة ــ العميل ــ المخبر)[2] وقد استعمل ابن خلدون كلمة العصابة في كتابه ديوان العبر

---

(١) انظر كتاب تاريخ سوريا الحضاري القديم أحمد داوود مطبعة الكاتب العربي دمشق.ط/٢ حزيران ١٩٩٧ ص/١٥-١٦-١٧/.

(٢) الطغمة - البحر - الماء الكثير. صارت الكلمة تطلق على كل ما هو سلبي"طغمة الأشرار الطغمة الفاشية" إلا أن الآباء المسيحيين ما زالوا يقولون"طغمة الاكليروس الموقر". وكذلك كلمة (العميل ـ الشريك) صارت تطلق على كل خائن لوطنه "عميل للاستعمار" والمخبر أيضاً هو

بمعناها الأول لا بمعناها الثاني. ولكي يكون للكلمة اسقاط سياسي عصري يمّس واقعاً معيشاً فسنذكر جملة أوردها **الباحث (تيسير شيخ الأرض) إذ يقول:**

إن علاقة أفراد الحزب السياسي بحزبهم في الدولة الحديثة شبيهة بعلاقة العصابة أو أبناء العصبّية بصاحب العصبّية في الدولة القديمة. وما من فرق بينهما إلاتبلور بعض الأفكار السياسية.كالحرية والعدالة]. والديمقراطية مثلاً.

عرض مكثف لأهم المحطات في سيرة ومسيرة ابن خلدون

ـ ولد في تونس عام/١٣٣٢م/ وتوفي عام /١٤٠٦ م/فجأة من غير مرض وهو على رأس عمله كقاض للقضاة في مصر وعمره/ستة وسبعون عاماً/ دفن في القاهرة ولا يعرف أحد أين قبره.

ـ عاش عصر المماليك في مصر وكانت بغداد قد سقطت بأيدي التتار/٦٥٦/هـ وكان سقوطها كارثة مُنيت بها اللغة والأدب والحضارة العربية. ثم أخذت الدولة العربية تنهار في الأندلس وتسقط المدن الواحدة تلو الأخرى في أيدي القوط فلم يجد علماء بغداد وأدباؤها ملجأ سوى مصر بعدما خرب التتاَر معالمها وأغرقوا في نهر دجلة كتبها فعجّت مصر بهؤلاء الأدباء وكرّمت وِفَادتهم.

ـ تفشّى مرض الطاعون فأطاح بوالديه وبعدد من العلماء وهو في الثامنة من عمره فهاجرإلى المغرب الأقصى ونتيجة لذلك ترك العلم وتوجه إلى الوظائف العامة.

ـ أضافوا إليه الكثيرمن النعوت والألقاب حسب أعماله الوظيفية التي أوكلت إليه.

ـ رافق الحملة المصرية لمحاربة" تيمورلنك" في الشام فالتقى بتيمورلنك وكان مفاوضاً بارعاً.

الناقل للخبر أياً كان هذا الخبر لكنها صارت تطلق على كل عين تنقل للسلطة الأخبار. وما زالت أمثال هذه الكلمات تعاني مداً وجزراً بين المعنيين إلى أن يأتي يوم وتهجر فيه الكلمة المعنى الأول تماماً مثل كلمة الطابور الخامس إذا كان المعنى... هو الطابور المؤيّد للثورة ثم أصبح المصطلح يعني مرّوجي الإشاعات المعادية وما إلى ذلك.

ـ فقد جميع اسرته وأهله وأولاده وكتبه وماله في حادث غرق سفينة كانت تقلّ اسرته للحاق به.

ـ لم ينعم خلال عمره المديد بحياة هادئة. فلقد نعت /روزفلت/ حياة ابن خلدون بـ/الحياة الصاخبة/ أو النوع الذي عبر عنه (موسوليني) بـ/الحياة المستخطرة/./٧/

ـ هو/عبد الرحمن بن محمد بن خالد/ أبو زيد. لقب نفسه بالحضرمي. واشتهر بابن خلدون نسبة إلى أول من دخل من أجداده الأندلس وهو/ خالد بن عثمان/. وبما أن أهل الأندلس كانوا يضيفون إلى الإسم "واواً ونوناً" في آخره تعظيماً لقدر صاحبه فقد صار اسم جده (خالد ـ خلدون) كأن نقول/عمر ـ عمرون/سعد ـ سعدون/زيد ـ زيدون/[1].

ـ لاتساع شهرة مقدمته كادت تربط كلمة المقدمة باسمه كما ارتبط اسمه بكلمة المقدمة على الرغم من أن الأوربيين هم الذين أطلقوا كلمة المقدمة لا هو إذ أطلقوها على ما سماه هو بـ"الكتاب الأول من ديوان"كتاب العبر"/٨/.

حياة ابن خلدون

تنقسم حياته إلى ثلاثة أدوار رئيسية:

أـ دور العمل السياسي في بلاد المغرب. استمر مدة تزيد عن السنتين/١٣٥٢ـ ١٣٧٤/.

ب ـ دور الانزواء والتأليف والتأمل في قلعة (ابن سلامة).

استمر أربع سنوات/١٣٧٤ـ ١٣٧٨/ بعد أن أدرك أن العلماء هم نوع من البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها رغم أن أرسطو قال (الانسان حيوان سياسي).

ج ـ دور الانصراف إلى التدريس والقضاء ومراجعة التأليف استمر ثمانية وعشرين عاماً/١٣٧٨ـ ١٤٠٦/.

صفاته

محب للعلم.. راغب في الظهور... واسع الاطلاع... غزير المعرفة... حفظ القرآن في سن مبكر... درس العلوم الشرعية واللغة العربية والعلوم التطبيقية والرياضية وعلم

---

(١) تضاف الواو والنون في العربية القديمة أيضاً للتصغير.

المنطق والفلسفة. ونستشف سعة مخزونه المعرفي من كتابه"ديوان العبر" حيث كذب فيه تخرصات بني اسرائيل من حيث تعدادهم (٢٢ـ٢٣/م) ورفض أسطورة المؤرخين التي تجعل الزنوج وأكثر أبناء إفريقية سوداً لغضب جدهم /نوح/ على ولده/حام/ من خلال الشتيمة التوراتية التي لفّقها اليهود. كما ردّ التهمة الموجهة زوراً إلى الخليفة الفاضل/هارون الرشيد/ من شربٍ للخمرة ومعاشرة للنساء، ودافع عن عفة أخته /العباسة/ فيما يروى عن علاقتها بهتاناً بـ/جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي/ وما جرَّته هذه العلاقة من شربها للخمرة معه ومواقعته لها وحملها منه سراً (٢٦ـ٣٠/م) وأنبأنا بأن الربع الشمالي من الأرض أكثر عمراناً من الربع الجنوبي (٩٠/م) (برد الشمال وحرالجنوب). وهناك الآن نظرية حديثة تقول (الشمال الغني والجنوب الفقير) كما أخبرنا بتأثير الهواء على أخلاق وعقول البشر(٢/٩٤). ويدلّك حديثه على ثقافته الموسوعية سواء في موضوع الاسرائيليات أو في علم البيئة وعلم التاريخ والجغرافيا ناهيك عن حديثه في الطب والخط والكتابة وعلوم الحديث وعلوم البلاغة، وتقديمه معلومة "سيكولوجية" تتعلق بالأطفال طالبنا فيها بالرأفة بهم لأن التعسف والقهر يحملهم على الكذب ولاغرو في هذا.ألم يكن سائر السلف المثقفون يتحدثون ثقافياً في الاتجاهات الستة فقد عّرفوا المثقف (بأنه هو الذي يعرف كل شيء عن شيء وشيئاً عن كل شيء). ولعل أهم ما قدمه لنا هو (ارهاصه لعلم الاجتماع) الذي قال عنه بلسان حاله "واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة(٤٩/م). ويضيف كما تقول الموسوعة الميسرة/٩/ بعد أن فرق بين علمه الجديد/أي علم الاجماع/ وعلم الخطابة الذي عده علماً نافعاً /لاستمالة الجمهور إلى رأي أو صدهم عنه/: (لعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة. ما أدري. ألغفلتهم عن ذلك؟ وليس الظن بهم أو لعلهم كتبوا في هذا الغرض واستوفوه ولم يصل إلينا) (٤٩/م). ويضيف قائلاً: (كأن بعضهم قد حوّم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده ولا استوفى مسائله. ونحن ألهمنا اللّه إلى ذلك إلهاماً) (٥١/م). ويأمل من الذين يأتون من بعده أن يستمروا في البحث فيتمموا ما فاته من مسائل. وقد تحقق أمله ولكن للأسف على يد فلاسفة غربيين أمثال (فيكو)... و(أوغوست كونت)... و(هربرت سبنسر)... وآخرين. ومن يتأمل صورته

التي رسمها تخيّلاً الأديب الفنان المبدع العبقري "جبران خليل جبران" يستطع أن يقرأ ملامح شخصية عزّ نظيرها... ينبيك مظهرها عن عمق جوهرها.

الدولة عند ابن خلدون

إذا كان علم السياسة هو إدارة الشؤون المشتركة بمقتضى الحكمة فإن الدولة في التعريف الحديث هي (مجموعة من الأفراد يقيمون بصفة دائمة في إقليم معين وتسيطرعليهم هيئة حاكمة ذات سيادة) إلا أن ابن خلدون لم يُعَرِّفْ الدولة من خلال حديثه عنها... بل تكلم عنها وكأنها من الأمور المفهومة التي لا تحتاج إلى تعريف. وكثيراً ما كان يرادفها /عنده/ كلمة "الملك". والدولة في نظره هي[الملك التام الذي لا فوق فوقه وينضوي تحت لوائه عدة أقوام وملوك]./١٠/

نشأة الدولة عنده

إذا رأى (نيتشه) ان الدولة لا تبدأ بعقد ولا بتعاون وإنما ينشؤها جبابرة من الوحوش الكواسر السادة الأقوياء ذوي المقدرة الحربية والتنظيم العسكري الذين أنشبوا مخالبهم في سكان بلاد تفوقهم عدداً. ورأى هيغل أن الدولة إلّه على الأرض، فإن رأي ابن خلدون في موضوع نشأة الدولة يماثل آراء افلاطون وأرسطو والفارابي. إذ رأى افلاطون أن الدولة تنشأ عن عجز الفرد عن سد حاجاته بنفسه وافتقاره إلى معونة الآخرين. ورأى تلميذه أرسطو أن الدولة هي مجموعة من المواطنين ذات عدد كاف لتحقيق جميع أغراض الحياة. ورأى الفارابي مثلهما وأن الدولة هي نتاج أفراد أهاليها وتستمدّ شكلها منهم، وكذلك ابن خلدون إذ رأى أن الانسان مدني بالطبع والاجتماع ضروري له، وهو أقرب إلى الخير من خلال الشر بأصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة، لأن الشر جاء إليه من قبل القوى الحيوانية التي فيه(١٤٥/م) وأن الانسان أخو الإنسان، بعكس (هوبز) الذي رأى أن الانسان ذئب على أخيه الإنسان. والانسان يتعاون مع أبناء جنسه من خلال الاجتماعات البشرية الضرورية له **لتأمين حاجتين أساسيتين:**

١. **سد حاجته لتحصيل غذائه.**
٢. **الدفاع عن النفس أمام الحيوانات العُجْم.**

١ـ فيما يتعلق بسد حاجته وتحصيل غذائه: فإن لكل منهم دوراً فالخبز مثلاً لا يصل إلينا إلا بعد عملية مركبة تحتاج إلى زارعين وساقين وحاصدين ودارسين وبائعين وشارين وطاحنين وعاجنين وخابزين ومن ثمّ.. يصل إلى الآكلين.

٢ـ فيما يتعلق بالدفاع عن النفس: فإن العدوان متأصل في الحيوانات العُجْم وقد زُوِّد كل منها بعضو يدافع فيه عن نفسه (قرون..مخالب) إلا أن الانسان قد وُهِب بدل القرون والمخالب (الفكر واليد) فصنع الرمح بدل القرن والسيف عوضاً عن المخلب.إلى غير ذلك مما ذكره (جالينوس) في كتابه ((منافع الأعضاء)).

نشوء السلطة السياسية

بعد تحصيل الغذاء وحماية الانسان نفسه من الحيوانات صار بحاجة ماسّة إلى سلطة تكون وازعاً يدفع بعضهم عن بعض لما في طبيعتهم الحيوانية من ظلم وعدوان وبخاصة وأنهم ملكوا السلاح.

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلّةٍ لا يظلم

سلطة تكون فيها ولها الغلبة والسلطان واليد القاهرة عليهم حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان. ذلك هو الملك(٥٤/م)، فالعالم بستان سياجه الدولة. وإذا كان للحيوانات رئيس منهم يتميز عنهم (كالنحل والجراد) بمقتضى الفكرة والهداية لابمقتضى الفكرة والسياسة التي يتمتع بها الانسان الذي يدرك الظواهر بالحواس الخمس والبواطن بالقوة الدماغية (١١١/م)، إذا كان للحيوانات رئيس منهم فالأولى أن تكون الرئاسة والسلطة للمتميّزين من البشر "أعطى كل شيء خلقه ثم هدى".

السلطة بين الوضع والتنزيل

خالف ابن خلدون أكثر آراء المفكرين والفلاسفة المسلمين وعلماء الكلام من أن النبوة ليست ضرورية لإنشاء مجتمع وتأسيس حكومة وإن عدّها مفيدة. والسلطة في نظره ليست مُنَزَّلةً ولا مفروضة من السماء كما يزعم البعض بل هي وضعية يفرضها القائمون عليها، وهي ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية، وتتكون بشكل طبيعي بمجرد اجتماع البشر وقيام العمران لايجاد التكافؤ بين عناصر

المجتمع المختلفة. كما أن الدين ليس شرطاً ضرورياً للدولة لأن أغلب أمم الأرض لم تعرف النبوات. "ويذكر المجوس مثالاً" إلا أنه أقرّ بأن الدولة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها، لأن الصبغة الدينية تُذهب التنافس والتحاسد الذي هو أصل العصبية (١٥٩/م) (لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى) (المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص) (كل من تكلم العربية فهو عربي).. وأكد أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم " ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه". وكان يقول "إذا فقد شعب عصبيته فقد سيادته". رغم أن الحديث النبوي الشريف يقول: (من قاتل تحت راية عميّة يدعو إلى عصبية أو يغضب لعصبية فقتلته جاهلية)/١١/. أو قول (ليس منا من يدعوا إلى عصبية). ولقد فرق الرسول (ص) بين حب القوم وبين العصبية من مبدأ (الأقربون أولى بالمعروف). إذ عندما سأله أحدهم قائلاً: يا رسول الله أمن العصبيّة أن يحب الرجل قومه؟ قال: (لا ولكن من العصبية أن يعين الرجل قومه على الظلم). وكأني بابن خلدون ـ على الرغم من معرفته بمعنى الحديث الشريف (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً). أي نصرة أخيه المظلوم ومنعه من الظلم ولو كان أخاً ـ وكأنه يردد البيت الشعري القائل:

وما أنا إلا من غزيّة إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

من هو الأولى بالرئاسة؟

الرئاسة في أهل العصبية تكون بالغلب. ومن الواجب أن تكون هناك عصبية أقوى من سائر العصائب ليقع الغلب بها وتتم الرئاسة لأهلها (١٣٥/م). وغاية العصبية هي الملك (١٤٣/م). ولا يمكن أن تكون الرئاسة على أهل العصبية من غير جلدتهم ونسلهم (٣٨ـ١٣٦/م) انطلاقاً من قوله(ص): (مولى القوم منهم).

الرئاسة والملك: يفرق ابن خلدون بين الرئاسة والملك فيقول:

الرئاسة: سؤدد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه، إلا أن الرئاسة تنتهي بالملك لأن صاحب العصبية إذا بلغ رتبة طلب ما فوقها.

أما الملك: فهو فوق الرئاسة. وهو الغلب والحكم والقهر وإلزام الآخرين في كل

شيء. ويزيد الملك على الرئاسة بشيء... هو الحكم بالقهر.

العصبية والدولة

إذا حصل تغلب العصبية على قومها، طلبت التغلب بعدها على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها. وكأن ابن خلدون يُعرِّف الغزو بلغة الحاضر"فالغزو.. تعريفاً.. هو فعل قوة ضاق بها محيطها ونمت أطماعها فتجاوزت ذلك المحيط.. لسد ثغرات أو لتحقيق طموحات". فإذا كانت العصبية الثانية قوية كقوة الأولى أو أقل بقليل.. اكتفت كل عصبية بما لديها. أما إذا غلبتها الأولى استتبعتها وألحقتها بها. فتزداد الأولى بذلك قوة على قوة. لكن إذا حصل الاعتداء والأولى في هرمها، انتزعت الثانية الأمر من يد الأولى وصار الملك للثانية(١٤٢/م). والأمة إذا غُلبت وصارت ملك غيرها أسرع اليها الفناء(١٥٠/م). والذي يساعد على قيام الدولة واستمرارها.. اتّصاف الحاكم بصفات الكرم والخير، لأن الأعطيات والهبات تزيد الدولة في بدايتها قوة على قوة. إن الرئاسة بحاجة إلى عصبية أما الذين لاأنساب لهم ولا عصبية... فلا يمكن أن يصبحوا من ذوي الرئاسة أبداً.

تأثير الغالب على المغلوب

النفوس يصعب انقيادها للدولة أول قيامها إلاً بقوة قوية من الغلبة والقهر (١٥٦/م) إلى أن تستقر أمور الدولة والرئاسة معها. واستقرار الأمر في أيدي فئة قوية من الناس يجعلهم متفوقين غالبين. فتعترف بهذه الفئة الغالبية العظمى من الفئات الأخرى. عندها لم يعد التغلب تغلباً من الخارج بل صار يحتل النفوس بعد أن غزاها من الداخل شيئاً فشيئاً حتى صار يزيّن للمغلوبين كل مالدى الغالب من عادات وتقاليد ومذاهب، فيتشبهون به ويقلدونه في ملبسه ومركبه وسلاحه. بل في سائر أحواله (١٤٩/م) فالناس على دين الملك (٤٠/م). ونحن نقول في المثل العامي"الناس على دين ملوكهم" ويعلل ذلك ابن خلدون قائلاً: السبب في ذلك أن النفس تعتقد الكمال فيمن غلبها. ويذكر مثالاً يبين فيه كيف يقلد الأبناء آباءهم... الصغير يقلد أباه فيفتل شاربيه أمام المرأة وهو مازال حَدَثاً والصغيرة تقلدأمها في الرقص والزينة وما إلى ذلك.

الدولة... اتساعاً وانحساراً... وأهمية مركزها

للدولة امتداد في الزمان والمكان. يقول ابن خلدون: (وتتسع الدولة حتى تبلغ غاية اتساعها ثم تقف عند هذا الحد إلى أن يأتي الدور الذي تبدأ به عدهاالتنازلي. وانحسار الدولة يبدأ أول ما يبدأ من الأطراف، إذ بعد أن تدرك القوة المجاورة ضعف قوة جارتها تبدأ الدولة المعتدية القوية بمناوشة الدولة الضعيفة المعتدى عليها من الأطراف، فتحاول الأطراف المغلوبة لم شتاتها وذلك بالعودة والاحتماء بمركز الدولة الوسط). ويقول أيضاً: (إذا أدرك الأمة الضعف تأخذ في التناقص من جهة الأطراف ولا يزال مركزها... أي العاصمة حديثاً...[1] محفوظاً. أما إذا غُلِبَتِ الدولة في مركزها فلن ينفعها بقاء الأطراف لأن المركز كالقلب الذي تنبعث منه الروح فإذا غُلِبَ القلب انهزمت سائر الأطراف.... شأن الأشعة والأنوار التي تتلاشى تدريجياً كلما ابتعدت عن مركز انطلاقها). ويذكر ابن خلدون في هذا الصدد مثال الدولة الفارسية يوم غلبها المسلمون في مركزها فلم ينفع "يزدجرد" ما بقي في يده من أطراف مملكته... فانهارت دولة فارس كلها بعكس ما حصل مع الدولة الرومانية حيث كان مركزها في القسطنطينية. ويوم غلب المسلمون الرومان في الشام تحيّزوا إلى مراكزهم في القسطنطينية ولم يضرّهم انتزاع الشام من أيديهم. لأن الأمم المغلوبة تواصل المقاومة حتى تسقط عاصمتها... وإذا سقطت العاصمة فعلى الأرض السلام... إن لكل دولة حصةً من الممالك لاتزيد عليها لأن عصابة الدولة والقائمين عليها.. والممهدين لها لابد من توزيعهم على الممالك والثغور التي احتلتها الدولة لحمايتها، فإذا توزعت العصائب كلهاعلى الثغور والممالك فلا بد من نفاد عددها، لأن الممالك إذا بلغت حداً كبيراً لا تستطيع الدولة حينها حمايتها لقلة ما لديها من جند... فتبقى هذه الممالك بلا حماية... عندئذ ينتهز العدو المجاور الفرصة لاحتلال هذه الممالك وبذلك يكون وبالاً على الدولة وخرقاً لسياج الدولة وهيبتها(١٦٣/م).

بداية ملامح الانحسار

من طبيعة الملك الترف لأن الأمة إذا تغلّبت وملكت كثرت في أيديها الآلاء

---

(١) ولهذا يقولون: العاصمة هي اختصار للوطن.

والـنعم. فيتجـاوز القـائمون عليهـا قـسوة العـيش ويميلـون إلى الرقـة والدّعـة والزينـة ويأكلون الطيب ويلبسون الأنيق ويركبون الفارِه(١٦٨/م) ويستمتعون بـأحوال الـدنيا وزخرفها. وعندما يبدأ الترف ـ والـترف مفسدة للخلـق ـ يبـدأ الهرم في مفاصل الدولـة شـيئاً فـشيئاً.. حتـى تزيـد نفقـات القـائمين علـى الدولـة علـى عطـاءاتهم ويبـدأ تمـايز المجتمـع وتفاوتـه طبقيـاً... فيهلـك الفقـراء المعـدمون في بـؤرة الإنـسحاق والعـدم ويـسبح الموسـرون في نعيم مقيم، ويستغرق المسرفون في تبـذيرهم ممـا يُجْبِـرُ صـاحب الدولـة على زيادة الأعطيات ليسد الخلل الحاصل فيـضطر إلى رفـع نـسبة الجباية. والدولـة لا ترفـع الجبايـة إلا في آخـر أيامهـا. لكـن هـذا العمـل لا يـسد الخلـل فيُـشرع الـسلطان وحاشيته ورعاياه ومن لفّ لفّهم بامتهان التجارة. وامتهـان التجـارة مـن قبـل الـسلطان ـ كما يرى ـ مضرّة بالرعية والاقتصاد وإفساد الجباية، وأعظم من ذلك تسلط الدولـة أو التجار الذين أصبحوا تجـاراً[1] باسـم الدولـة علـى أمـوال النـاس وذلـك بـشراء مـا في أيـديهم بـأبخس الأثمـان. ثـم فـرض البـضائع علـيهم بـأرفع الأثمـان. ولكـونهم صـاروا سماسـرة وتجـاراً في آن معـاً فـإنهم يُكْرِهـون الـشعب ظلمـاً وعـدواناً في عمليتَـيْ البيـع والشراء والظلم مُؤْذِنٌ بخراب العمران.

حجر السلطان والاستبداد عليه

اذا استمرت السلطة فقط في أفراد العصابة القائمين على الملك واحداً تلـو الآخـر في هـذه الحالـة قـد يحـدث التغلـب علـى المنـصب مـن قبـل وزراء أفـراد العـصابة وحاشيتهم، وسببه في الغالب ولاية صبي صغير قاصر من أهل الملك يرشح للولايـة في عهد أبيه أو من قبل أخوالـه وذويـه. صبي يـؤنس فيـه العجـز عـن القيـام بالملك. فيقـوم بالملك الفعلي وزراء أبيه وحاشيته ومواليـه. فيحجـب هـذا الـصبي عـن النـاس ويعوّدونـه على ذوبان الذات والغرق في الملذات التي يـدعو إليهـا تـرف أحوالـه. وينـسونه النظـر في الأمور السلطانية (١٨٤ـ١٨٥/م) ويبقى الحل والربط والأمر والنهي بيد الوزير. وإذا مـا أراد هذا الـصبي يومـاً بعـد ان يبلـغ أشـده وتتـسع مداركـه ويتفهم مـا يجـري مـن حولـه

---

(١) نظر ابن خلدون الى التجارة على أنها تلطف الأخلاق الخشنة لاضطرار التاجر إلى إمكانية البيع والشراء فيعطي من طرف اللسان حلاوة (٧٤٤/م).

وهو لاحول له ولا قوة... اذا ما أراد الامساك بزمام السلطة فلن يستطيع ذلك أبداً لأن الوزراء والحاشية يحتلون مفاصل الدولة بكاملها ويشرشون في عروقها وشرايينها ظاهراً وباطناً... سراً وعلانية، فيعرضون عليه خيارات هي في الحقيقة خيارات في الظاهر أما في الباطن فما هي إلا قسر والزامات ولا سبيل له بالخيار ولا التفكير بغيرها تبديلاً أو تعديلاً... وهي إما رفع الرتبة عنه وإقصاؤه من المكان أو قتله بأسلوب ما... أو الرضى والتسليم بهذا الواقع الذي يراه ولا يرضى عنه ولا يستطيع أن يحرك نحوه ساكناً. ساعتئذٍ يجد نفسه مضطراً لقبول الشروط للحفاظ على حياته أو مكانه على الأقل.

أجيال الدولة

يقول ابن خلدون: (للدولة أعمار كما للناس أعمار) استناداً إلى الآية الكريمة (فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون) ومعدل عمر الأمة الطبيعي عنده ـ باستثناء الأحوال النادرة ـ مئة وعشرون عاماً أي أن عمر الدولة في الغالب لا يتعدى ثلاثة أجيال، والجيل في نظره هو عمر الشخص الذي بلغ أشده ـ أي عمر الوسط ـ (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة). كذلك بنو اسرائيل يوم دعاهم موسى إلى ملك الشام قالوا له: (إن فيها قوماً جبارين لن ندخلها حتى يخرجوا منها). ولما عزم عليهم لجّوا وعصوا وقالوا: "اذهب أنت وربك فقاتلا..." فعاقبهم الله بالتيه وقال جلّ وعلا: (إنها محرمة عليهم.. أربعين سنة يتيهون في الأرض) فلم يأووا خلال التيه لعمران ولا نزلوا مصراً ولا خالطوا بشراً (١٤٤/م). ولقد عاقب الله بني اسرائيل بالتيه حتى ينقرض الجيل الأول ويظهر من بعده جيل لم يعهد الذلّ الذي كان يعيشه سلفه. وكل جيل من هؤلاء الأجيال الثلاثة يختلف عن الآخر في أخلاقه وطرق معيشته وفي ظواهره وسماته. وهذا الاختلاف بين الأجيال الثلاثة يمثل طور الدولة من القوة إلى الضعف ومن قسوة البداوة إلى لين الحضارة. لأن ابن خلدون يرى أن البدو أقدم من الحضر وأكثر خشونة. ولأنهم أعرق في البداوة فهم أكثر توحشاً وأقوى على الغلب من سواهم. كما أن البدو في نظره أقرب إلى الخير والشجاعة والبساطة الأولى من أهل الحضر الذين يمارسون فنون الملاذ

وعوائد الترف والإقبال على الدنيا التي لوثت نفوسهم. ولهذا هاجمه بعضهم لأنه في نظرهم فضل الحياة الهمجية على حياة الحضارة.

أجيال الدولة الثلاثة

الجيل الأول: جيل البداوة والخشونة ويصفه ابن خلدون قائلاً: (وهذا الجيل لم تزل فيه خلق البداوة وخشونتها وتوحشهامن شظف العيش وبساطة الإفتراس والاشتراك في المجد فلا تزال سورة الغضّبية محفوظة لديهم.

فحدهم مرهف وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون).

الجيل الثاني: وهذا الجيل الذي انتقل من البداوة إلى الحضارة ومن شظف العيش إلى رخائه ونعيمه يصفه ابن خلدون بمايلي: (والجيل الثاني تحوّل حالهم بالملك والترف من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف والاشتراك في المجد والانفراد به. ومن عز الاستطالة إلى ذلّ الاستكانة) ومن يعجز عن المدافعة عما يملك فهو عاجز أيضاً عن مقاومة مهاجميه أو مطالبتهم حتى بأدنى حق من حقوقه المسلوبة منه (١٤٣ــ١٤٤/م) فتتكسر شوكةالعصبية بعض الشيء وتؤنس منهم المهانة والخنوع ويبقى لهم ما أدركوه من الجيل الأول.

الجيل الثالث: هو جيل الحضارة والترف المبالغ فيه إلى حد التفريط. يقول ابن خلدون: (أما الجيل الثالث فإنه نسي عهد البداوة والخشونة كأن لم يكن فيفقد حلاوة العصبية ويبلغ فيه الترف غايته حتى يصبح عالة على الدولة ويغدو من جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنه). هذا الجيل يلبس الشارات البراقة ويطرح الشعارات الزائفة ويركب الخيل للأبهة والتمويه فقط وهوأجبن من النساء وإذا استجار به مستغيث لم يجد به هَيْعَة ـ ((الصوت المرعب والمخيف)) (١٢٩/م) ولم تعد تهزّه نخوة أو تثير حميّتهُ صرخة "وامعتصماه". باختصار شديد: إن عمر الدول عند ابن خلدون ثلاثة أجيال (بناء ف/جني/ف/هدم/) /الأول يبني ويؤسس/ والثاني يعيش على مابناه الأول/ والثالث يهدم/....[1]

(١) ويذكرنا ذلك بإخوان الصفا الذين يذهبون إلى أن [كل دولة لها وقت منه تبتدئ ولها غاية

أطوار الدولة

الأجيال الثلاثة التي تحدثنا عنها تمر بخمسة أطوار مختلفة تبدأ بالاتساع وتنتهي بالانحسار

١. **طور الظفر:** يتم حين الاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة السابقة. وفي هذا الطور يكون صاحب الدولة نداً للجميع. الكل في ظله سواسية وشركاء معه في الملك والمجد والمال وذلك بمقتضى العصبيّة التي يقع بها الغلب.

٢. **طور الاستبداد:** يبدأ صاحب الدولة بالاستبداد محاولاً بادئ ذي بدء الانفراد بالملك شيئاً فشيئاً فيمنع سائر القبيل من الاشتراك به. ومن طبيعة الملك الانفراد بالمجد وإحياء خلق التأله الذي في طباع البشر مع ماتقتضيه السياسة من انفراد الحاكم بالحكم (١٦٧/م). وعندما يمنعهم صاحب الدولة من المساهمة والمشاركة في الملك بعد أن كانوا يضربون في الملك بمثل سيفه ولهم مثل أسهمه يستطيبون الموت في سبيل استعادة ما سُلب منهم. فيضطر صاحب الدولة إلى اصطناع رجال آخرين من غير جلدته لاتخاذهم موالي وجنداً له، ويستكثر منهم لجدع أنوف أهل عصبيّته والعصبيات الأخرى ليقي الدولة من الهرم، والدولة لا تصطنع الأجانب إلا في آخر عمرها(١٨٤/م). كما حدث مع الأتراك الذين كانت غالبيةجندهم من الموالي. فيصل الأمر بصاحب الدولة إلى حد قتل كل من استراب فيه من قرابته ممن تسول له نفسه المشاركة في الحكم...(والقتل مفسدة للنوع).

ساعتها... تراوح الأمة في مكانها وتحيا في سبات شتوي وتتنفس بجزء من رئتها حتى يطالها المرض بكلّيتها ويتجاسر عليها أعداؤها وينهشوها من كل جانب.

٣. **طور الفراغ والدعة:** ويتم في هذا الطور تحصيل ثمرات الملك وحصد النتائج فيشرع صاحب الدولة. بإنشاء المباني الضخمة. والقصور الفضفاضة والامصار المتسعة والهياكل المرتفعة والأبهة الزائفة **ويذكر هنا مثالين:**

إليها ترتقي وحد إليه تنتهي. وإذا بلغت مدى غايتهاأخذت في الانحطاط والنقصان] انظر كتاب عبده الشمالي دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الاسلامية وآثار رجالها. بيروت ط/٥ ط١٩٧٩ ص/ ٣٩٩/. وانظر رسائل إخوان الصفا...

١ـ يذكر أعراس (المأمون)بـ (بوران) بنت الحسن بن سهل وما بذل أبوها وما أنفق في عرسها.

٢ـ يذكر حفل الحجاج عندما أَوْلَمَ لاختتان ولده حيث فاق في انفاقه في هذا الحفل إنفاق مرازبة كسرى. كما يظهر أيضاً على حاشيته أثر الجاه والمال في ملابسهم وزينتهم وأشكالهم ليُباهِي بهم الدول المسالمة ويُرهب الدول المجاورة إلاّ أن هذه الحاشية ليست سوى هياكل عظمية وخشب مسندة لاتهش ولا تبش كأنهم أعجاز نخل خاوية. وهذا الطور هو آخر أطوار الاستبداد.

٤. **طورالقنوع والمسالمة:** يقنع صاحب الدولة في هذا الطور بما بناه الأولون ممن سبقوه. فيقلدهم تقليداً أعمى متقفّياً آثارهم حذوالنعل بالنعل، ويرى أن الخروج عن تقليدهم أمر ضار له ولسلطته. فيفشل ـ لضعف ملكاته ـ حتى في تقليدهم ويكون بذلك قد أتلف ما جمعه سلفه من غير أن يقدم عبر حياته شيئاً... وكيف يقدم ويعطي وفاقد الشئ لا يعطيه؟ فهو غائب حتى في الحضور... وموجود بغير وجود... ومظهرٌ من غير جوهر.

٥. **طور الإسراف والتبذير:** يتلف صاحب الدولة في هذا الطور ما بقي من المال الذي جمعه الأولون في سبيل الشهوات والملاذ عليه وعلى بطانته ومجالسه فقط ممن اختارهم واصطفاهم من أخدان السوء وخضراء الدمن[1] "أي الجميل منظره والقبيح مخبره" وعندما يشعر أن مال الدولة قد أوشك على النفاد يبدأ بالتقليل من الأعطيات لجنوده مع تخفيف عددهم ما أمكن. وهؤلاء الباقون ليسوا إلاً جنوداً فسدت أخلاقهم وتعوّدوا على النعيم المقيم وهم قاعدون، فقد استعذبوا الأخذ من غير عطاء "كالقط الذي يأكل ولا يصطاد". وهؤلاء لا يمكن أن يتحملوا شظف العيش وحياة التقشف فيتخاذلون حتى في نصرته في اللحظات التي هو بأمسّ الحاجة فيها إليهم. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور مخرّباً لما كان سلفه يؤسسون، وهدّاماً لما كانوا يبنون. فتشيخ الدولة ويطالها الهرم وتضمحل شيئاً فشيئاً إلى أن تزول عن خارطة الوجود. وإذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملها على ارتكاب الموبقات

---

(١) **يقول الرسول محمد(ص):** (إياكم وخضراء الدمن) **أي المرأة الجميلة ذات المنبت السوء.**

وانتحال الرزائل(١٤٦/م). ثم يذكر الآية الكريمة: (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا).

ابن خلدون في ميزان النقاد

لما للزمان من بالغ الأهمية فقد اضافه (إينشتاين) بعداً رابعاً إلى الأبعاد الثلاثة(الطول والعرض والارتفاع). لذا لا يمكن النظر إلى دولة ابن خلدون بالعين التي ننظر بها إلى الدولة هذا اليوم لأن ابن خلدون قد رسم دولته في القرن الرابع عشر /م/. وبالتالي... فهي مرآة تعكس أحوال زمانه وما سبقه مضافاً إلى ذلك استشرافه الخلدوني. ولو نظرنا إلى دولة ابن خلدون بعين اليوم لكنّا كمن يقيس معلقة امرئ القيس بمسبار القصيدة النثرية أو كالذي ينظر بعين العصر إلى عّرافة دلفي في وقت كان فيه اليونانيون يعتقدون أنها تتخطى حجب الغيب وتستشرف لهم مكنون الآتي.

من النقاد من رأى أن ابن خلدون كان مقلداً لا مجدداً ولا رائداً في مجال علمه. يقول(أحمد محمد الحوفي) في كتابه (مع ابن خلدون) (إن ابن خلدون قد أخذ بعض آرائه من كتاب الفارابي... آراء أهل المدينة الفاضلة... أخذ منه حاجة الإنسان إلى الاجتماع ونشأة القرى والمدن، كما استعار من إخوان الصفا تقسيم العلوم وآراءهم في تأثير الطبيعة والبلدان على الأخلاق، كما اعتمد في تقسيم العلوم على مفاتح العلوم للخوارزمي، ونقل كثيراً من الآراء السياسية من كتاب (الأحكام السلطانية) للماوردي وكذلك عن كتاب (آراء أرسطو السياسية) إلخ...

ومن النقاد من قال: إنه تأثر بالطرطوشي. وهذا الرأي في نظري رأي مسطح لا أهمية له لأنه لم يُبْنَ على استنتاج ولا على اجتهاد وإنما كان نقلاً حرفياً عما قاله ابن خلدون بلسان حاله عندما تحدث عن الكتاب المنسوب لأرسطو في السياسة. وقد يوافقني الآخرون عندما يقرؤون ما قاله ابن خلدون. قال: (لقد وقع إلينا الكثير من مسائله ـ أي علم الاجتماع ـ في كلمات متفرقة لحكماء الخليقة لكنهم لم يستوفوه. فمن كلام الموبذان بهرام بن بهرام فقيه الفرس وحاكم المجوس(٥٠/م) ومن كلام

(انوشـروان) في هـذا المعنـى، وكـذلك نجـد في كـلام ابـن المقفـع. ويتـابع قـائلاً: وهنـا محـط الـشاهد: (وأبـو بكـر الطرشوشـي في كتابـه (سـراج الملـوك) حـوّم حـول هـذا الموضـوع لكنـه لم يـصادف فيـه الرّميّـة ولا أصـاب الـشاكلة ولا اسـتوفى المـسائل ولا أوضح الأدلة) (٥٠ـ٥١/م). وإن قول ابـن خلـدون (حـوّم الطرشوشـي حـول الموضـوع) يعـني في نظـري أن أولويـات موضـوع علـم الاجتمـاع كـانـت واضـحة المعـالم في ذهنـه وكـان بذلك مقوّماً للطرشوشي لا ناقلاً عنه أو متأثّراً به. وإذا عد الدكتور طه حسين أن ابـن خلـدون مـا عـرف علـم الإجتمـاع ولكنـه وضـع أسـس الفلـسفة الاجتماعيـة/١٢/ فـإن كـثيراً مـن النقـاد قـد اجمعـوا أن ابـن خلـدون كـان أول مـن حـاول أن يفسـر التـاريخ في حركتـه الجدليـة، فلقـد عـدّه (أوغـست كونـت) مؤسـساً لعلـم الاجتمـاع/١٣/. ورأى المستشرق الهولندي (دي بور) في مقدمـة ابـن خلـدون عمـلاً عظيمـاً مبتكـراً/١٤/. وعـدّ (ول ديورانت) في كتابه قصة الحضارة الجزء (٢٦ـ٢٧) ص (٧٨ـ٨٥) عدّ المقدمة واحـدة من الروائع في الأدب الإسـلامي وفي فلسفة التـاريخ... وأن كتابـه أهـم مؤلـف تـاريخي في العصور الوسطى. ونظر إليه المستشرق الإيطالي (أماري) على أنـه أول كـاتـب في العـالم عـالج موضوع فلسفة التاريخ/١٥/. ونضيف قائلين: علينا أن نعامـل ابـن خلـدون علـى أنـه رائد علمه فالبدايات في كل شيء من أصعب المشكلات.

أمـا في موضـوع الدولـة: فأنـا أرجـح بكـل تواضـع، وردُّ الـرأي لـي شـخصياً لا يعـني تعالياً وإدّعاءً للمعرفة وإنما لكي لاأنسب هذا الكـلام لغيري، أقول "يتراءى لـي أن ابـن خلدون قد اطلع أو تناهى إلى سمعه ما حوى كتاب الجمهورية لأفلاطون لما وجدت مـن بعـض التماثـل بـين نظـام الحكـم الاسـتبدادي عنـد أفلاطـون /إذ اعتبره أسـوأ أنـواع الحكم لأن السلطة المطلقـة مفسدة مطلقـة/ وبـين طـور الاسـتبداد والاسـراف والتبـذير عنـد ابـن خلـدون. لكـن علينـا هنـا أن نـذكّر بمسـألة هامـة ونقـول: حتـى لـو تـأثر ابـن خلدون بالفـارابي أو بـأفلاطون أو بأرسـطو كمـا رأى الـبعض... تـرى ألم يتـأثر الفـارابي بأفلوطين؟ ثم ألم يتأثر أفلوطين بـأفلاطون بل ألم يتـأثر أفلاطـون بأسـتاذه سـقراط وبـ (ليكو رجيوس)؟ وهكذا دواليك ضمن حلقة متصلة لا انقطاع بين آخرها وأولها.

إن التأثر: لا ينفي عن صاحبة ـ أبداًـ ميزة الابداع... فلا شئ يخلق من عدم.

وتـأثر دانـتي في كوميـدياه الإلهيـة برسـالة الغفـران للمعـري ـ كمـا رأى أسـين بلاسيوس ـ لا يُسْقِطُ عظمة هذا الشاعر العبقري.

كمـا تـأثر المعـري: في رسـالة الغفـران بقـصة الإسـراء والمعـراج وبعـض أفكـار الفرس التي هضمها لا يقلل من عبقرية ما أبدعه فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة. ثـم هـل مـن المنطـق أن نقيس المحـاولات الفرديـة والـشذرات العفويـة بـالعلم المُقَوْنن في إطار نظريات مسلّم بها لدى الجميع؟..

بل.. هل يمكننا القول: إن الأخوين (رايت) الأمريكيين اللذين اخترعا الطائرة قد أخذا علمهما عن عباس بن فرناس مثلاً؟ إن ابن خلدون كان بحق مكتشف ومؤسس علـم الاجتمـاع اسمـاً ومنهجـاً وتـنظيراً مـن دون منـازع. وإن كلمـة "العمـران البـشري والإجتماع الإنساني" أكثر دقة وشمولية من تسمية "سوسيولوجي" التي أطلقها عالم الإجتمـاع (أوغوسـت كونـت) ١٧٩٧ــ١٨٥٧/م. كمـا أنـه أول مـن اسـتخدم العلـوم الاجتماعية والسياسية مجتمعة وسخرها لخدمة التاريخ محاولاً ربط السياسة بعجلة الاقتـصاد فوضـع بـذلك حجـر الأسـاس لموضـوع الاقتـصاد الـسياسي وعلـم الاجتمـاع الـسياسي أيـضاً. كمـا خـط منهجـاً للبحـث العلمـي. يقـول (حامـد عبـد الله ربيـع) في كتابه (فقه السياسة في فلسفة ابن خلدون الاجتماعية): (إن ابن خلدون بالطريقة التي تناول بها الظاهرة موضع الدراسة قد خلق طريقاً للبحث العلمي).. لقد بدأ الأوربيون بالاهتمام بدراسة ابـن خلـدون في منتصف القـرن التاسـع عشر/م/ درسـوه... وهـضموه... وتمثلوه... ثـم... تخطـوه متخـذين مـن نـواة أفكـاره أحـد المداميك الـتي بنـوا عليهـا صـرح حضارتهم. أما نحن العرب فقد تأخر اهتمامنا بابن خلدون جداً... جداً.

ومـا اسـتطعنا تمثلـه ولا تخطّيـه بـل اكتفينـا بدراسـته فقـط وعنـدما حاولنـا هـضمه هـضم بعـضنا حقـه... ولم يكتـف الـبعض بـأن أبقـاه في دائـرة الاتبـاع نافيـاً عنـه صـفة الابداع... بل أخرجه حتى من فلك العروبة أصلاً ونسباً علماً أن العلاّمـة (نـاجي معـروف) في كتابه (عروبة العلماء) قد صنّف ابن خلدون على أنه واحد من أهم المبدعين العرب.

خـاتـمة

انطلاقاً من حبي الذي لايقل شأناً عن العبادة لأمتي العربيـة... ودفاعـاً عـن قـدري الذي أوجدني فيها وجعلني أنضوي تحت لوائها كفرد من أبنائها الذين يتمنّون لها المقام العليّ والشرف السنيّ الأسمى... كثيراً ما وقفت في محراب الدولة الخلدونية حائراً اسأل نفسي أسئلة أراها من الأهمية بمكان. واسمحوا لي أن أفكر بها بصوت عال... ترى... إلى أي جيل من أجيال الدولة الخلدونية وصلت أمتي؟ وفي أي طور من أطوارها تعيش وما الذي أوصلها إلى ما وصلت إليه؟ وما السبب؟ ولماذا؟ وكيف؟... وإلى متى يمتد سباتها والزمن لاينتظر أحداً؟ المشكلة.. أني كلما سألت نفسي هذه الأسئلة تجيبني بكلمة لا أدري.. وكلمة لا أدري (مصيبة) في عصر فيه (الغول أحادي القطبية) يتربص خلف الأبواب... فمن كان منكم لايدري فأنا وإياه في خانة واحدة ومن كان منكم يدري فَلّيَهْدِني إلى معالم الطريق قبل فوات الأوان. ولست أدري ما الذي ذكّرني بقول الشاعر:

فـإن كنـت لا تـدري فتلـك مـصيبة   وإن كنـت تـدري فالمـصيبة أعظـم

لا أقول ذلك مستسلماً لليأس والقنوط بل لنخرج جميعاً من قمقم السبات متذكرين ما قاله (جاك رسلر) عندما استشهد بعمر الخيام قال: (إن الجواد العربي قفز قفزات رائعة وسريعة في تاريخ الحضارة فلا بد له من استراحة). وأملنا أن لا تطول هذه الاستراحة... قانعين بأنه من زوايا الألم يولد الإبداع... ومن رحم الظلمة ينبجس النور... من لجة اليأس يولد الرجاء الأمل.....

المصادر والمراجع

١. دراسات في مقدمة ابن خلدون. ساطع الحصري. ص/١٥١ـ١٦٨/ مكتبة الخانجي القاهرة دار الكتاب العربي/ط/٨/١٩٦٧.

٢. ص/٢١ـ٣٩/.

٣. وذلك في خطبة ألقاها مدير المعارف العام في العراق على مجموعة من المدرسين.

٤. دراسات في مقدمة ابن خلدون ساطع الحصري ص/٥٢٢/.

٥. هذه الجملة عنوان كتاب ل"نافذ سويد".

٦. المصدر نفسه ص/١٠٤/.

٧. دراسات في مقدمة ابن خلدون ساطع الحصري ص/٣٩/.

٨. مجلة عالم الفكر الكويتية مجلد/١٤/عـ٢/١٩٨٣/ص١٠/٢٩٩.

٩. ص١٤ـ١٥.

١٠. دراسات في مقدمة ابن خلدون ساطع الحصري ص/٣٥٤/.

١١. سنن ابن ماجه حققه فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي ج ـ/٢ ص١٣٠٢.

١٢ ـ١٢ـ١٣ـ١٤ـ١٥دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الاسلامية وأثار رجالها عبده الشمالي دار صادر بيروت ط/٥ ص٧٥٦ـ٧٥٧ـ٧٥٨.

المراجع

- ابن خلدون. فلسفته الاجتماعية. جوستون بوتول. وزارة الثقافة والارشاد القومي المؤسسة العامة المصرية.
- ابن خلدون وعلم الاجتماع الحديث. فؤاد نزار البعلي.. دارالمدى بيروت ط/٢ مجلد/٨ /١٩٧٥/.
- السياسة والدين عند ابن خلدون. جورج لابيكا. دار الفارابي./١٩٨٠/.

تعريف علم الاجتماع:

- علم يدرس قوانين عمل المجتمع وتطوره وعلاقاته الاجتماعية. المعجم الفلسفي المختصر ص/٢٥٥/ موسكو دار التقدم/١٩٨٦/ترجمة توفيق سلوم.
- هو علم دراسة الانسان والمجتمع دراسة علمية تعتمد على المنهج العلمي وما يقتضيه هذا المنهج من أسس وقواعد وأساليب في البحث. عالم المعرفة ع/٤٤ آب ١٩٩١/الكويت. عبد الباسط عبد المعطي.
- علم الجماعات أو المجتمعات الانسانية وهو في حد ذاته دراسة الإنسان في مظهره الاجتماعي وللجماعات من الناس الذين يسعون بشكل تعاوني /يزيدأو يقل/ إلى تحقيق مصالح رئيسية معينة أو بصفة أساسيةتلك المصالح المتعلقة بالمحافظة على الذات والتكاثر /الموسوعة العربية الميسرة ص/١٢٢٤/ الدار القومية للطباعة /مصر/ تأليف مجموعة من الخبراء.

. فولتير
وارهاصات التنوير

عندما تقف عند أسماء بعض المشاهير عالمياً تتبدى لك نعوت لهم.. اشتهروا بها وخلدتهم على الرغم من أنها ليست هي أسماءهم الحقيقية. فـ (شكسبير) مثلاً (والذي أوجد كلمة الدولار قبل وجود الدولار كعملة) اسمه الحقيقي (وليم أردن) و(نيوتن اسمه إسحاق آسكاف) و(نابليون بونابرت = نابليون رامولينو) و(فرويد = سيغموند ناتانسن). (إينشتاين = تشارلي هيل) (دارون = تشارلز ودجودو) (أديسون = توماس إلفا ايلوت)[1] (موليير = جان بابتست بوكلين) (كاليغولا[2] = غايوس قصير جيرما نيكوس) (جان كيزخان/ وتعني/ السيد المطلق/= تيموجين) (ستالين =

---

(١) قيل: إن هؤلاء جمعياً قد استبدلوا نسب أبائهم بنسب أمهاتهم.

(٢) (كاليغولا- الجندي الصغير) وقد تمنى هذا القيصر أن يكون لشعبه رقبة واحدة حتى يقطعها بضربة سيف واحدة وكان يطرح شعار (دعه يشعر أنه يموت) لكل من يريد أن يعذبه أو يقتص منه ومن شدة جنونه نصب حصانه قنصلاً له.

جوزيف فيزار يوفيتش زوغاشفيللي) وهكذا.. ومن الشهيرات من استبدلت اسمها الأنثوي باسم ذكوري متمردة على وضع المرأة آنذاك ومتحدية بذلك حتى الرجل نفسه. فلبست لباسه وماثلته في تصرفاته بل حاولت أن تضاهيه. وكانت خشونتها بمثابة سكين تحز مشاعر عشيقها المرهف الحساسية (الفريد دي موسيه) الذي كثيرا ما حاول أن يعيدها أنثى فما استطاع. ألا وهي (أورور ديبان) المعروفة في الأوساط الأدبية بـ (جورج صاند). أو (ماري آن إيفانس) التي كتبت باسم رجل لأن معاصريها كانوا يعتقدون أن المرآة لا تستطيع الإ تيان بعمل عملاق كالرجل.

فسمت نفسها (جورج اليوت). حتى أن بعضهم قد غلب عليه لقبه كـ (أرسطوقليس) مثلاً. حيث أطلق عليه مدربه لعرض في منكبيه لقب (بلاطون = أفلاطون) فلبسه اللقب حياً وميتاً. كما نجد في العربية بعض المشاهير قد عرفوا بألقابهم أكثر من أسمائهم كـ (الأخطل الصغير = بشارة الخوري) (وبنت الشاطىء = عائشة عبد الرحمن) و(محيي الدين بن عربي = أبو بكر محمد بن علي) الخ.....

و(فولتير) موضوع محاضرتنا لهذا اليوم عرف أيضاً بلقبه. إذ أن فولتير كلمة تعني قطعة أرض صغيرة كانت تملكها أمه[1] فأطلق عليه هذا اللقب تحبباً حتى طغى على اسمه الحقيقي وظل اللقب يحاصر اسمه ويخفيه في غياهب الصفحات ولا يعرف أحد أن اسم ((فوليتر)) الحقيقي هو: (فرانسوا ماري أوريه) إلا بعد أن يتخذ من البحث والتقصي منهجاً وسبيلاً.

ولد فولتير عام /١٦٩٤/ وتوفي عام/١٧٧٨/ وكان منذ ولادته ضعيف البنية مما اضطر أهله إلى أن يتأخروا في عماده.وظل يشكو من اعتلال في صحته إلا أنه كان طبيب نفسه لا ينصاع لنصائح الأطباء وذلك من خلال الطب الوقائي لا العلاجي الذي فرضه على نفسه، ورغم ذلك فقد كان ديناميا دائم الحركة والتحرك فاعلاً ومنفعلاً.

ومما يدلُ على سرعة حركته وتحركه ـ وهما بالتالي صدى لداخله الموّار ـ أنه عندما كان يقدم مسرحية (بيرون) أراد ان يبث السرعة في إحدى الممثلات فأدى لها

---

(١) يقول (ول ديورانت) إنها كانت أي الأرض ـ لابن عمه.. أنظر جزء ٣٥-٣٦ ص/٥٥/.

الدور على النحو الذي يريد فقالت له الممثلة منفعلة مشاكسه: لكي أمثل الدور على النحو الذي تريد ، يجب أن يتلبسني الشيطان. إلا أنه كان كريماً.. وكثيراً ما تنازل عن عائدات مسرحيته للممثلين... وإذا أضاع مالاً أو شيئاً ثميناً لا يحزنه الأمر كثيراً بل يكتفي بالقول: (أعطانا الله وأخذ الله... تقدس اسم الله). ومهما اختلف الدارسون في شأن (فولتير) إلا أنهم متفقون جميعاً بأنه كان عصبي المزاج يملك طبعاً حاداً أفقده الاعتدال والوسطية في سائر أموره. إذا استلطف أحداً أو أعجب بإنسان ما.. أحبه حتى حدود العمى وبذل في سبيله أغلى ما لديه، وإذا كره أحداً أو تصدى له أحدهم ـ وهو من الذين لا يحبون أن ينتقدهم أحد ـ حاربه بكل ما أوتي من قوة بلا شفقة ولا رأفة. فهو القائل عن نفسه (إني مولود للعراك)[1]. لذلك قال عنه "غريم": (إني لا أرى هذا الرجل العظيم ينحط إلى أقل من مستواه إلا حين يعميه الهوى). إلا أنه كان قوي الإرادة إذا صمم على بلوغ هدف ما.. سار فيه حتى الشوط الأخير. ولما حاول والده أن يدخله سلك القضاء ويبعده عن جو الأدب الذي تعشقه إذ قال له والده: (يابني الأدب جواز مرور نحو الفقر والعوز). لم تثنه نصائح والده عن تحقيق مراده، بل سار في السبيل الذي رسمه لنفسه آملا أن يكون مثل (كورناي) و(راسين) وغيرهما. وظل يسير ثابت الخطأ حتى استطاع بإمكاناته أن يتبوأ مقعداً بارزاً في سدة التاريخ.

سجن لسلاطة لسانه أكثر من مرة، ولحسن حظه أن المسجونين في (الباستيل) لم يكونوا محرومين مما يشغلهم أو يسليهم، فكان لدى (فوليتر) (ورق وحبر وقلم وفراغ) مضافاً إلى ذلك ملكاته وإمكاناته ـ أو كما يقول (ول ديورانت) في كتابه (قصة الحضارة) ـ كان يكتب على الكتب المطبوعة بين السطور فوضع في السجن مسودة لأثرين هامين في حياته مسودة (أوديب) متحدياً بذلك (كورناي) و(سفوكليس) أيضاً... موضوعها يتحدث عن (سفاح المحارم). ومسودة أسماها (المعاهدة) ثم غير اسمها إلى (الهنريادة) حيث صرح أحد النقاد الفرنسيين بأنها تسمو على (الإلياذة والإنيادة). وبعد خروجه من السجن عُرِضَتْ مسرحيّتهُ (أوديب) ونجحت

---

(١) يقول (دانتي) في (كوميدياه الإلهية) (الإنسان ينال شرفاً عظيماً إذا انتقم).

نجاحاً عظيماً وصار جل الناس يرددون بيتين من المسرحية وهما: كهنتكم ـ ليسوا كما تظنون ـ إنهم جهلة. وسذاجتنا هي التي صنعت علمهم كله. سجن بعدها ثانية. وكتب إلى السلطات عارضاً عليها أن ينفي نفسه إلى إنكلترا إذا أفرج عنه.

فأفرج عنه وهاجر إلى إنكلترا عام/١٧٢٦/ وأقام فيها إقامة جبرية. فأتقن اللغة الإنكليزية وقرأ مؤلفات ((شكسبير)) فدهش من قوتة وقلة ذوقه. ثم قلّدة في الكتابة المسرحية بما يتلاءم والذوق الفرنسي. وبعد فترة عاد إلى فرنسا متخفيا قبل أن ينضوي تحت لواء المركيزة (دي شاتليه) كخليلة ومعجبة في آن واحد.

دعاه (فريدريك الثاني) ملك بروسيا عام/١٧٣٦/ يوم كان ولياً للعهد إلى (ألمانيا) فلبى الدعوة متحمساً واستقبل في (برلين) استقبالاً رائعاً إلا أن هذا الحماس لم يدم طويلاً فكتب إلى ابنة أخته/ مدام دني/ قائلاً لها: (كل ما أفكر فيه هو الهرب بشرف). ونستطيع أن نستشف سبب هروبه (من الكلمات التي أرسلها أليها) وكأنه يقدم لنا ـ من خلالها ـ نظرية أو علاقة من علاقات المثقف بالسلطة التي تعامل المثقف كالبرتقالة حسب رأيه تمتص عصيرها وترمي بقشورها إذ قال لها: (سأكتب قاموساً صغيراً يستعمله الملوك فـ (يا صديقي.. تعنى عندهم يا عبدي). و(يا صديقي العزيز).. وتعني عندهم.. (لا أبالي بك مطلقاً) و(سأسعدك).. تعنى عندهم.. (سأتحملك طالما احتجت إليك) و(تناول معي الليلة العشاء).. وتعنى عندهم. (سأتناولك الليلة بالسخرية). وقد يصبح هذا القاموس كبيراً وهو مادة يجب أن تندرج في (الانسكلوبيديا).

وبعد عودته إلى فرنسا عام/١٧٧٨/ قرر مسرح (الكوميدي فرانسيز) أن يمثل أخر مأساة كتبها (فولتير) أسماها (إريني) فأصر الجميع على حضوره إلى باريس ليشهد عرض مسرحيته فحضر ونزل ضيفاً على المركيز (دي فيليت) واستقبلته الجماهير بحماس منقطع النظير وحلت خيول عربته وجرتها بدل الخيول حتى المسرح ضمن هتاف وتصفيق أشعلا فيه نشوة عارمة وصاح في الناس ((أتريدونني أن أموت من الفرح)).

وعندما مرض مرضاً شديداً رفض الأب ((جوتيه)) زيارته إلا إذا اعترف بمبادىء (الكاثوليكية) فرفض وقال: (إني أموت عبداً لله.. محباً لأصدقائي ـ غير كاره لأعدائي). وظل مصراً على موقفه حتى وفاته إذ عندما أحضروا له كاهناً ليبارك روحه وهو يحتضر سأله الفيلسوف بصعوبة بالغة: من أين جئت أيها الأب ؟. قال الأب: من عند الله نفسه. رد عليه (فوليتر) قائلاً: أين أوراق اعتمادك؟. وعندما توفي رفض (الأكليروس) الباريسي دفنه حسب الطقوس المسيحية. فدفنه الأب ((دي سيليير)) في ديره ثم حملت ـ رفاته عام/١٧٩١/ ـ إلى (البانتيون ـ مقبرة العظماء) ووسدت بجانب (جان جاك روسو) صديقه القديم الذي أصبح فيما بعد عدوه اللدود.

عصر التنوير

إذا كانت الفلسفة تحولاً من (الميثوس) إلى (اللوغوس).. فإن التنوير انتقال من الظلمات إلى النور أو من القديم إلى الجديد. والصراع بين القديم والجديد كان، ولا يزال.. وسيبقى منذ الأزل وإلى الأبد.

(فجديد الأمس هو قديم اليوم) و(جديد اليوم هو قديم الغد) وستبقى تلك السيرورة سيالة حتى يرث الله الأرض ومن عليها. ولئن طرح ــ قديماًــ فرعون (ابسماتيك) شعار (عودوا إلى القدماء) ظناً منه بأن مصر لن تعود إلى سالف عهدها المضيء إلا إذا نهلت من معين السلف، فإن (باراكيلسوس) رفض هذا الشعار وما يماثله قائلاً: (أنا فوق القدماء وهم لا يعرفون أكثر منا).

إلا أن سائر المحاولات التي اتخذت من التجديد منهجاً رافضة كل ماض، لم يطلق عليها اسم التنوير، وإنما أطلقت تسمية (حركة التنوير) أو (فلسفة الأنوار) على الحركة التي ظهرت في أوربا في القرن الثامن عشر وتحديداً منذ/١٦٧١/ وحتى/١٨٠٠/ في كل من فرنسا وألمانيا ثم انتشرت في سائر أوربا بالتدريج.

وأهم ما يميز هذه الحركة: أنها تيار فكري عقلاني قام بمواجهة السلطتين الكنسية والسياسية معاً إذ ارتبطت بهذه الحركة جملة أحداث سياسية وتقنية واقتصادية وفكرية، فكانت إرهاصاً للحدث الأكبر الذي هز أوربا برمتها ألا وهو

الثورة الفرنسية عام /١٧٨٩/ والتي طرحت شعار (حرية، إخاء، مساواة) وألغت شعار (يحيا الملك) وأحلّت محلّه شعار (تحيا الأمة).

وكانت فلسفة التنوير خروجاً عن التراث والتقاليد باسم العقل الذي جعلت منه سيد كل شيء، حيث (حل العقل مكان النقل) وساد (التعريف بدل العرف) وحل (التجريب محل المسلم به سلفاً). فحققت الثورة التنويرية عن طريق ذلك قطيعة (ابستمولوجية = معرفية) مع الماضي الأوربي مقتبسة بعض رموزها لتوظيفها توظيفاً جديداً خرجت به عن سياقه الماضوي، فسلبت الكنيسة سلطتها على الدنيا باسم الدين..

وعلى الأرض باسم السماء[1]. وما فولتير إلا مدماك من أهم المداميك التي بُنِيَ فوقها صرحُ فلسفة التنوير.

فولتير وفلسفتة من منظور النقاد

في داخل فوليتر يتصارع ضدان:

الأول: ينبيك بأن الحياة عرض زائل لا تساوي شيئاً كونها عبوراً من الممر إلى المستقر، وذلك من خلال ما كتبه إلى مدام /ديوديفان/ قائلاً لها: (إني أقضي وقتي في النطنطة على حافة قبري وهذا لعمري ما يفعله البشر جمعياً). أو من خلال ما قاله في مسرحية (كانديد) ـ والتي يصور فيها آلام البشر (لا شيء في الحياة جدير بكفاحنا وجهودنا، وإن ما فيها من خيرات ليس إلا متاع الغرور). أو من خلال قوله (سنرث العالم كما وجدناه في سخافته وشره وفساده)./١/

والثاني: ينبيك بأن الحياة جديرة بأن تعاش في بهجة وسرور حيث يظهر في هذا الجانب وكأنه صدى (لأبيقور) صاحب مبدأ (اللذة) حين قال/فولتير/: (الإنسان

---

(١) تحدد القرون الوسطى من/٤٧٦/حتى/١٤٥٣/إي منذ سقوط الدولة الرومانية الغربية على يد (الجرمان)حتى سقوط الدولة الرومانية الشرقية على يد الأتراك، إلا أن القرون الوسطى غير القرون المظلمة حيث تطلق تسمية القرون المظلمة على الخمسمئة سنة الأولى أي من/٤٧٦/ ولغاية/٩٧٦/ وحدد مصطلح النهضة العربية بين الأعوام/١٨٧٥/و/١٩٥٢/.

خلق ليلهو شريطة أن لا يؤذي أحداً). أو تراه صدى (لسيدوري) حارسة(الحانة) في ملحمة(جلجامش). **حين قالت له:** (يا جلجامش..أملء كرشك وافرح في ليلك ونهارك). ويقول (فولتير): (الضحك من كل ما يستحق الضحك هو هدف بحد ذاته). وقال أيضا: (انني أضحك لأتقي الجنون). كما قال: (التقشف نوع من المرض ـ وليس من صالح المرء تعذيب نفسه ـ ومن الجنون الاعتقاد بأن الله يطالبنا بذلك).

وأما فلسفته فيصفها (اندريه كريسون) في كتابه (فولتير)/٢/ بأنها ليست أصيلة ولا مبتكرة لأنها بنيت على عجل وعلى أسس غير متينة، مستعيراً أفكارها من أسلافه ومعاصريه. وعدّه (يوسف كرم) في كتابه (تاريخ الفلسفة) من أنصار الفلسفة الطبيعية والمذهب التجريبي./٣/ إلا أن كتاب (ألف شخصية عظيمة) /٤/ قد نعته بأنه ملك الهجاء وفيلسوف وتاريخي وداهية. كما اعتبره الناس الذين عاصروه أعظم شاعر حي في فرنسا. إلا أن (ول ديورانت) في كتابه (قصة الحضارة) قد نسب عصره كله إليه فلم يقل (العصر الذي عاش به فولتير) بل قال: (عصر فولتير). ونعته د. (حسن حنفي) في كتابه (في الفكر الغربي) /٥/ بأنه أعظم الفلاسفة على الإطلاق ومن أوسعهم أثراً ولا يعدله في عظمته وأثره إلا (هيغل). وقال (غريم): (إذا كان التفكير الفلسفي قد انتشر وَعَمّ في عصرنا هذا أكثر من أي عصر آخر، فإننا مدينون بذلك إلى فولتير). رغم أنه اعترف بلسانه حاله قائلاً: (إن الفلسفة لم تكن شغله الوحيد والأساس). وأما أسلوبه فكان أسلوباً عادياً بلغة عادية بعيدة عن الفلسفة الأكاديمية بمصطلحاتها ومفاهيمها ونظرياتها.

ولعل (القاموس الفلسفي) من أهم أعماله التاريخية والأدبية والفلسفية التي تقارب (سبعين مؤلفاً). ويعتبر هذا القاموس قمة ما توصل إليه (عصر التنوير) من تقدم حضاري وفكري.

جولة بانورامية في فلسفة فولتير

نظام الحكم عنده: رغم أن فولتير يحبذ النظام الجمهوري الذي يقوم على الديمقراطية إلا أنه لا يعير أهمية لشكل نظام الحكم (ملكياً كان أم أرستقراطيا أم ديموقراطياً).

المهم عنده ـ أن على الدولة أيا كان نظامهاـ أن تدير البلاد في سبيل خدمة مواطنيها وفقا للمبادىء التي تؤمن لهم الطمأنينة والأمن الخارجي. والدولة الناجحة هي التي تؤمن لمواطنيها سلامتهم بأقل نفقة.

موقفه من الحرب: إذا رأى (نيتشه) أن الدولة هدفها الحرب ثم الحرب كرة أخرى، وأن خير السلام ما قصرت مدته، فإن (فولتير) كان على النقيض من ذلك. إذ عد الحرب شيئاً معادياً ومريعاً. يقول: (وهؤلاء اللصوص الذين يسمون فاتحين.. ما أكرههم.. ومن الواجب أن يتسلح الناس ضدهم وأن يستعدوا لمقاومتهم).

موقفه من الحضارة: لئن اعتقد (ديوجين) بوجوب عودتنا إلى البساطة الأولى لنعيش مع الحيوانات المسالمة الأليفة، فإن (فولتير) قد آثر الحضارة وعدها كنزاً ثميناً. ولا ينصح أحداً بالتخلي عنها لأنها قفزة نوعية نحو غد أفضل، وعلينا أن لا نستبدل بها البساطة الأولى ولو دفعنا ضريبتها غالياً.

مبدأ المساواة: لم يكن فولتير مؤمناً بمبدأ المساواة بين الناس والأفراد.. ولو آمن أفلاطون بالإختلافات بين الناس وبين الأجناس والأمم أيضاً/٦/. والمساواة عنده لا وجود لها على أرض الواقع.[١] والذين يطالبون بها يعيشون في أوهام خطيرة. يقول: (لقد قال أحد الفلاسفة: إن العقول متساوية. ويجيب: لكن عكس ذلك أمر معروف منذ القدم. ويذكر المثال التالي: إذا أخذنا أربعمئة طفل يربون على يد المعلمين ذاتهم، ويتلقون العلم ذاته، لم نجد سوى خمسة أو ستة أطفال ينالون تقدماً

---

(١) أنظر (بروتوكولات حكماء صهيون) وقول (دانتي) في (الكوميديا) هناك من ولد ليكن مشرعاً أو جندياً أو كاهناً.

محسوساً). ويعقب قائلاً: (لا القوى الجسمانية، ولا الذكاء، ولا المعرفة، ولا المشاعر الأخلاقية مقسمة بالتساوي. وإذا كانت وجوه البشر مختلفة فإن العقول أكثر منها اختلافاً/٧/.

حق الملكية: يقول فولتير (كيف يضبط المرء نفسه حين يقرأ جملة جان جاك روسوالتي تقول: اذكروا أن الثمار هي للناس جميعاً، وأن الأرض ليست لأحد. وهذا تأكيد لمبدأ يهدم أهم حق في حياة الإنسان وهو حق الملكية).إن على الجميع احترام ملكية الفرد وحريته لأن روح الملكية ـ كما يقول ـ تضاعف قوة الإنسان، ويعتبرها مفيدة(للراعي والرعية) في جميع الأوقات، والشك قي قيمتها الأخلاقية كما فعل (جان جاك روسو) عمل وحشي همجي.

إن لكل امرء الحق في أن يملك.. وأن يورث ما يملك بالطرق المشروعة.وعلى كل انسان أن يسعى لتحقيق رفاهيته التي لا تكون شراً إلا حين يظلم إخوانه. كما اعتبر أن الحرية أعظم النعم إطلاقاً. لذا.. يجب أن يمنح الإنسان حرية العمل. والتفكير.. والتعبير عن رأيه شريطة أن لا يكون مخرباً هداماً/٨/.

التعليم: عظم (فوليتر) العلم.إلا أن العلم برأيه لا يكون من حق الناس جميعاً. فقد كتب إلى صديقه قائلاً: (أرى أنه من اللازم أن يكون في العالم رعاع جهلة ولو كان عندك مثلي أرض تستثمرها، وكان عندك مثلي محاريث، إذاً لكنت من رأيي.

من خلال ما تقدم نرى أن (فولتير) كان واحداً من الطبقة الارستقراطية أو البرجوازية تنظيراً وممارسة، اكتساباً وانتساباً. لإيمانه بضرورة وجود التفاوت الطبقي بين الأفراد على الصعد كافة. ولست أدري لم.. لم يكن (فولتير) في هذا المجال صدى (لأفلاطون) الذي رأى في (جمهوريته الفاضلة) أن النظام الأرستقراطي هو أفضل أنواع الحكم وأن النظام الديموقراطي هو أسوأ أنواع الحكم. ولا يزيده سوءاً إلا النظام الاستبدادي الذي وصفه (اللورد أكتن) بقوله (السلطة المطلقة... مفسدة مطلقة). لكننا نلحظ شيئاً هاماً هو أن(فولتير) كان يركز دائماً على عدم إيذاء الغير في حال ممارسة المرء عملاً ما.. لأنه كان من المؤمنين بضرورة سيادة العدالة والخير تحقيقاً لإنسانية الإنسان ليبقى المجتمع سليماً معافى. والعدالة والخير

في رأيه **وسيلتان لتحقيق غاية أسمى ألا وهي:**

راحة النفس والضمير في حال ممارستهما، وعذابه في حال غيابهما يقول: (علينا أن لا نزعم أن ممارسة العدالة تكفي لتأمين السعادة، ولكنْ ثمة شيء صحيح هو أن (المجرم) ينزل به عقاب الندم الذي لا يبرحه أبداً. وكذلك (الرجل الفاضل) يجد جزاءه في الشعور الباطني بأنه أدى واجبه، وفي طمأنينة القلب وهتاف الجماهير.. وصداقة الناس الطيبين.. ويقول أيضاً: (أريد أن أفعل الخير لنفسي، وأفعله أيضاً لإرضاء الموجود الأعظم). يقول سقراط في هذا الصدد/: أنا لا افعل الخير لأنه من عند اللّه بل افعل الخير لأن الخير هو اللّه نفسه.

أصل البشر: يرى (فولتير) أن البشر لا ينحدرون من أرومة واحدة. وأن ثمت أجناساً مختلفة من البشر كأجناس الطيور، وأن (البشر يشبهون الشجر) (فالشوح والسنديان والتفاح والمشمش) ..الخ لم يأت كل ذلك من شجرة واحدة وكذلك (الأبيض والأسود والأصفر) (لا ينحدرون من إنسان واحد) وهذه الأجناس قد تولدت في مناطق مختلفة... ومن العبث ان نجعل البيض ينحدرون من الهنود الحمر والصينيين ينحدرون من المصرين.

كما نقد (فولتير) (بيندام) الذي اعتقد بتشكل حيوانات صغيرة في ماء نقعت به حبات قمح. وأن ليس بالإمكان أيضا صنع السمك من حبات القمح لأن (فولتير) يؤمن بخصوصية أصول الأجناس، ليس هناك شيء فطري أبداً.فاللّه خلقنا.. ولدينا أعضاء تنمو.. وبنموها نحس كل ما يتوجب على جنسنا أن يحسه للمحافظة على نفسه.

موقفه من ديكارت:

أعلن (فولتير) صراحةً عن كرهه لـ (جان جاك روسو) وأنه لا يحب آثاره ولا شخصه، ووصفه بالصبي المجنون، وأن كل ما جاء به كان بمثابة سخافات ما عدا خمسين صفحة. إلا أنه اعترف لـ (ديكارت) بلمحات عبقرية لأنه من الأوائل الذين استنفروا العقول إلى التفكير، وأن الرياضيات مدينة له بخطوات رائعة. لكنه في ما تبقى لا يعدو أن يكون مؤلف روايات. وسأرود بعضاً من الأخطاء التي وجهها إليه....

١. رفض ديكارت للفراغ: لقد اقترف (ديكارت) خطأ لا يغتفر ـ في نظر فولتير ـ حين أسند إلى الضوء (الانتشار الآني ـ أي بدون حاجة إلى زمن) فكان (فولتير) في هذا الشأن مع (نيوتن)الذي أعجب به أيما إعجاب يوم كان منفياً في إنكلترا. لأنه بنى علومه على أساس التجربة، وأنه من أتباع الحقيقة إذ لاحظ (نيوتن) أن النور يأخذ وقتاً في الانتشار من مكان إلى آخر، وبالتالي فقد كشف عن (سرعة الضوء). كما اكتشف كيف يتجزأ النور الأبيض حين يمر بموشور فجاء بنظرية (جوهر النور)، في حين أن ديكارت كان جاهلاً لها.

٢ ـ رفض (فولتير) نظرية (ديكارت)[١] فيما يخص الحيوانات حيث جعلها آلات لا شعور لها ولا أفكار ولا أحاسيس من خلال قوله: (إن الحيوانات آلات صرف تسعى للأكل بغير شهية، وتملك أعضاء الإحساس من غير أن تحس بشيء، وتصرخ بدون ألم، وتعبر عن سروها بغير فرح، وتملك دماغاً لا تتلقى أية فكرة مهما كانت ضئيلة). وعد فولتير موقف ديكارت هذا هو السخف بعينه. ومن الجنون أن نجعل الحيوانات آلات لا تحس. يقول (فولتير): (من الجنون أن نجعل الكلب أو العصفور كالساعات التي لا تحس. إن لدى الحيوانات أفكاراً مثلما لدينا فكلب الصيد مثلاً لديه فكرة صاحبه، وفكرة الطريدة.. ولديه ذاكرة أيضاً). ثم قال: (أنا أراهن أن الدجاج يفكر ويعقل ويبني نظاماً فلسفياً أساسه أقفاصه) وذلك طبقاً لمداركه.[٢]

تأثره بكتاب ألف ليلة وليلة: بعد أن ترجم (أنطوان جالان) لأول مرة ـ في تاريخ أوربا الأدبي (كتاب ألف ليلة وليلة) إلى الفرنسية باسم (ليالي شهرزاد) بدأ يظهر أثره في الأعمال الفرنسية الكبرى بشكل لا يقل أهمية عن ملاحم اليونان واللاتين كما يقول: د. (شريف عبد الواحد). وحري(بفولتير) أن يتأثر بها في قصصه

---

(١) أطلق (ديكارت) (الكوجيتو) (أنا أفكر إذاً أناموجود) والتي صارت قاعدة لكثير من رجال الفكر تبنوها من بعده مع تغير كلمة (أفكر) فقط، فقال بعضهم (أنا أتثقف إذاً أنا موجود) (أنا أحارب إذاً أنا موجود) وهكذا............

(٢) يذكرنا ذلك بقول الشاعر الفيلسوف (المعري).

أرى حيوان الأرض يرهب حتفه ويفزعه رعد ويطمعه برق /١١/

الفلسفية حيث عني بكتابة القصة في الخمسين من عمره. وذلك بعد أن قرأ (ألف ليلة وليلة) أكثر من (أربع عشرة مرة)، فشاقته وراقته وغرق في دراستها إلى أذنيه كما يقول د.(طه حسين). ولقد اعترف (فولتير) بأن (ألف ليلة وليلة) قد أثرت به أشد الأثر فقال: (لم أصبح قاصاً إلا بعد أن قرأت ألف ليلة وليلة.. وكم كنت أتمنى أن أفقد ذاكرتي... لأستعيد حلاوة القراءة الأولى.)

موقفه من الشرق:

(إني مدين لهذا الشرق العظيم). هذا ما قاله (فولتير). لذا فإن سائر أعماله الأدبية جاءت خالية من التشويهات المتوارثة عن حقد الغرب على الشرق والطعن بكل ما يصدر عنه وما ينسب إليه ويتعلق به.إذ أشاد (فولتير) بنبل الفارس العربي وكرمه وحبه العفيف. ودافع عن المسلمين الذين ظلمهم التاريخ المسيحي. إذ أبرز وجه الإسلام المشرق والدور المشرف الذي قام به (محمد) ص على الصعيد العالمي يقول: ((إن أقل ما يقال عن محمد (ص) إنه جاء بكتاب وجاهد)). ولقد تعرّف على الشرق من خلال ما قرأه عنه لا من خلال زيارة له. وأهم المصادر التي عرف من خلالها الشرق هو (القرآن الكريم).

موقفه من اليهود: كان (فولتير) يكره اليهود كراهة التحريم. ولم يَبْنِ هذا الكره على أساس ديني أو عرقي، بل نبع قرفه من خلال الممارسات الدنية التي تنسب إلى من ينتمون إلى هذه الديانة، من ظلمهم للناس واستلاب لحقوقهم وإثارتهم للفتن. ويظهر أن موقف أوربا برمتها من اليهود ـ وبخاصة إنكلترا وفرنسا حينهاـ لا يختلف عن موقف (فولتير). حيث نجد في مسرحية (يهودي مالطة) لـ (كريستوفر مارلو) أن المؤلف يعطينا فكرة عن اليهودي الوضيع من خلال شخصية (باراياس)[1]. وكلنا يعرف شخصية الوضيع (شايلوك) في مسرحية (تاجر البندقية) لـ (شكسبير) ويدلنا ذلك على أن الكتّاب والشعب بعامة، بالاستغناء عن السياسة المصلحية التي

(١) لقد قمت بإعداد وإخراج هذه المسرحية كما قمت بدور البطولة فيها أي دور (باراباس) في إحدى المهرجانات المسرحية.

قـال عنهـا (تـشرشل): (لا توجـد ﻓﻲ الـسياسية صـداقة او عـداوة دائمـة وإنمـا هنـاك مصالح مشتركة) ـ كانوا كارهين لليهود الذين ما دخلوا بلداً إلا أفسدوها.

موقفه من الأساطير:

يقول (فولتير) (حين نقرأ التاريخ... لنكن حذرين من الأساطير). ورأى أن معظم العقائد ﻓﻲ الأديان.. من معا رج إلى السماء... وما يشاكلها ضمن نطاق الأساطير. لأن العقل يقف أمامها شاكاً شكاً منهجياً (لا شبطيقياً = الشك من أجل الشك) وهي أقرب إلى الأساطير منها إلى الأديان. فرفض المعجزات برمتها وتحدث عن نوعين من القوانين (طبيعية) و(سياسية مدنية محضة).

فالطبيعية: بمثابة (ثوابت) كونها مشتركة ونافعة للمجتمع، وقد حثت عليها سائر الكتب السماوية لأنها هي هي ﻓﻲ كل زمان ومكان مثل (لا تقتل.. لا تسرق...) الخ...

أما السياسية المدنية المحضة: فهي (متغيرات) وبالتالي يجب تعديلها لأننا نعيش ﻓﻲ زمن المواطنين لا ﻓﻲ زمن الرسل. والقضية قضيتهم ولذا على القوانين أن تتناسب مع واقعهم وتطلعاتهم. والقوانين الطبيعة تنضوي تحت لواء (الثوابت)، كما أسلفنا لأنها من عند الله، أما القوانين السياسية المدنية المحضة فتنضوي تحت لواء (المتغيرات)لأنها من عنديات البشر. ولقد أرجع فولتير مقولة (الله خلق الإنسان على صورته ومثاله) أرجعها إلى الإنسان نفسه أي (أن الإنسان قد تخيل الله على صورته). وهذا يذكرنا بقول (كسينوفانيس) وفحواه (إن كل مخلوق يتخيل إلهه حسب مداركه وسموها).

موقفه من بعض الشخصيات التي تعتبر بمثابة محطات عالمية:

١. **شخصية آدم:** إن آدم الذي خلقت من ضلعه حواء هو مخلوق (خنثوي) لأن الذكر الذي يلد لا بد أن يكون كذلك[1]. لقد اعتبر فولتير أن (أفلاطون) رمز للإنسان الذي اجتمعت فيه الذكورة والأثونة معاً/١٠/. كما ورأى أن (الإنسان

---

(١) وذلك طبقا لـ (الأنيما) و(الأنيموس) ﻓﻲ كل من الذكورة والأنوثة.

الخنثوي) ليس بجديد. فلقد تصور الهنود من قبل مثيلاً (لآدم) قالوا عنه (آديمو) ومعناه (الذي يولد). وهو أول الخلق الذي ولدت من ضلعه (بوكريني = الحياة = حواء) والديانة الهندية أقدم من الديانة اليهوديةالتي سطت على كل تراث أحاط بها أو أطلعت عليه ووجدت فيه خدمة لمصالحها. كما رفض خطيئة آدم واعتبرها إهانة للإله واتهاماً له بالبربرية وذلك للتجرؤ على القول إن الله خلق الأجيال البشرية لتعذبيها إلى الأبد لأن أباهم الأول قد أكل التفاحة التي نهاه الله عن أكلها. وكأنه يقول: (الآباء يأكلون الحصرم... والأبناء يضرسون).

وتحدّث (دانتي) في هذا الخصوص في الجزء الثالث من كوميدياه الإلهية (الفردوس) ج/٣/ قائلاً (إن آدم قد جلب اللعنة على نفسه وعلى البشرية كلها بارتكابه الخطئية وحده/١٠/.

٢. شخصية إبراهيم: حاول (فولتير) أن يتعرف من خلال أكثر الديانات التنزيلية والوضعية على هذه الشخصية ومنشئها... وأسفارها وجل ما يتعلق بها. فرأى أن (إبراهيم) قد عرف باسم (برام وإبرام) وهما اسمان موجودان قديماً في الهند وفارس. وقد خرج منهما لفظ (براهما) عند الهنود. فرفض تدخل الروح القدس والعناية الإلهية بهذه الشخصية التاريخية، لا الدينية، والتي هي موضع تقديس في الأديان الثلاثة (اليهودية والمسيحية والإسلام) فلا العرب ـ في رأيه ـ من نسل اسماعيل ولا اليهود من نسل يعقوب./١١/

في الخلود بعد الموت: شغل الموت الإنسان منذ أن وجد وإذا قال جلجامش ـ قديماً ـ (الآلهة هم الخالدون في مرتع شمش أما البشرفأيامهم معدودات). فإنه أحس برهبة الموت بعد فقده لصديقه (أنكيدو) فقصد (اوتنا بشتيم) ليحصل على شجرة الخلود فلم يستطع فأدرك أن الخلود هو خلود المنجز الإنساني فأمر أن يصنعوا لـ (أنكيدو) تمثالاً يخلد ذكراه وبات هذا الأمر سنة حميدة لتكريم العظماء. أما (أبيقور) ـ من بعد ـ فقد تساءل في موضوع الموت قائلاً: (طالما أنني لا أخاف الزمن الذي يسبق وجودي.. فلماذا أخاف الزمن الذي يلي موتي؟. إذا كنت موجوداً فالموت غير موجود وإذا كان الموت موجوداً فأنا غير موجود).

لكن فولتير تساءل في موضوع الخلود بعد الموت.. أسئلة من العمق والأهمية بمكان وجدير بأن نذكربعضها يقول: ما هي المادة الروحانية التي يعزى إليها الخلود؟ إن الشيء الذي يجعلنا أمام أنفسنا ليس إلا تذكر ما كنا عليه في الماضي: (بعكس الحيوان الذي لا ماضي ولا مستقبل له لأنه أسير اللحظة التي يعيشها وكأنها الأبدية) يقول: نفسنا الروحانية.. ماذا نعني بذلك؟ أنعني أننا نبقى بعد الموت بكل ذكرياتنا!. وهل هذا ممكن بعد أن تفنى (مادة الدماغ) حين الموت؟. ثم هل يردّ الموت ذكريات الذين أضاعوها قبل الموت بسبب الهرم أو المرض أو الحوادث ؟[1].

فإذا كانت الروح خالدة دون أن نحتفظ بذكرياتها فما فائدة الخلود لنا ؟ لأننا حين نموت لا نعود نعرف أنفسنا ولا نعرف أحداً. وإذا تعذبنا فلن نعرف حينها أننا نتعذب عقاباً لأخطاء نكون قد نسيناها. وإذا كنا سعداء بعد الموت فلن نعرف أيضاً أن هذا ثواب لأعمالنا الصالحة التي لم نعد نذكرها. فما نفع هذا الافتراض إذاً؟. ويتابع قائلاً: من الحق القول: إنه ليس بالامكان نفي بقاء الوجدان الذي يمنحنا التفكير بعد الموت نفياً مطلقاً. واللّه يمكنه أن يحتفظ بهذا الجزء الضئيل من المادة التي تمنحه التفكير. ويردف قائلاً: إن الذين يعتقدون ذلك يجدون في اعتقادهم سلوى... ولكن عليهم أن يدركوا أن اعتقادهم إنما هو إيمان عاطفي لا علاقة له بالعقل.

الدين عند فولتير: لا فرق عند (فولتير) بين الدين التنزيلي كـ (اليهودية والمسيحية والإسلام) وبين الدين الوضعي كـ (البوذية والكونفوشيوسية)، وكلاهما ـ حسب رأيه ـ جزء من التاريخ الدنيوي وليسا جزءاً من التاريخ المقدس. وللإنسان الحق في أن يمارس الطقوس الدينية التي يراها ملائمة له وأن يسلك السبيل الذي يرتئيه للوصول إلى السماء لأن الدين مسألة شخصية، كما يرى (كيركغارد) من بعد. شريطة أن يحترم دين الآخرين. لأن الدين خلق من أجل الإنسان لا العكس. وحين يصبح الدين وسيلة للاختلافات التي تورث الأحقاد والاضطهادات فإنه يصبح مصيبة عمياء. لذا فقد حقد (فولتير) على كل عقيدة لا تعرف التسامح، معتبراً أن

---

(١) ويذكرنا ذلك بنهر (اينووي) في (الكوميديا الإلهية) لـ(دانتي) ذلك النهر الذي يذكر الإنسان بأفعال الخير حيث يشرب منه لأن ماءه يفوق كل مذاق.

التسامح قوام الإنسانية وأن الذين يدعون إلى التعصب إنما يدعون إلى الاضطهاد. لأن التعصب أخطر من الإلحاد. وإذا كان التعصب يؤدي إلى الجنون فإن الإلحاد يؤدي إلى التنوير (المتعصبون جهلة والملحدون علماء). ونتيجة لموقفه هذا وغيره من المواقف فإننا نرى أنفسنا أمام **رأيين متناقضين يُوصَفُ بهما فولتير:**

الرأي الأول: هناك من عده رسولاً للتسامح الديني.

الرأي الثاني: هناك من اتهمه بالكفر والزندقة /١٢/ وأنه أثار عليه أيضاً الحركة (الرومانسية) أمثال (شاتوبريان / ولامارتين / والفريد دي موسيه) وعدّوه مثالاً للتهجم على الأديان والهادم لها/١٣/.

كما أكد فوليتر أنه لا سيادة لشعب ينتمي إلى دين ما على شعب ينتمي إلى دين آخر، وبالتالي فليس هناك شعب مختار. لأن التمايز في فلسفته تظهر في الأفراد لا في الشعب، لأن الشعب كلمة قطعية تحوي ما هبّ ودب. ورأى أن هناك ثلاثة أمور تؤثر في فكر البشر. (المناخ. نظام الحكم. الدين) وقد أوضح ذلك في مسرحية (زائير): وزائير فتاة مسيحية أسرها المسلمون في صباها أثناء الحروب الصليبية وربوها على العقيدة الإسلامية وصارت واحدة من حريم السلطان حيث أوضح على لسانها تأثير الجغرافيا في العقيدة الدينية وتأثير العادات والتقاليد حيث قالت (زائير): ((إن أفكارنا وعاداتنا وعقيدتنا الدينية، إنما تشكلها الأعراف والتقاليد. فلو ولدت على ضفاف نهر (الكنج) لعبدت أوثان الهند، ولو ولدت في (باريس) لكنت مسيحية))/١٤/. ومن أهم ما قاله بشأن الدين (إننا نريد ديناً بسيطاً جليلاً أليق بالله وأقرب إلينا. وبكلمة موجزة نريد ديناً يخدم الله والبشر).

الله من منظور فولتير: موجود لا إله إلا هو، أبدي سرمدي. لا يعتمد إلا على ذاته، مطلق الحرية.. مهندس أوحد للكون، وَزَنَ كل شيء وقاسه، وقد دهش من قول (باسكال): ((إنه ليس بالامكان أن نثبت وجود الله بالعقل)) وأجاب ((إذا كان القس يعلم الأولاد (روتينياً) بأن الله موجود. فإن (نيوتن) يثبت وجوده لذوي الألباب)). ويضيف قائلاً: إن العقل بإمكانه إثبات وجود الله. ثم يقول: (وبما أني موجود استنتج أن ثمت موجوداً منذ الأزل، وإذا لم يكن ثمت شيء موجود منذ الأزل، فإن كل

شـيء نـاتج عـن العـدم ولـيس لوجودنـا سـبباً مطلقـاً، وهـذا تنـاقض لا يقبلـه العقـل. إن لكـل شـيء سـبباً.. وهـذا السـبب لـه مسـبب أيضـاً وهكـذا دواليـك. وإذا لـم يوجـد سـبب أول.. لـم نسـتطع أن نفسـر شـيئاً. (أنـا مضـطر أن اعـترف بوجـود كـائن واجـب الوجـود منذ الأزل هو أصل الكائنات كلها). إن الإلحاد جنـون. وإذا كـان في الإقـرار بوجـود اللّه صـعوبات فـإن العكـس إحـالات. ويـضرب لنـا مثـالين فيقـول: (إذا وضـعنا كـل الأحـرف الـتي تتـألف منهـا الإليـاذة في كـيس، ثـم أفرغنـا الكـيس، هـل تخـرج منـه إليـاذة كاملـة بكـل حوادثهـا وأشـعارها؟؟.. فـإذا كانـت مثـل هـذه الظـاهرة بعيـدة الاحتمـال أفلـيس أبعـد منهـا احتمـال أن يكـون العـالم الـذي نعـيش فيـه ومـا فيـه مـن المخلوقات وليدة المصادفات البحتة)؟؟!.

وفي **المثال الثاني** يقول: (أنا لم آت إلى هذه الدنيا من لا شـيء لأن مـادة أبـي وأمـي الـتي حملتني تسعة أشـهر شـيء موجـود.. ومـن البيّن لـي أن(النطفـة) الـتي أنجبـتني لا يمكـن أن تكـون قـد خُلِقت مـن لاشـيء. أنـا مـؤمن بالحكمـة القديمـة (لا شـيء يـأتي مـن العـدم ـ ولا شـيء يمكـن أن يعـود إلى العـدم). إلا أنـه اسـتنكر كـل الاسـتنكار صـورة الإلـه الـتي يقـدمها اللاهـوت المـسيحي فقـال: (أي نـوع مـن الآلهـة يقدمـه لنـا اللاهوت المسيحي؟ إنه يقدمه لنا على أنه طاغية ينبغي أن نكرهه. أعطانا قلوباً آثمـة ليكون له حق عقابنا. جعلنا نحب اللذة لكي يعذبنا بآلام رهيبة أبدية. ومـا أن خلقنـا حتـى فكـر في إهلاكنـا فـأمر المـاء أن تغـرق الأرض. إننـا مازلنـا ملـوثين بجريمـة آدم وحواء ولست أتبين في هـذه الصورة المخزيـة للإلـه الـذي علـي أن أعبـده. ثـم يقـف عنـد صفات اللّه قائلا: (أما ما هـي صـفاته ومـا طبيعتـه ومـا علاقتـه بـالفراغ والـزمن.. وهـل يجب أن نضفي عليه اللامتناهي الذي لا يحيط به عقلنا المتناهي؟ وهل يجب أن نعتقد أنه في قدرتـه القـادرة كـان يمكـن أن يجعـل ٢+٢=٥ فيجيـب فـولتير (أُفَضِّل أن أقـف هنا على أن أتوه). إن وجود اللّه ثابت لدي. تلك هـي الحكمـة الوحيـدة.. مـا أعرفـه.. هـو أن اللّه يعاقب ويثيب.. (ولو لم يكن اللّه موجوداً.. إذا لوجب اختراعه) ثم يقول: (اعبد اللّه على طريقتك وكن رجلاً صالحاً).

موقفه من العهد القديم ـ التوراة: رفض (فولتير) أن تكون التوراة التي بين يديه هي من عند الله لأن كل ما فيها هو أساطير شعبية وأبطالها أنصاف آلهة كأبطال اليونان. **وأقف عند أهم ما قاله بهذا الشان:**

١. ليس موسى هو كاتب الأسفار الخمسة بل إن (عزرا) هو الذي أعطاها الصيغة الأخيرة والكنيسة نفسها لم تعترف بأن موسى هو الذي كتبها. ثم كيف يمكن الاعتقاد بأن موسى كان لديه ما يكتب في الصحراء حيث لا يوجد أشجار ينقش عليها؟ زد على ذلك أن كاتب أسفار موسى يقول: ((إنه يكتب من وراء الأردن في حين أن موسى لم يدخل أرض الميعاد وانما دخلها (يشوع بن نون). ثم كيف يمكن لموسى أن يكتب قصة موته..بل عن أشياء حدثت بعد موته كما تقول التوراة (لم يأت بعد موسى نبي يضاهيه عظمة))!!!.

٢. تشابه حوادثها مع ما سبقها: لقد وجد (فولتير) أن أساطير أسفار التكوين شبيهة بالأساطير الشرقية القديمة. تقول التوراة: (في البداية خلق الله السماء والأرض) وذلك موجود عند الفينيقيين وتعلمها منهم العبرانيون. ثم إن مؤلف سفر الجامعة هو فيلسوف (أبيقوري) مادي حسي بحت لا علاقة له بالروحانيات.

٣. كيف يمكن التوفيق بين المتناقضات؟ أو الإقرار بالخرافات التي تعد معجزات؟..حيث أعلمتنا التوراة أن اليهود عبروا البحر الأحمر والأردن من غير أن تبتل بالماء أقدامهم.. ثم كيف يمكن لـ (يوشع) أن يوقف الشمس. وكيف السبيل إلى الإيمان بالمعجزات التي أسقطت أسوار أريحا) بنفخ صور وجعلت (شمسون) يكسر جيشا بحاله بفك حمار...الخ.

موقفه من المسيح والمسيحية والإنجيل: كان لـ (فولتير) في هذا الموضوع حديث مطول ومفصل أوجزه ـ في نهاية حديثي ـ بأقل من صفحة:

أـ فيما يتعلق بالسيد المسيح:

١ـ رأى (فولتير) أن لفظة المسيح موجودة في العهد القديم ونعت بها المسيحيون وغير المسيحين على حد سواء.

٢ـ صحيح أن (يوحنا المعدان) قد عمد السيد المسيح إلا أن السيد المسيح لم

يُعَمِّد أحداً مشيراً إلى أن (العمادة) عادة قديمة معلناً رفضه لها ورفض الرهبنة أيضاً لأن الرهبنة مرت مجرد ذكر في إنجيل (متى)، ولم تشاركه في ذلك الأناجيل الأخرى. كما أكد أن (الخصي) أكبر إساءة للبشرية[1].

٣ـ شك في (بتولة العذراء) إذ كيف تسمى مريم العذراء وقد جاءت بالسيد المسيح وكان له إخوة أيضاً. (انظر إنجيل متى)

ب ـ أما فيما يتعلق بالمسيحية:

١ـ فلقد عدّ أن لفظة (المسيحية) متأخرة عن السيد المسيح.ولم تظهر إلا في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني (ب/م) وهي لفظة تاريخية تدل على فرقة وليس على دين إذْ كان المسيحيون يُسَمَّوْنَ خليليين أو ناصريين.

٢ـ الصيام الذي هو (دواء للفقراء لا يتعاطاه الأغنياء) عده (فولتير) دواء للمتخمين أو نتيجة لانعدام الشهية. وقد أخذه اليهود ـ ومن ثم المسيحية ـ من عادات المصريين القدماء. وأردف قائلاً: أن الله ليس بحاجة إلى صيامنا وقرابيننا. وخاطب الأغنياء قائلاً: (أيها الأغنياء من تدعون إلى الصيام؟ أتدعون الأغنياء؟.. إنهم لا يصومون.. أتدعون الفقراء ـ أنهم صائمون الدهر كله).

٣ـ استنكر على المسيحي استسلامه إلى كتابين يعتقد أنهما مقدسان (أي التوراة والإنجيل) وتساءل هل لهذا الإيمان مسوغ؟. يجيب بـ/ لا /. إذ كيف يمكن الاعتقاد بأن ما يقصهما الكتابان هو من وحي إلهي؟.. وإذا كان الله هو الذي أملى (التوراة والإنجيل) حق لنا أن نعجب لأن الله ـ حسب رأى فولتير ـ ذو أفكار خاطئة جدا في علم الفلك كما أنه يجهل تاريخ الحوادث والجغرافيا جهلاً تاماً. ولقد ناقض نفسه بنفسه فيما يخص الأخلاق، فهل يفرض الرب في التوراة مبدأ (العين بالعين والسن بالسن) ثم يطالب في الإنجيل بأن نمد خدنا الأيمن لمن يصفعنا على خدنا الأيسر؟ وأن نعطي رداءنا لمن سرق ثوبنا؟. فهل تتفق هذه القوانين وأوامر التوراة[2].

---

(١) لأن أبيقور يرى أن الموت يقهرنا دائماً على الصعيد الفردي. ولكننا نقهره على صعيد النوع من خلال الإنجاب. وعندما يتم الخصي يتوقف الإنجاب. ويصبح الموت هو السيد الأوحد.

(٢) حتى أن فولتير قد شك بعقيدة التثليث برمتها ورفض الأساطير المسيحية فقال: (لا يجب

أما فيما يتعلق بالإنجيل:

فقد اعتقد أن عقيدة التثليث عصية على الفهم وطالب بجر الإنجيل إلى المناظرات الفلسفية. وأن الأناجيل لم تُكْتَبْ إلا بعد المسيح بمئة عام. ناهيك عن أنها لا تتفق فيما بينها لا على نسب المسيح ولا على طفولته ولا على معجزاته ولا على أقواله.

ثم لماذا تبنت الكنيسة الأناجيل الأربعة فقط.. واعتبرت الأناجيل الباقية مزيفة في حين أن هناك حوالي خمسين إنجيلاً غيرهم[1]؟ إلا أنه رأى في الإنجيل قيمة كبرى ألا وهي الأخلاق الفاضلة التي بشر بها وحث عليها ونادى بممارستها قولاً وعملاً.

الاعتقاد بالأساطير المسيحية وعقائدها لأن الدين المسيحي مشبع بالسخافات والكذب ولايمكن أن يدافع عن نفسه): ثم يقول: رب قائل يقول: إني أكرر وأعيد وجوابي أني سأكرر وأعيد حتى تصلح الأمور).

وكما استنكر عدم المساواة بين الكهنة كما يريد السيد المسيح. بينما تقوم الكنيسة على نظام الدرجات حيث أن الرؤساء يتمتعون بالسلطة المطلقة بينما صغار الكنسية يحيون حياة بائسة. وأتهم الكنيسة أيضا بأنها أعطت لنفسها الحق للتحدث باسم المسيح والمبادىء التي تفرضها على متبعيها التي تختلف عن المبادىء في الإنجيل.

فالمسيح لم يقل (لقد جئت وأموت لكي اجتثت الخطئية الأصلية. إن أمي عذراء. لست أباً ولكنني والأب واحد، فهو أنا ولكنني لست هو.كل الكون هالك أبداً وأمي معه. ولكن أمي هي أم الله. آمركم أن تصنعوا بواسطة كلمات قطعة خبز صغيرة، جسمي كله شعري. ذقني. بولي. دمي. وأن تضعوا في الوقت ذاته دمي في كأس نبيذ... كل هذه الأشياء من وضع الكنسية.

(١) وقد ذكر أسماء بعض منهم مثل (أنجيل مريم / أنجيل يعقوب/أنجيل المصريين/أنجيل العبرانيين/ أنجيل برنابا/أنجيل نيقوميدوس). ولأنه كان شاكاً فقد قال: (وأي رأي تقدمه في بعث الموتى والارتفاع إلى السماء وفي الحبل بلا دنس.. وفي بتولة العذراء حتى بعد أن ولدت يسوع وكان له أخوة.. فأي احتمال عقلي في هذه القصص كلها وفي كثير غيرها.

خاتمة

لا جرم أن (فولتير) قد غالى في نقده للأديان وبالغ حتى حدود الشطط وكان حاقداً على المسيحية بعامة وعلى الكاثوليك بخاصة/١٢/. وما أستغربه منه هو حثه على الكذب صحيح أن (أفلاطون) في (جمهوريته الفاضلة) سمح للحاكم فقط أن يكذب كذباً أبيض إذا كان هذا الكذب يخدم مصلحة الدولة والرعية، إلا أن (فولتير) قد أجاز الكذب الأبيض وغير الأبيض للناس جميعاً معتبراً أن الكذب فضيلة لا رذيلة يقول: (إن الكذب ليس ذنباً إلا حين يضر بشخص ما.. أما حين يخدم الإنسانية فإنه أكبر الفضائل طراً)/١٥/. **السؤال:** كيف يمكن أن يكون الكذب خادماً للإنسان والإنسانية ؟ وأن يكون أفضل الفضائل؟ إنه ـ في موضوع الكذب ـ قد خالف كل عرف وتعريف وسائر العادات والعبادات في كل زمان ومكان.

ما يسجل له: أنه لم يكن يكتفي بمهاجمة ما يراه من أفكار خاطئة بل إنه كان يبني من جديد مكان ما هدم.. ـ رفض الربط دائماً بين العلة والمعلول بمعنى إذا كان لكل طفل أب فليس بالضرورة أن يكون لكل أب طفل وإذا أعطى ضوء الشمس نوراً فليس بالضرورة أن يكون كل نور نابعاً من الشمس.

لقد وضع (فولتير) أسس النقد التاريخي الحديث للكتب المقدسة وأرهص لنشوء علم الأديان المقارن، كما أنه أول من استخدم مصطلح فلسفة التاريخ ومن أوائل الذين ساهموا في بناء صرح فلسفة التنوير.

جماعة القول

قد لا يكون ما نقلناه وقدمناه الآن أمراً عجيباً وغريباً.. لكن علينا أن لا ننسى أن ما قلناه قد قيل في عصر كانت فيه الكنيسة ظل الله على الأرض.. وهي وحدها التي كانت تمنح صكوك الغفران نيابة عن الله وهي وحدها التي كانت تأمر وتنهي.. وتفرض وترفض..و تصل وتقطع.. وتفرق وتجمع.. وترفع وتضع.. وتمنح وتمنع.. ولا نكون مغالين إذا قلنا: إنها كانت تسعى جاهدة لكي تحي وتميت.

المصادر والمراجع

١ـ شوبنهاور. كامل محمد محمد عويضة. دار الكتب العلمية. لبنان ط/١/ ١٩٩٣/ ص /٨٥/.

٢ ـ فولتير. اندريه كريسون. منشورات عويدات. لبنان ط/١/١٩٦١/ ص/٨٩/.

٣ ـ ص/١٨٨/ ط/٢/. دار المعارف بمصر.

٤ ـ بلانتاجيت سومرسيت فراي. ط١/١٩٨٨/ ص/٢٢٧/.

٥ ــ في الفكر الغربي. د.حسن حنفي. ج/٢ ص دار التنوير للطباعة والنشر ط/١/١٩٨٢/ ص/٩١/.

٦ ـ الفكر الاغريقي. محمد الخطيب. دار علاء الدين / دمشق /ط/ ١٩٩٩/١ /ص/٩١/.

٧ ـ فولتير. اندريه كريسون ص/٨٨/.

٨ ـ المصدر نفسه ص/٨٥/.

٩ ـ في الفكر الغربي. د. حسن حنفي. دار التنوير ط /١/ ١٩٨٢/ ص/٩٣/.

١٠ ـ الكوميديا الإلهية. دانتي. ترجمة حسن عثمان. دار المعارف بمصر ص /١٥٧/.

١١ ـ في الفكر الغربي. د. حسن حنفي ص/٩٣/.

١٢ ـ فولتير. اندريه كريسون ص/٤٧/.

١٣ـ المصدر نفسة ص/٩٢/.

١٤ـ قصة الحضارة. ول ديورانت. دار الجبل. بيروت ج٣٥+ ٣٦ ص/١٨٠/.

١٥ـ فولتير. اندريه كريسون. ص/٤٦/.

نيتشه

بين (الله)

وبين (أناه) ...وبين (سواه)

بسط اللاهوت[1] جناحيه على سائر أفكار العصور الوسطى وبدأت إرهاصات الشك[2] تلوح في الأفق منذ القرن الرابع عشر، واتضحت في القرنين التاليين إلى أن

---

(١) معجم المعتمد: اللاهوت = الألوهة، علمٌ يبحث عن ذات الله وصفاته، واللاهوتي = العالم.. وفي معجم المنجد، اللاهوت = الألوهة وأصله (لاه) وهو علمٌ يبحث عن العقائد المتعلقة بالله تعالى.

قال بعضهم: إنها كلمة فارسية مكونة من (الله) و(أوت = العلم) = علم الله.. وقال بعضهم إنها عربية من مصدر كلمة الله على وزن (ملكوت ـ رحموت ـ لاهوت).. على كلٍّ لم يتبناها علماء المسلمين واستبدلوها بعلم الكلام.

(٢) لكي ننصف مفكرينا نقول ((إن الإمام الغزالي)) كان سباقاً إلى الحديث عن الشك /١٠٤٨-١١١١م/ وذلك قبل ديكارت بكثيرٍ حين قال: [الشكوك هي الموصلة للحق، فمن لم يشك لم ينظر،

تبدَّت في القرن السابع عشر، ثم بلغ الشك والتنوير أشدَّهما في القرن الثامن عشر وما ان حل القرن التاسع عشر حتى شهد الغرب أبهى عصور فلسفته الحديثة.

عندما يريد أحدنا القاء نظرةٍ ـ متأنيةٍ أو عجلى ـ على المداميك الفلسفية في القرن التاسع عشر، لابد أن تستوقفه ـ شاء أم أبى ـ بعض الأفكار التي يحسُّ إزاءها بصدمةٍ كهربية.

ويوم دفعتني الرغبة إلى دراسة إحدى هذه الأفكار، تصدَّى لي ـ على الفور ـ منظِّرها صقريَّ العينين مهيَّأً بكل ما أوتي من قوةٍ للصدام معي منذ اللحظة الأولى **وخاطبني محذراً:**

اسمع.. (هذا أنا.. وتلك مبادئي) ولا يهمني رضاؤك عنها أو سخطك عليها. ما يهمني هو (صنوي وظلي ومثيلي) ذاك الذي وضع مبادئي نصب عينيه وطبَّقها تنظيراً وممارسة، قولاً وعملاً من تمسك بحرفية **ما قلت:**

(كن عظيماً كالعظماء أو فلتكن خادماً أو أداةً لهم). ولا وسطية (سقراطية) أو (أرسطية) أو (بوذية) عندي فالأمر محسوم[1].

قلت له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى: (لست أنت من تفكر أنه أنت إنما أنت ما تفكر). اعتدَّ بنفسه أكثر وتعالى عليَّ بشكلٍ أثار حفيظتي فأخرجني عن هدوئي وعلى غير عادتي تهجَّمت عليه قائلاً: ما أحسبك يا هذا بشراً سوياً. أنت مهووس أحمق، متهور، عُصابي مصاب بـ (البارانويا)=(جنون العظمة). علت شفاهه ابتسامة عريضة وكأني أثلجت صدره بتلك النعوت التي أطلقتها في وجهه فأجاب: ما

ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر وقع في العمى والضلالة]. ولا مجال للمقارنة بين الشكين في هذه العجالة.

(١) نادى (سقراط) بنظرية (الوسط الذهبية) لا افراط ولا تفريط، وأرسطو بقوله: الفضيلة وسط بين رذيلتين، وأفلاطون في كتابه محاورات جورجياس ص ١٢٥ بقوله: (النفس المعتدلة، نفس طيبة)). و(سيدها رتا) بعد أن مارس أشد أنواع (اليوغا) حتى كاد أن يُقضى عليه فأنقذته فلاحة وراح بعدها يجلس تحت شجرة (البو = التين) طويلاً إلى أن جاءته (الاستنارة) فسُمِّيَ بـ (المستنير بوذا) ساعتها طالب بـ (الماجا = الطريق الوسط). للوصول إلى النيرفانا.

قلته عني ملاحظة لي لا ملاحظة علي.لقد شرَّفتني وسرَّني وصفك لي لأني فعلاً ((أنا كما قلت عني وزيادة)).

ثم قطَّب حاجبيه والتفت نحوي بكل ازدراءٍ وسألني باستعلاء: أتعرف مع من تتكلم ياهذا؟ ولم ينتظر إجابتي.بل تابع قائلاً: اسأل العظماء عني، اسألهم من رسم لهم سَمْتَ الخطِّ المتصاعد هدفاً فاتَّبعوه وسكنوا في عليين.أنا وبكل تضخم (الأنا النرسيسيَّة). (فريدريك نيتشه)

يمَّمْت وجهي شطر أستاذي الجليل الدائم (البُحْران) السابح في ملكوت العلم الغارق في بحر الفلسفة اللجيِّ. وقفت صاغراً أمامه كما يقف المريد في حضرة شيخه البهيِّ ((قطب الغوث)) وانهالت أسئلتي عليه تَتْرى مستفسراً من خلالها عن هذا ((النيتشه)).

تنهَّد وقال بلهجةٍ شفيفةٍ وكأنه يعاتبني: من دلَّك على هذا الرجل؟!!. إنه إشكالية ومحط أخذٍ وردٍّ حتى من الفلاسفة أنفسهم. قال عنه الباحث (هنري ايكن) في كتابه (عصر الإيديولوجيا): ((لو أُجري استفتاء مع الفلاسفة المحترفين قبل الحرب العالمية الثانية عن منجزات (نيتشه) لكانت النتيجة بأنه فيلسوف أدبيٌّ لامع قاصر غير مسؤول، ولا يجوز أن تؤخذ آراؤه الفظَّة نوعاً ما مأخذ الجد)). قلت مستغرباً: عفوك سيدي. هل تعتقد أن آراءه فظة نوعاً ما فقط؟ أم أنها فظة بشكلٍ لا يُطاق؟ قال: أنا أُنبيك بما قالوا عنه ولا أنبيك برأيي فيه. لقد تحدث عن (بلاهته الفطرية وإلحاده الصبيانيِّ(١) (سانتيانا) في كتابه (مذهب الأنا). وراح يسرد لي من كتاب ((مذهب الأنا)) بعض ما قيل عنه بشكلٍ مختزلٍ مُركَّزٍ تكاد تكون كل جملةٍ قالها لي محطة يجب الوقوف عندها طويلاً. ومن جملة ما قال: ((إن نيتشه لم يفلح في ايجاد نظامٍ فلسفي))(٢) ((إلا أنه من روَّاد الفلسفة الفردية الجامحة))(٣) ((عُومل كرائد لإيديولوجيا القوة غير المعقولة التي كَمُلَ تألُّهها في النازية والفاشية)). ((ولقد أعلن (موسوليني) صراحة عن إعجابه به))(٤). لقد كان نيتشه كثير الإكبار بعظماء الرجال أمثال (نابليون). (كما كان كارهاً لأخلاق العبيد متوقعاً أن اليهود هم منشئوها)(٥). ولقد بشَّر في كتابه (إرادة القوة) بمجيء العدمية

فقال: ((ما أرويه لكم هو تاريخ القرنين الآتيين إني سأروي لكم ما سيأتي ولا يمكن له إلا أن يأتي. هو مجيء العدمية)) (أي القرنين العشرين والحادي والعشرين الذي نحن فيه. ونسب إلى نفسه دور الريادة في هذا المجال فقال: ((أنا أول أصحاب النزعة العدمية في أوروبا)).[1]

قلت: وكيف كان أسلوبه في الكتابة؟ قال: (لقد كتب شعراً فلسفياً مرمَّزاً ونثراً شديد الوضوح بعكس ((هيغل)) الذي كانت معانيه عميقة المأخذ)(٦). قلت زدني! فقال: إسمع ما قاله هو عن أسلوبه. قال: ((إن في أسلوبي رفضاً ورماحاً وطعناً، ولغتي سخية كريمة وعصبية عنيفة، إنه أسلوب لاعب السيف بسرعة لمعانه)). كما تحدث عنه الناقد الفلسفي (ستيبيان أو دويف) وقال: ((إن النتشوية من حيث هي تيار فلسفي لا يمثلها إلا فيلسوف واحد. أتعرف من هو؟ إنه نيتشه)) (٧). قلت: زدني زادك الله. وعندما أحس أستاذي الجليل بأن المريد يطلب المزيد المزيد أجاب: يابني.. إني من الذين إذا سئلوا أجابوا وإذا أجابوا اقتضبوا وإذا تحدثوا أوجزوا، سأروي لك بعض ما قاله هو عن نفسه: قال: ((إن المستقبل سيقوِّم الماضي إلى ما قبل نيتشه وما بعد نيتشه)) أي القرون المظلمة قبله وقرون النور بعده وسيتغير رمز (ق.م) و(ب.م) ويصبح (ق.ن) و(ب.ن) أي قبل وبعد نيتشه ((لأن عيسى سَيُنْسى تماماً بعد أن أنزله الفيلسوف الألماني عن عرشه وتربَّع في مكانه))(٨). وعندما أهدى كتابه إلى (تين) كتب عليه بخط يده العبارة التالية: (إن كتابي هو اعظم كتاب ظهر في العالم) فهل سمعت بكاتبٍ غير نيتشه نعت كتاباً له بأنه أعظم كتابٍ في العالم؟. لذا أنصحك يا بنيَّ أن تغوص في أعماق مؤلفاته بنفسك وإياك أن تراه من خلال أذنك فقط لأنك إن فعلت هذا فإنك تقرُّ سلفاً بعجزك وتعترف اعترافاً صريحاً بأنك لست سوى وسطٍ ناقلٍ وجامعٍ (ببيلوغرافي). ليس إلا. إياك أن تراه بأذنك فقط. فما كتب عنه وجهات نظر تمثِّل آراء كاتبيها. اسمعه يا بني بعينك.

---

(١) العدمية: هي الإخفاق في ايجاد أي معنى للحياة. والعدمية عنده نوعان (منفعلة) وهي دلالة ضعف وتتمثل في الراحة والتأمل والهروب من الواقع. و(فاعلة) ويبشر فيها بـ (دلالة القوة المتعاظمة للإرادة والفكر).

قلت: وهل تسمع العين؟ قال: نعم. لكن الأذن لا ترى والذين يرون بآذانهم صغار. أما - العين فإنها تسمع وترى. فكثيراً ما يُرى ويُسمع كاتب السطور من خلال ما يهمس به في أذن السطور. الحكم من غيراطلاع.. يا بني ضربٌ من عملية اجتراءٍ على الحق، إقرأ مؤلفاته مجرَّداً من الهوى مبرَّءاً من الغرض، ولك الحق - من بعد - أن تكون معه أوتكون عليه أو بين بين.

لمحة موجزة عن حياة نيتشه / ١٨٤٤ـ١٩٠٠م /

أبوه قسيس، وأمه تقية ورعة. كما أن معظم أجداده من رجال الدين. ولد في (روكن) في بروسيا يوم ميلاد ملكها (فريدريك وليام الرابع) فأطلق عليه أبوه اسم فريدريك تيمُّناً باسم الملك. توفي أبوه وتركه صغيراً فأشرفت على تربيته جماعة من النساء الصالحات التقيات وأسرفن في ملاطفته إلى درجةٍ أرهفن بها شعوره إلى حدِّ الشفافية (الرِّختريَّة).

كان يمقت أطفال السوء إذا سرقوا الطيور من أعشاشها أو قاموا بألعاب عسكرية خشنة تناقض لطافته. كان يقرأ الإنجيل بطريقةٍ تهزُّ المشاعر وتدخل السامع لقراءته في محراب التبتُّل والخشوع، حتى أطلقوا عليه لقب (القسيس الصغير). إلا أنه عندما بلغ من العمر ثمانيةً وعشرين عاماً انقلب ذلك اليافع الشفيف اللطيف المفرط الحساسية رأساً على عقبٍ وتغير بزاوية مئة وثمانين درجةً، إذ تحول من متدينٍ عوَّل عليه (اللاهوتيون) ورجال (الإكليروس) مستقبلاً مشرقاً إلى منكرٍ لإله آبائه وأجداده، وراح يبحث عن إلهٍ جديد. ويذكرنا ذلك كما تقول (الموسوعة الفلسفية المختصرة) بـ (جان جاك روسو) الذي كان دائم التنقل من عقيدةٍ إلى أخرى(٩).

عافت نفس نيتشه النساء والخمرة[1] والتدخين واعتقد بعجز المدخنين أو الثملين عن صفاء الإدراك ووضوح الفكر. ويوم بلغ عامه الواحد والعشرين، وقع في يده

---

(١) لقد حرَّم أفلاطون من قبل على الحاكم شرب الخمرة لأن مصير الأمة كلها بيده وذلك في كتابه (جمهورية أفلاطون). حتى إن (المغيرة بن الوليد) والد خالد بن الوليد قبل الإسلام حرَّم على نفسه الخمرة حتى لا يسيىء إلى قبيلة بني مخزوم.

كتاب (شوبنهور) بعنوان (العالم كإرادة وفكرة) فقرأه بنهمٍ ووعيٍ مستنيرٍ مبكِّرٍ فقال: ((لقد بدا لي أن شوبنهور كان يخاطبني شخصياً ويوجه كلامه إلي وخُيِّل إلي أنه ماثلٌ أمامي))(١٠).

وعندما بلغ من العمر ثلاثةً وعشرين عاماً سيق إلى الخدمة الإلزامية، وكم كانت رغبته جامحةً في أن تعفيه الحكومة من الجندية بسبب ضعف بصره ولكونه الابن الوحيد لأمه الأرملة إلا أن الجيش أصر على بقائه في الخدمة الإلزامية. وعندما سقط من فوق جواده على الأرض ـ وهو يؤدي الخدمة ـ أصيب بكسورٍ في أضلاع صدره فسرَّحوه من الخدمة، ولازمه المرض طيلة حياته. وعندما سُرِّح تغيرت نظرته تجاه الجندية، إذ كان قبل الالتحاق بها كارهاً لها، نافراً منها. وبعد تسريحه، عشقها واستمات في سبيل العودة إليها، لكن صحته حالت بينه وبينها. نال درجة الدكتوراه في الفلسفة وعيِّن في جامعة (بال). تأثَّر في حياته بالموسيقي العبقري (ريتشارد فاجنر) الذي أحبه حباً وصل به إلى درجة التماهي، فتعلم نيتشه العزف على البيانو وكتب بعض الألحان وأقسم أن الحياة بغير الموسيقى لا تُعاش، فقال: ((الحياة خطأٌ بغير الموسيقى)). ويوم قامت الحرب بين ألمانيا وفرنسا عام ١٨٧٠ حاول حمل السلاح مع المقاتلين، إلا أن ضعف بصره أقعده عن الاشتراك في القتال، فاكتفى بالقيام بأعمال التمريض في الجيش. ولحساسيته المفرطة ـ كما أسلفنا ـ أثَّر منظر دماء الجرحى على صحته، فمرض وأرسل إلى بلده محطَّماً منهاراً. ولقد وصفوه بأنه ((كانت له روح الفتاة مرتديةً درع الجندي)). وكان إضافةً إلى أنه أعشى البصر مثل شوبنهور فقد كان يحمل جسماً نحيلاً عليلاً كثير الأوجاع ينتابه صداعٌ مزمن. لم يكن نيتشه وفياً لأساتذته ومعلميه كما يقول (ول ديورانت) في كتابه (قصة الحضارة)، بل كان يهاجم سائر الذين أثروا فيه أشد الأثر. وكأنه يسدد لهم بعض الديون المستحقة عليه.هاجم أفلاطون الذي استمد فكرته الرئيسية منه.كما هاجم الموسيقي (فاجنر) الذي نوهنا عنه سابقاً، حتى إن أستاذه (شوبنهور) الذي أعجب به أيما إعجابٍ، لم ينج منه فكان في تصرفاته هذه عكس تصرف (أرسطو) الذي على الرغم من معارضته لبعض آراء أستاذه (أفلاطون) فقد بقي على

احترامه له ولما مات أفلاطون شيعه أرسطو وكرَّمه تكريماً يكاد يبلغ حد الآلهة لكنه قال: ((إني أحب أفلاطون، لكن حبي للحق أعظم)).

في كتابه (هكذا تكلم زارادشت)

لنيتشه العديد من الكتب، إلا أن الأهم والأشهر باعترافه واعتراف من كتب عنه هو كتابه (هكذا تكلم زارادشت) حيث استطاعت فيه الفلسفة امتطاء صهوة الشعر فكان واحداً من أعظم الأشعار في الأدب الغربي (١١). ولا بد من التنويه إلى أن زارادشت) المولود حوالي القرن السابع ق.م صاحب كتاب (الزاندافستا ــ الأبستاق) لا علاقة له بهذا الكتاب أبداً وإنما تلبَّس ((نيتشه)) شخصية زارادشت وكتب بلسان حاله ما أراد هو لا ما جاء به زارادشت الذي رأى أن (أهورامزدا ـ إله الخير والنور) و(أهريمان = قوة الشر والظلمة)[١].

لقد رأى نيتشه في كتابه هذا أنه حقق اكتشافاتٍ تنبؤية وأنه كتابٌ عزَّ نظيره فقال عنه: (إنه درَّةٌ يعجز الشعراء عن الاتيان بمثله). لن أقف عند هذا الكتاب لأن مقطعاتٍ كثيرةً منه سترد في سياق البحث هذا، وأكتفي بالقول إن نيتشه من خلال هذا الكتاب قد أعلن عن موت الإله ثم سعى فيه إلى خلق الإنسان الأعلى أي السوبرمان لا إلى خلق الجنس البشري بقضِّه وقضيضه وعجره وبجره حيث كان يصف الشعب دائماً بالرعاع والقطيع.

كثيراً ما عانى نيتشه من صعوباتٍ حين طبع هذا الكتاب فطبع منه أربعين نسخةً وزَّعها على أصحابه آملاً أن يقرأ أصحابه الكتاب ثم يميلون عليه بحثاً ودراسةً لتعريف الآخرين بفحواه، إلا أن ذلك لم يحصل فلم يمدح أو يعلق أو يطري على الكتاب أحد،فاستاء نيتشه من ذلك استياءً شديداً وبخاصةٍ وأنه من أصحاب (الترجيع القريب والبعيد معاً)[٢] من مبدأ (السكوت عن عملٍ جيدٍ هو أسوأ أنواع النقد)، إلا

---

(١) وعندما جاء المجوس جعلوها مثنويةً زارادشتية، ولبراعة أتباع زارادشت في السحر، فلقد أطلق عليهم علماء الإسكندر المجوس، ومنها جاءت الكلمة الإنكليزية **magic** = السحر.

(٢) حسب تصنيف علماء النفس ومنهم (يونغ).

أنه توقَّع أن كتابه هذا سينال حق قدره في المستقبل غير المنظور، فقال: سوف يجد كتابي غايته ذات يوم، وهو يومٌ لن يقع عليه بصري، عندئذٍ سيكشفون كتبي، وعندئذٍ سيكون لي قُرَّاء، ومن أجلهم ينبغي لي أن أكتب، ومن أجلهم ينبغي لي تحديد أفكاري الأساسية). وما حصل له حصل لشوبنهور من قبل إذْ بقي حتى أيام كهولته فيلسوفاً مجهولاً. ولم يكتف نيتشه بأن تنبَّأ بمستقبلٍ باهرٍ لكتابه(١٢)، بل تنبَّأ أيضاً بأنه (سوف يأتي يومٌ ينشئون فيه كرسياً في الجامعة لدراسة كتابه هذا). وإذا اعتبرنا تنبؤاته لغواً أو وهماً دونكيشوتياً تراءى له أو خرافةً ابتدعها ليعزي بها نفسه (فالحقائق الكبرى تبدأ خرافات) كما يقول برناردشو[1].

إذ إن ما حصل قد خطَّأ تصوُّراتنا عندما صدقت تنبؤاته العلمية المدروسة بشأن هذا الكتاب، وفي يومٍ لم يقع عليه بصره أيضاً كما توقع. لأن التنبُّؤ نوعان غيبي وعلمي، فالغيبي من اختصاص عالم الغيب والشهادة، أما العلمي فقد يتنبَّأ الطبيب بموت مريض نتيجة تحصيله خبرةً طبيّة وهكذا.

ألم يقل (سيجموند فرويد) عن نيتشه (إن نيتشه يعرف نفسه معرفةً أكثر من أي إنسانٍ آخر عاش، أو من الممكن له أن يعيش). كما لاحظ فرويد أن (تنبؤات نيتشه ولمحاته الثاقبة تتفق على أعجب نحوٍ ممكن مع النتائج التي وصل إليها التحليل النفسي بعد كثيرٍ من العناء، فلقد بدأ (جورج برناردز) المولود باسم (كوهين) بإلقاء محاضراته عن كتب نيتشه في كوبنهاجن عام١٨٨٨ فاكتسب نيتشه بعدها في الأعوام العشرة التالية شهرةً وسعة دون أن يعلم بذلك(١٣)، ثم نال شهرةً عالميةً واسعة في أوائل القرن العشرين، حيث بدأ الاهتمام بكتبه، ليس على صعيد القراءة فقط بل هناك من قرأها وهضمها وتمثلها وطبقها على أرض الواقع.

فها هو هتلر يتبنى كتابه ويقدمه هديةً لأصدقائه بعد أن يكتب عليه إهداءً بخط يده، حتى إنه أخذ صورةً تذكاريةً له بجانب تمثال نيتشه مما حدا بأخته قبل

---

(١) (ألم تبدأ الحقائق بالخرافات؟ ألم يبدأ السحر بالخرافة ثم انتهى بالعلوم؟ حيث أنشأ لنا السحر طب الصيدلية وعالم المعادن وعالم الفلك إلخ.. أنظر كتاب (ول ديورانت قصة الحضارة ج١ ص ١١٥.

وفاتها إلى أن تقدم الشكر إلى (الفوهرر = القائد) لما قدمه لأخيها من طيب حفاوةٍ وتكريم (١٤).

فلسفة نيتشه

لا يمكن الإلمام بفلسفة نيتشه إلماماً كاملاً من خلال بحثٍ واحد، لكنني سأحاول الوقوف عند أهم أفكاره مقتضباً من الشرح ما أمكن، واضعاً في الحسبان إيفاء الموضوع حقه.

رأيه في الحب والزواج:

(**الحب لا يليق إلا بحثالة الرجال**). هذا ما قاله نيتشه، وهؤلاء الحثالة لهم مطلق الحرية في الحب والزواج، متى شاؤوا وبمن شاؤوا. وهنا يتماثل مع أفلاطون في المدينة الفاضلة حين سمح لطبقة (البرونز ـ عامة الشعب) بالزواج باستثناء طبقتي (الجنود = الفضة) و(الحكام = الذهب). أما عظماء الرجال عند نيتشه فلن يُسمح لهم بالزواج عن طريق الحب خشية أن يتزوج الأبطال بالخادمات والعباقرة بالخياطات وعارضات الأزياء..إلخ.

وعندما يقع هؤلاء في الحب لن يسمح لهم باتخاذ قرار الزواج والارتباط بمن أحبوا، فالحب يعمي البصر والبصيرة، ويفقد الحكمة وهذا يؤثر على مجرى حياتهم كلها (إن على خير الرجال أن يتزوجوا خير النساء)، فالزواج ليس مجرَّد نسلٍ يخضع للكم فقط، بل هو وسيلةٌ لتحسين نسلٍ نوعيٍ أكثر تطوراً ورقياً. لقد خطَّأ نيتشه شوبنهور حين ظن أن الحب عاملٌ من عوامل تحسين النسل لأن النسل النوعي في رأي نيتشه لا يكون إلا من خلال زواج الأرقى من الذكور من الأرقى من الإناث، لا بزواج الأرقى بالأدنى ولو كان ذلك عن طريق الحب. إن إنكار نيتشه الحب على الإنسان هو إنكارٌ لصفةٍ إنسانية أسمى في المرء السويِّ الأمثل، وبالتالي إنكارٌ لجزءٍ هامٍ من إنسانية الإنسان. ألم يقلْ أراغون: (لا ثقافة بدون الحب، والذي يحبني يخلقني). وقال نزار قباني في كتابه (أشهد ألا امرأة إلا أنت: أعشق يا حبيبتي.. إذاً أنا موجود).

ونعتقد بهذا الشأن (والاعتقاد مسألةٌ ظنية لا قطعية) لكنها أقرب إلى المنطق من خلال إخضاعها للاستقراء ثم الاستنتاج. **نعتقد أن لموقف نيتشه هذا جملةً من الأسباب من أهمها:**

(أ). ما ذكره كتاب (أعلام الفكر الأوروبي) لـ (هنري توماس) إنه كان فاتراً من الناحية الجنسية فتوراً أجبره على الانصراف عن المتع الجنسية فأحزنه هذا الأمر كثيراً، وأزعجه وأفزعه وهزَّه من الداخل(١٥).

(ب). عندما أحب في يفاعته فتاةً فنلندية اسمها (لوفون سالوم)(١٦) ملكت عليه قلبه، عندما أحبها ولم تبادله الحب بل أعرضت عنه، فرأى في إعراضها منقصةً من قدره وطعناً لشخصه في الصميم، فانبرى (كقصة الثعلب والعنب) يحط من قيمة الحب وقدر المرأة فقال: (إن المساواة بين الرجل والمرأة مستحيلة)، (فالرجل في رأيه يعدُّ للحرب، والنساء وجدن للترفيه عن المحاربين[1]، وكل ما عدا ذلك سخافة). وقال أيضاً: (إذا ذهبت إلى النساء، فلا تنس السَّوط)(١٧). وموقفه من النساء كموقف شوبنهور منهن، إذ كان يكره أمه كرهاً أعمى، فلقد كانت أمه ملِّمةً بالأدب، فافتتحت بعد وفاة أبيه صالوناً أدبياً زاره غوته، ومارست أمه فيه الهوى المباح[2]. ومما قالته لابنها عندما زار صالونها (ما أثقلك عليَّ؟ إني لتهون عليَّ أية تضحية إلا حضورك إلى هنا)(١٨). فتحول كرهه لأمه إلى كره نساء العالم أجمع. وكلاهما انطلق في كرهه للمرأة من مبدأ (الفعل ورد الفعل). إذ أن (كل فعلٍ يعقبه رد فعلٍ مساوٍ له في الطاقة مضادٍ له في الاتجاه). ولْنسْألْ نيتشه: إذا كان الحب لا يليق إلا بحثالة الرجال كما زعمت فبأي وصفٍ تصف نفسك عندما وقعت أسير حبٍ أعمى بصرك وبصيرتك؟.

---

(١) يذكرنا ذلك برأي أفلاطون في الجمهورية الفاضلة بما يتعلق بـ طبقة (الفضة ـ الجند).

(٢) يذكرنا صالونها بصالون (هنريت هيزر) الذي افتتحته في ألمانيا وكان يغذيه اليهودي الثري (موسى مندلسون) حيث كان صالوناً ظاهره الثقافة وباطنه الدعارة وذلك لحرف شباب ألمانيا، أما صالون أم شوبهاور فلم يكن له طابعٌ سياسي.

نظرته إلى بعض الدول والشعوب في عصره

وصف شعب إيطاليا بأنه يتمتع بالعنف وجلد الرجولة وكبرياء الأرستقراطية، ووصف روسيا بأنها وحش أوروبا الأشقر، وأن حكومتها قوية لأنها لاتعرف القيادة البرلمانية وذلك قبل ثورة ١٩١٩ الاشتراكية. ولم يعجب أن يجد روسيا تبسط سلطانها يوماً لتصبح سيدة أوروبا[1]. وكان يخشاها لأنه يرى أن قوة الإرادة فيها أشد بأساً من ألمانية. وأعجب بثقافة فرنسا فقال: (أنا لا أؤمن إلا بالثقافة الفرنسية) واعتبر أن كل ثقافةٍ أوروبيةٍ أخرى إلى جانب الثقافة الفرنسية كلامٌ فارغ(١٩)، كمااعتقد أن أفكاره ستُفهَم فيها أولاً(٢٠) ووصف فولتير بأنه سيد العصر العظيم، وأكد أن كل ما في أوروبا من سموٍّ في الذوق ونبلٍ في الشعور والأخلاق من صنع فرنسا. وأسوأ شعبٍ في نظره هم الانكليز لأنهم أفسدوا العقل الفرنسي بأوهام الديمقراطية(٢١).

فقال: (ألا من يخلص أوروبا من انكلترا، ويخلص انكلترا من الديمقراطية). أما بلده ألمانية فقال: (إن شعبها يمتاز بطبيعةٍ رزينة وعرقٍ يبعث الأمل إلى أن تنهض ألمانيا يوماً لتخليص العالم وإنقاذه. إن في الشعب الألماني فضائل رجولةٍ أكثر مما في الشعبين الفرنسي والانكليزي، إنهم مثابرون صبورون جبارون، وهذا أدى إلى تفوقهم وإلى إيجاد نظامٍ عسكري جعل أوروبا دائمة القلق من هذه القوة العسكرية). ولئن رأى نيتشه أن الألمان هم سادة الشعوب فإن مكيافيللي رأى أن الإيطاليين هم المتفوقون على غيرهم من الشعوب وهم النسل المباشر للرومان(٢٢)[2].

---

(١) وفعلاً كاد أن يتحقق حلمه قبل انهيار الاتحاد السوفياتي وتفكك أوروبا الشرقية.

(٢) يظهر أن نغمة الشعب المختار قد رافقت سائر الشعوب، فاليونان يرون غيرهم (بربراً) والعرب يرون غيرهم (أعاجم)، واليهود يرون غيرهم (غويما).. كما أن الهنود الأمريكيين يصورون أنفسهم شعب الله المختار أيضاً وقد خلقه (الروح الأعظم) خاصة ليكون مثالاً يرتفع إليه البشر. وهناك قبيلة من القبائل الهندية تطلق على نفسها (الناس الذين لا ناس سواهم) وأخرى تطلق على نفسها (الناس بين الناس) وقال (الكاربيون caribs): نحن وحدنا الناس.. أنظر قصة الحضارة - ول دويورانت ج ١ ص ٩٥. ولذا فقد نقد فولتير كل ذلك وقال ليس لله شعبٌ مختار.

موقفه من الاشتراكية والمساواة والديمقراطية

يرى(فرانز مهرنغ) أن فلسفة نيتشه مرتكزة على الكفاح ضد الاشتراكية والنضال البروليتاري، فالاشتراكية منافية للطبيعة البشرية، والأسس البيولوجية، لأنها (أي الإشتراكية) إن وُجدت فلن يكون هناك فقراء وأغنياء(٢٣) ولا مأمورين وآمرين لكونهم متساوين، وهذا لا يمكن لأنه يناقض ثنائية الحياة، فكما أن الديمقراطية هي الشكل التاريخي لسقوط الدولة، فإن الاشتراكية الراديكالية هي تعزيزٌ لقوى الاستبداد(٢٤). الحياة فقدت قيمتها عندما تخلينا عن أخلاق البطولة وأخذنا بمبدأ المساواة والديمقراطيةالتي تكفر بعظماء التاريخ (أصلاً لم يخلق التاريخ سوى العظماء). المساواة جنون، والفقير شخصٌ فاشلٌ فيزيولوجياً لأنه يحاول أن يسرق من الغني سلطانه وثروته، وهذا تدميرٌ لتراتب القوى.

إن الديمقراطية هي سخافة حكم الأكثرية والعدد ويجب استئصالها والقضاء عليها، وأول خطوةٍ في ذلك هو تحطيم المسيحية التي تنادي بقيمة الإنسان وبمساواته أمام الله(٢٥). وانتصار المسيح هو انتصارٌ للديمقراطية، فهو المسيحي الأول الثائر على ضروب الامتياز. عاش مكافحاً من أجل المساواة بين الناس في الحقوق.

ولو عاش هذا المسيحي الأول في يومنا هذا لقضي عليه بالنفي إلى سيبيريا. ألم يقل(سيد القوم خادمهم)[1] وهذا قلبٌ للحكمة السياسية والعقل السليم. إن أفكار الانجيل لا يمكن أن تتأصل جذورها إلا في الطبقات السفلى، إذ عندما يتربع العبد على العرش ينشأ التناقض ويصبح أحقر الناس أفضلهم.إن المساواة مناقضة حتى لنظرية البقاء للأصلح(٢٦)[2]. والذين يدعون إلى المساواة يدعون إليها لعجزهم عن أن يكونوا جبابرةً أقوياء.

والضعيف الذي يقول (إن الحياة لا تساوي شيئاً) كان خيراً له أن يقول (أنا لا أساوي شيئاً).

---

(١) قال السيد المسيح (من أراد أن يكون منكم سيداً، فليكن للجميع خادماً).

(٢) أنظر بروتوكولات حكماء صهيون.

منشأ الدولة عنده

إذا رأى أفلاطون على لسان سقراط (أن الدولة تنشأ عن عجز الفرد عن سد حاجاته بنفسه وافتقاره إلى معونة الآخرين)، ورأى أرسطو أن الدولة هي مجموعة من المواطنين ذات عددٍ كافٍ لتحقيق جميع أغراض الحياة، ورأى الفارابي من بعدهما (أن الدولة تنشأ عن حاجة الأفراد إلى التعاون). وحذا حذوهما ابن خلدون في مقدمته، ورأى هيغل (أن الدولة ليست من صنع الأفراد ولا مثالاً أعلى متوالداً من الجماعية بل هي تحقيق للفكرة الإلهية أي (الدولة إلهٌ على الأرض)(٢٧)، فإن نيتشه لم ير منشأ الدولة كذلك.

فالدولة عنده منظمةٌ سياسية بل لا أخلاقية، منظمة تنشأ بفعل غريزة الحق عند الأقوياء بهدف وضع حدٍّ لهوس العنف المجنون لدى الضعفاء، لتكون بمثابة (كمَّاشةٍ فولاذية) تشدُّ على المجتمع بحيث يبدأ تمايزه بالتشكل (بنية فوقية هرمية جديدة)(٢٨).

وهي لا تبدأ بعقدٍ ولا بتعاون إذ ما أهمية العقود بالنسبة إلى ذلك الذي خُلق بطبيعته ليكون قائداً سياسياً وعنيفاً وقوياً (القوي لا يتعاقد مع ضعيفٍ منسي). (لا صحة لما يقال إن الدولة نشأت من تعاقد الأفراد فيما بينهم، لكن الذي أنشأ الدولة هم جبابرةٌ من الوحوش الكواسر السادة الأقوياء ذوو المقدرة الحربية والتنظيم العسكري الذين أنشبوا مخالبهم في سكان بلادٍ تفوقهم عدداً(٢٩). **وللدولة في رأيه وظيفتان:**

داخلية ـ وهي التشريعات والعقوبات وما إلى ذلك.

وخارجية ــ وتبدأ في الحروب والفتوحات كميكيافيللي الذي رأى أن الدولة تعتمد في جوهرها على العدوان(٣٠)، فالحرب هي الشكل الأبدي لوجود الإنسان المتفوق، والدولة توجد من أجل هذه الحرب(٣١)، الدولة وسيلة والحرب غاية. ولذا فإن الحرب فوق الدولة، وعندما تتحول الأمة عن الحرب، فإن ذلك علامة انحطاطها، وبداية زوالها، كما أن أهم وظائف الدولة التربوية هو تحويل الشعب إلى عبيد (٣٢). وهذا القول يشبه قول (هيغل) معكوساً. يقول (هيغل) (إن نفس الفرد يجب أن تضحي بكل شيءٍ في سبيل نفسٍ هي الدولة)(٣٣). إن الدولة عند نيتشه ليست سوى

أداة الإنسان العبقري الفذ، وتسيير أمورها يجب أن يُعهد به إلى أفرادٍ طغاةٍ جبارين، وفي الحالة المثلى إلى زعيمٍ مستبدٍ، أو فوهرر). فكيف لا تستهوي هذه الآراء شخصيةً مثل هتلر الذي يفوق نيتشه جبروتاً وجنون عظمة. ذلك الذي كان يضع كتاب الأمير لمكيافيللي بجانبه، يقرأ فيه كل ليلةٍ قبل أن ينام. قال هتلر بشأن الدولة قولاً يماثل قول نيتشه: (إن الدولة وسيلة لتحقيق هدفٍ ما)(٣٤).

نيتشه واللاهوت

الإيمان بالجسد عند نيتشه أرسخ من الإيمان بالروح، فالروح تابع للجسد(٣٥)، والجسد هو الظاهرة الأكمل لإرادة القوة وليس هناك سواه، فهو الذات التي تبحث بعينيِّ الحواس وتسمع بأذنيِّ الروح. بعكس أفلاطون الذي قال: (لنفتح عيون الروح بإغلاقنا عيون الجسد). ((ليس الله موضوع فلسفة ـ كما يقول (هوبز) ـ بل هو موضوع إيمان)). إلا أننا مضطرون للحديث عن هذا الموضوع لأن اللاهوت يحتل حيزاً واسعاً في فلسفة وأفكار نيتشه. يقول نيتشه في كتابه (هكذا تكلم زارادشت) وأورد ماقاله بتصرفٍ بغية الاختصار: ((نزل زارادشت ليعظ الناس، لكن الجماهير انشغلت عنه بمشاهدة رجلٍ يرقص فوق حبل. ولما سقط الراقص ومات، حمله زارادشت قائلاً: (عشْ في خطر) لكن تذكر أن تكفر بالديانات كلها))[1].

((ثم قابل زارادشت ناسكاً هرماً صار يحدثه عن الله فتساءل زارادشت قائلاً: يبدو أن هذا الناسك المسن لم يسمع بعد وهو في غابته أن الله قد مات وماتت معه جميع الآلهة)). لم يعتبر نيتشه نفسه ضد المسيح قدر ماكان ضد المسيحية التي وجد أنها تضعف الإنسان وتجعله مريضاً رعديداً وتسعى به نحو الأنسنة لمناداتها بقيمة الإنسان المطلقة وبمساواته أمام الله. وكان خصمه الشيطاني هو (بولس)[2] الذي جعل من سيده المسيح علاّمةً وجعل من أساطيره الجميلة لاهوتاً(٣٧).

---

(١) ويحضرني بهذا الصدد بيت لأبي العلاء المعري يقول فيه:

هذي الديانات ألقت بيننا إحَنَاً وعلّمتنا أفانين العداوات

(٢) بولس(رسول الأمم) من أعظم رجال الدين المسيحي، اسمه الأصلي (شاءول) روماني الجنسية

لقد دعا نيتشه أنداده إلى رفض كل ماهو(أسكاتولوجي = أخروي)، ودعاهم إلى تقديس تراب الأرض الذي هو أقدس من كل مقدس، وأن لايلقوا بالاً إلى الوعود العرقوبية الماورائية لأنها محض وهمٍ وخيالٍ فقال: (أناشدكم أيها الأخوة أن تظلوا أوفياء للأرض، ولا تصدقوا من يخاطبونكم عن الآمال فوق الدنيوية، إن السمَّ يقطرمنهم سواء كانوا يعرفون أم لا يعرفون). (إن الإنسان الذي اخترع فكرة عذاب جهنم أراد أن يعزي نفسه بفكرة تعذيب أعدائه ومضطهديه وظالميه في الحياة الأخرى(٣٨). لقد سفَّه نيتشه سائر المُنْضوين تحت مظلة اللاهوت فقال: (علينا أن نعرف أن رجال الدين واللاهوت والكاهن والبابا لا يخطؤون في كل جملةٍ يقولونها وحسب، بل هم يكذبون أيضاً)(٣٩).

إن إنكار نيتشه للماورائيات تبدى منذ يفاعته كما نوهنا، ويوم دهمه المرض.

قال لأخته وهو في غاية مرضه موصياً إياها (عديني إذا مت ألا يقف حول جثماني إلا الأصدقاء، وأن لا يدخل الفضوليون من الناس، ولا تدعي قسيساً ينطق بالأباطيل على قبري في وقتٍ لا أستطيع فيه الدفاع عن نفسي. أريد أن أدفن في قبري وثنياً شريفاً (٤٠). ((فما لست إياه فإنه عندي الله والفضيلة))(٤١). لقد تنبَّأ نيتشه بأنه سيغدو نبياً بعد موته ويقينه أن من الأنبياء من أصبحوا أنبياء بعد موتهم. ولكم طالب رفاقه أن يركزوا على أناهم فخاطبهم قائلاً: (تشجعوا يارفاقي وانبذوا الفضائل البالية التي يسمونها حميدة التي يرسف بها الجنس البشري.قولوا أنا وكرروها مراراً وتيهوا بها فخاراً، ولست آمركم بألا تكفوا عن قول الأنا، بل يجب أن تصنعوا الأنا)(٤٢). إن أناه المَرَضية وهَّمته بأنه يتربع في أعلى عليين فقال:

يهودي النشأة. كان يضطهد المسيحيين الأُوَل كُلِّف من قبل رئيس الكنيس للذهاب إلى مدينة دمشق لمقاومة المسيحية سنة ٣٥ميلادية وفي طريقه رأى نوراً، وسمع صوتاً يقول (شاءول شاءول..لمَ تضطهدني؟) فقال: مَنْ أنت؟ أجاب الصوت (أنا يسوع الذي تضطهدني) وكاد أن يفقد بصره. فذهب شاءول إلى دمشق ونزل عند المسيحيين وانخرط في سلكهم، وسمى نفسه بولس، وأصبح أنشط المبشرين بالمسيحية في القرون الأولى. ثار اليهود ضده وقُبض عليه في أورشليم بتهمة تحريض الشعب، فسُجن سنتين ثم أُفرِج عنه وعاد إلى ما كان عليه، فصلِّب وقُطع رأسه.

(إنكم تنظرون إلى ما فوقكم عندما تتشوقون إلى الاعتلاء، أما أنا فقد علوت.. علوت حتى أصبحت أتطلع إلى ما تحت قدمي)(٤٣). بل إن أناه قد سولت له تأليه نفسه ليحل محلَّ الله فقال: (إذا كان ثمة آلهة، فكيف أقدر أن أتحمل ألا أكون إلهاً؟) (٤٤).

الإنسان الأعلى المتفوق = السوبرمان

لقد بشر نيتشه بمجيء الإنسان الأعلى[١] والإنسان الأعلى هو ذروة هدفه الفلسفي، وظهر حين مات الله. لقد سعى نيتشه لبعث إنسانه الأعلى مركزاً عليه حتى قبل أن يكون نطفةً في الرحم، وذلك عن طريق تحسين النسل من خلال الحفاظ على الدم الجديد الذي ركز عليه بسمارك، والحفاظ على سلامة العرق الذي ابتدعه غوبينو[٢]. لأن إنسانه الأعلى هو قمة التطور البيولوجي. ثم يخضعه لمدرسة تدربه على الآلام الجسام ومهام القيادة وإطاعة الأوامر من غير أن ينعم بأسباب الراحة. ويتعلم فيها الضحك ليسخر من سائر المصاعب التي تعترض حياته وبهذا يرتفع فوق الخير والشر، فلا يتردد في اللجوء إلى العنف والقسوة للوصول إلى مبتغاه (أي يغدو شجاعاً لا صالحاً ولا خيراً).

أهم صفات الإنسان الأعلى عند نيتشه :

مستخفٌّ بالموت، فالصالح عنده ليس هو العابد بل هو الساعي إلى الموت. يقول (أحب المستهينين بالحياة والمستخفين بالموت لأنهم أعظم المتدينين الصالحين. أحب

---

(١) شأنه في ذلك شأن يوحنا المعمدان الذي بشر بقدوم السيد المسيح كما يقول الدكتور صلاح قانصوه في كتابه (نظرية الفن في الفكر المعاصر).

(٢) غوبينو في كتابه (دراسة في اختلاف العروق البشرية) أشاد فيه بالآريين وقسم البشر إلى عروقٍ ثلاثة (أسود - منذور للعبودية) (أصفر - يمتاز عنه قليلاً) (أبيض - هو السيد المتربع على عرش الشعوب)، ويذكرنا ذلك بتقسيم اليهودي النمساوي شلوتزر الذي ادعى فيه أن (سام - جد الكهنة) (يافث - جد النبلاء) (حام - جد العبيد والأقنان)، وأسقط العرب من نسل سام انظر صلاح قانصوه في كتابه (نظرية الفن في الفكر المعاصر).

الـذين ضـحوا بحيـاتهم مـن أجـل هـذه الأرض الـتي نعـيش عليهـا ، لا مـن أجـل مـاوراء النجوم، لكـي تصير الأرض يوماً ما مسكن الإنسان الأعلى).

محبٌّ للحرب

(الحرب أم كل الأخلاق)(٤٦). وعلى الأصفياء أن يحبوا السلام من حيث هو وسيلة لحربٍ جديدة. يقول: (أحبوا السلام كوسيلةٍ لتجديد الحرب، وخير السلام ما قصرت مدته)(٤٧).

إن الأمم التي تتحول عن الحرب تبشر بانحطاطها ، والحرب الأخلاقية في نظره ليست هي التي تُخاض لصدِّ غزاةٍ محتلين أو التي تُشنُّ لاستعادة أرضٍ مسلوبة أو حقٍّ مغتصب، لكن الحرب الأخلاقية هي التي تمهد الطريق للإنسان المتفوق مهما كانت حقارة أسبابها وفظاعة نتائجها. حتى أن الثورة خير كما يرى، لا لأنها خير بحد ذاتها ، فالثورة تؤدي إلى سيادة الجماهير وعامة الشعب، وهي أسوأ أنواع الحكم، لكنها خير لأنها كفاح والكفاح رمز العظمة الكامنة في الرجال، فمن بين الفوضى يبزغ أعاظم الرجال، كما بزغ نابليون من أنقاض الثورة الفرنسية(٤٨). إن الشر والحسد والحقد والبغضاء والكراهية لا بد منهم من أجل الكفاح لاختيار الأفضل، ولو لم يكن الشر خيراً لزال عن الوجود. لقد تنبَّأ نيتشه بظهور جيلٍ جديدٍ من الطغاة، وتكهَّن بوجود مثالٍ (بلوتوقراطي) فظٍ هدفه الحرب ثم الحرب كرَّةً أخرى.

قوي غير ضعيفٍ ولا شفوق

(لا إرادة فوق إرادة القوة). (القوة هي الخير ومعيار الأخلاق) والشفقة ضربٌ من الشلل العقلي (كن قوياً تكن خيِّراً وخلوقاً).

لا وجود للشفقة في قاموس حياة نيتشه، حتى إن زيارتنا للمرضى لا علاقة لها بالشفقة. يقول: (إن زيارتنا للمرضى هي نزعة استعلاءٍ منا نحو هؤلاء المرضى العاجزين). و(حين نعجز أن نعلم أحداً الطيران علينا أن نعلمه كيف يسرع في السقوط)(٤٩). (وإذا أردنا نحن بلوغ الذرا ، فعلينا أن نتسلقها بجهدنا ولا نطلب أن نحمل إليها حملاً على ظهور الغير ورؤوسهم(٥٠)، لأن الذي يرفعك بإمكانه إسقاطك متى شاء. علينا ألا نمدَّ يد العون إلى الضعفاء وبخاصةٍ إلى الهاوين منهم. يقول: (يجب

ألا نمسك بالهاوين إلى القاع، بل ينبغي دفعهم أيضاً) ليسرعوا في السقوط. إن على الضعفاء أن يضحوا بأنفسهم في سبيل الصفوة المختارة من مبدأ (حق القوي على الضعيف). وما الحياة سوى استعلاء الأقوياء على الضعفاء واستغلالهم وابتلاعهم كما يبتلع السمك الكبير السمك الصغير. وما الحياة سوى معادلةٍ ذات طرفين مستغَلٍّ ومستغِل، فهناك أخلاق حيوانات ٍمفترسة وهناك أخلاق حيونات مسالمة آكلةٍ للعشب. والإنسان الأعلى النتشوي حيوانٌ مفترس إذا دُجِّن وأُسِرَ شُوِّه في روحه، وأصبح مريضاً ودُمِّر باطنياً[1]. أما الحيوانات آكلة العشب، فلا تخسر شيئاً إذا دُجِّنت، وما من حيوانٍ كاسرٍ كالإنسان يصنع أسلحته(٥١) ليدمر بها غيره من الضعفاء.

عديم الرأفة

فما أمات الله سوى رحمته. الإنسان الأعلى لايعذبه ضمير، ولا يخجل من قسوةٍ مارسها ولا يحسُّ بندمٍ نتيجة عملٍ مشينٍ جنته يداه ولو أفنى شعباً بريئاً بحاله، فكل ما عداه حشرات، ومن منا يشعر بوخز ضميرٍ إزاء قتله ذبابةً أو حشرة؟ بمثل هذا يجب أن يعامل الإنسان الأعلى سائر البشر(٥٢)، وليس عليه التزامات إلا حيال أشباهه. أما حيال الكائنات الأخرى التي هي من مرتبةٍ أدنى وحيال كل ما هو غريبٌ عنه، فإن له حق التصرف به حسب هواه(٥٣). الإنسان دود أرض، ومازال يمارس قرديتَّه أكثر من أي قرد.

ورغم أن هذه الفكرة النيتشوية تحمل إقرراً ضمنياً بنظرية التطور لدارون إلا أن نيتشه رفض (الكوجيتو الديكارتية) (أنا أفكر، إذاً أنا موجود). فقال: (أنا أحيا، إذاً أنا موجود). ألم يقل نابليون (القانون كخيط العنكبوت يدوسه الأقوياء ويقع في شركه الضعفاء)؟ ألم يقل هوبز: (الإنسان للإنسان عدوٌّ مبين؟). إن إنسان نيتشه الأعلى هو ذرائعي براغماتي[2] (نفعي بالدرجة الأولى) لا ينظر إلى الأشياء بقدر

---

(١) يقول ريتشارد نكسون رئيس الولايات المتحدة الأسبق (على أعداء الولايات المتحدة أن يدركوا أننا نصبح حمقى إذا ضُربت مصالحنا. وعندها.. لا يستطيع أحد التنبُّؤ بما قد نفعله بما لدينا من قوةٍ تدميريةٍ هائلة، وعندها فقط سيرتعد أعداؤنا خوفاً منا).

(٢) (فعل ـ نشاط ـ عمل) تسمية تطلق على المذهب الفلسفي القائل: إن الحقيقة تصبح في صميم

قيمتها بل بمقدار نفعها له في حياته، وإن كلمات ((لاتسرقْ لا تقتلْ)) كما يقول كلمات كانت مقدَّسة في غابر الأزمان. أليست السرقة والقتل من طبيعة الحياة ذاتها(٥٤). ليس ثمة محظور في الحياة على الإنسان الأعلى، فكل ما فيها رهن يمينه (وما الإنسانية سوى لفظةٍ جوفاء لا وجود لها على الإطلاق)(٥٥).

على إنسان نيتشه أن يؤكد على: أولية الغريزة على الفكر، وإذا قال بسمارك (لا محبة للخير بين الأمم، وأن القضايا الحديثة مع الدول لا ينبغي أن يقررها أصوات الناخبين ولا بلاغة الخطب، ولكن أداتها هي الدم والحديد (٥٦)، فإن نيتشه يرى أن إنسانها الأعلى (شيفا) متعصرن (مولوخ) متجدد مصَّاص دماءٍ على الدوام.[1]

تعقيبات بانوراميه

ـ لن أجادل نيتشه في موضوع اللاهوت من خلال إيماني الشخصي المطلق بالله ولا حتى من وجهة نظرٍ شرقيةٍ عامة، لكن علي أن أقول، وهذا أقل ما يجب أن يقال، لقد حاول نيتشه نسف جهدٍ إنسانيٍ دام طويلاً طويلاً، جهدٍ استطاع الإنسان من خلاله ـ بعد لأيٍ ـ إحداث نقلةٍ نوعية في بنية عقله التركيبي والتحليلي، وذلك بنقل فكرة اللاهوت من المتعدد تجسيداً إلى الواحد تجريداً، والتجريد صفة يتفرد بها المخلوق الإنساني السامي عن سائر مخلوقات الدنيا.

ـ إذا لم يكن السيد المسيح الذي ولد معجزةً وجاء بالمعجزات ـ بإذن الله ـ وهو معجزة المعجزات والذي جعلته المسيحية ـ التي كنت في صغرك ملاكها الأبيض ـ جعلته أقنوماً ثالثاً حلَّ من خلال جسده (اللاهوت بالناسوت)، إذا لم يكن هذا العظيم عظيماً لا يستحق ـ في نظرك ـ أن يتبوأ سدة (إنسانك الأعلى)، فعن أي عظيمٍ بعده تتحدث؟.

التجربة وإن المعرفة هي كناية عن آلة أو وظيفة تعمل في خدمة مطالب الحياة، وإن صدق قضية عائد إلى كونها مفيدة أو نافعة علمياً وإن الفكر غائي في طبيعته. أنظر موسوعة علم النفس د.أسعد رزوق.

(١) شيفا الإله المُهلِك في الأساطير الهندية له ثلاث عيون. ومولوخ إله أسطوري يعيش على مص الدماء.

ـ إذا طبق الآخرون أفكارك.. أليس من حق الأصحّاء الذين عاصروك أن يزيلوك عن الوجود لأنك لم تكن سليم الجسم باعتراف كل من كتبوا عنك؟.

ـ ماذا تسمي رعاية أختك لك بعد أن فقدتَ عقلك؟ هل تسمي موقفها الإنساني تجاهك نزعة استعلاء منها عليك كاستعلاء الأصحاء حين زيارتهم للمرضى كما تصورت؟ أم أن رعايتها لك نبعت من إنسانيتها أولاً قبل أن تفرض ـ ذلك عليها ـ صلة القربى لأن زوال الشفقة من الإنسان يعني زوال الإنسان نفسه.

ـ لقد بنى نيتشه فلسفته على القوة وتنازع البقاء، فجعل من شريعة الحياة شرعة غابٍ وذئابٍ متوجِّهاً بفلسفته إلى قلَّةٍ من المحاربين من طبقة (الإنتلجنسيا)، فحرَّر الفكر الألماني من العناصر الأجنبية، وصار صوت ألمانيا المعبِّر عن روحها العسكرية وإيمانها بالقوة، فنعت بنبيِّ فلسفة القوة.

ـ تُرى!! هل ولد إنسان نيتشه الأعلى متمثلاً بالدول الاستعمارية التي أدمنت لعق الدم البشري الطازج، وابتلاع الدول التي وصلت إلى (الجيل الثالث أو الطور الخامس حسب التصنيف الخلدوني؟)[1]، أم وُلد إنسانه الأعلى من خلال أحادي القطبية خمبابا[2] الأمريكي حيث استبدل مصطلح حوار الحضارات بمصطلح صراع الحضارات سحقاً ثم محقاً، فالسحق إبقاءٌ للضعيف تحت نير القهر، أما المحق فيعني إزالته عن الوجود.

ـ قد نكون مع نيتشه في بعض ماجاء به بشأن القوة كونها المعيار الأخير للعلاقات الدولية ماضياً وراهناً وآتياً كما نوَّهنا، لأن قوة الحق في عصرٍ مات فيه الحق بأمس

---

(١) تقول الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ١١ (إن ابن خلدون رأى أن الدولة تمر بثلاثة أجيالٍ: الأول يبني ويؤسِّس، والثاني يحافظ على ما بناه الأول، والثالث يهدم.ويقول ابن خلدون في مقدمته ص ١٢٧-١٢٨: تمر الدولة بخمسة أطوار:

١. طور الظَّفر.
٢. طور الاستبداد.
٣. طور الفراغ والدعة.
٤. طور المسالمة.
٥. طور الإسراف والتبذير. وهو الطور الذي يبدأ فيه الهرم فالمرض فالانقراض.

(٢) خمبابا وحش الغابة في ملحمة غلغامش.

الحاجة إلى حق القوة، وهذا ناموس العالم منذ وُجد، لكننا لا نوافقه على كل ما جاء به بشأن القوة، إذ ليس كل عظيمٍ عظيماً من خلال قوته فقط، وبخاصةٍ إذا انطبقت عليه مواصفات إنسان نيتشه الأعلى، لأننا عندما نُقَونن القوة، فإننا نُمَنْهِج ونُبَرْمِج شرعةً تخدم الإنسان حيثما وجد ثقافياً وحضارياً وعلى الصعد كافة. وبما أننا في موضوع القوة نسأل: هل كان نيتشه متنبياً سبق عصره فيما يتعلق بمسألة القوة، وهل كانت أفكاره من الجدة بمكان، أم أنها مستمدة من أفكارٍ سبقته قرأها فاستهوته، ثم صاغها في قالبٍ جديدٍ ملطَّخٍ بالدم البشري النقي طالباً من الشريحة التي تمثله وتماثله أن تتبنى أفكاره (على حياة عينه ومن بعده أيضاً) لتكون أفكاره شعاراً لفلسفة القوة. أؤكد جازماً أن نيتشه قرأ قول أفلاطون (العدالة هي منفعة الأقوى). ولعل كتاب أفلاطون التالي فيه ردٌ على سؤالنا. يقول أفلاطون في كتابه (محاورات جورجياس) وبخاصةٍ على لسان (كالكليس) وهي شخصيةٌ ابتدعها أفلاطون من عنديَّاته في أماكن متفرِّقة من الكتاب. (القوة هي القانون الأعلى). (من هو أكثر قيمة يجب أن يتفوق على من هو أقل قيمة والعدل يتمثل في سيادة القوي على الضعيف). (الخيرات التي يملكها الأضعف والأقل شجاعةً هي ملكٌ للأحسن والأكثر قوة). (العدالة أن تهب الأقوى أملاك الأضعف). (الدول الكبيرة القوية عندما تغزو الدول الضعيفة، إنما تتبع في ذلك القانون الطبيعي مادامت هي الأكثر سلطاناً والأقوى). (القانون من عمل الضعفاء ضد الأقوياء). إلا أن أفلاطون عندما أورد هذه الأقوال لم يوردها لقناعته بها، أو لتكون بمثابة دعوةٍ لتمثُّلها والاقتداء بها، بل أوردها ليدحضها ويبيِّن خطأها على لسان أستاذه سقراط. ومن جملة ما ردعليها.. قوله في الكتاب نفسه. (الظلم أفدح الشرور وارتكابه أفظع من احتماله). (إن الذين يرتكبون الظلم يتألمون أكثر مما تتألم ضحاياهم). (القانون يقود إلى العدالة بالقوة). (الأخلاق الفاضلة تحيا دائماً وتنتصر لأنها أقوى من جميع المهاجمين). (على الأصحاء الأقوياء أن يستعملوا قوتهم استعمالاً عادلاً ضد الأعداء الأشرار للدفاع عن أنفسهم لا للهجوم. ومن يستعمل قوته استعمالاً ضاراً جديرٌ بالكره والنفي والموت)[1].

---

(١) **لقد استهوت شخصية (كالكليس) نيتشه فأراد أن يكون نسخةً طبق الأصل عنها، لكن في زيٍّ**

لقد أحب نيتشه الدم حتى في الفن التشكيلي نازعاً عنه صفاءه وطهره. ولو تحقق حلم هتلر الذي كان في ريعان صباه يأمل أن يغدو فناناً تشكيلياً كما ذكر خيري حماد في كتابه تاريخ ألمانيا الهتلرية، لو تحقق له ذلك، لكان مثلاً لنيتشه. قال نيتشه (أحب من الألوان الأصفر القاتم والأحمرالفاقع، لأنهما يدخلان لون الدم على جميع الألوان). (إني أحب الدماء). إن إنسان نيتشه لم يولد بعد، وما الإنسان العظيم سوى جسرٍ يمهد لوجوده، لأن إنسانه الأعلى ما زال يكمل تطوره الجنيني في رحم المستقبل. النخبة وحدهم سادة الأرض وما عداهم وجبات شهية دسمة للشرهين الجائعين حسب الطلب، لحمها طري ودمها شهي.

جماعة القول

لقد طبَّق نيتشه القول العربي المأثور (إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً) أما الشق الثاني (واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) فقد نبذه ورمى به جانباً، لأن نيتشه (لا بعد.. بعد الحياة عنده)، فهي المبتدأ والمنتهى.. والممر والمستقر. لقد انطبق على نيتشه

عصريٍّ ضارباً عرض الحائط بالردود العقلانية التي جاءت على لسان سقراط.

ما بين الأقواس ابتداءً من (القوة هي القانون الأعلى) حتى جملة (ومن يستعمله استعمالاً ضاراً جديرٌ بالكره والنفي والموت) نجد صفحاتها في الكتاب المذكور حسب الترتيب التالي: ٨٧/٨٨/٨٩/٩٤/٩٥/٢٠/١٠٦/٧/٧٥/٢٤/٥/٤٧.

ـ كما أني لن أخوض في إيراد الشواهد التي تحثنا على أن نكون أقوياء من خلال تراثنا وموروثنا (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) وقوله (ص) {المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف} وقول المسيح (ع) (لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض، ما جئت لألقي سلاماً.. بل سيفاً)إنجيل متَّى /١٠/بل سنكتفي بما قاله أفلاطون (القوة العظمى خيرٌ لمن يمتلكها لأنها توقع الرهبة في نفوس الإرهابيين حتى لا يمارسوا الإرهاب على الصعيدين الفردي والجماعي. ونحن لن نتهم أعداءنا بالإرهاب ـ على الرغم من أن الإرهاب كلمة توراتية ـ بل سندعهم يصورون أنفسهم بلسان حالهم من مبدأ (من فمك أدينك) قال الصهيوني (حاييم وايزمن) (إن دولتنا إسرائيل بحاجةٍ إلى كفاحٍ مسلَّح.. وجهودٍ دبلوماسيةٍ مضنية.. لكنها أيضاً بحاجةٍ إلى الإرهاب) ومن هنا نرى أن إرهابهم في عرفهم حقٌّ مشروع وكفاحنا المشروع ـ في رأيهم ـ إرهاب.

قول الشاعر العربي (والطير يرقص مذبوحاً من الألم). ألم يقل نيتشه (أنا أعلم أكثر من غيري السبب في أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يضحك لأنه وحده الذي يتألم أشد الألم، والألم أجبره على اختراع الضحك.[1] ولئن دلت أقوال نيتشه التلميحية والتصريحية على شيء، فإنما تدل على أن أفكاره نبعت من خزّان ألمه، فجاءت واخزةً للأذن السليمة والضمير الحي. إن فلسفة نيتشه هي انعكاسٌ لصورة نفسه القلقة التي تنوس بين أقصى نقيضَيْن لحظةً معك واخرى عليك، بل لحظةً مع نفسه وأخرى عليها.. بل قُلْ: إنه ليس مع أحدٍ على وفاق. أليس هو القائل (ليس بين الأحياء والأموات من أشعرأنني معه على وفاق؟) تماماً مثلما قال أستاذه شوبنهور (لقد وجدت من فجر حياتي أني مع العالم على غير وفاق). تُرى: هل من بين الأحياء العقلاء أحد كان معك يا نيتشه على وفاق؟.

خاتمة

لئن غفر (شبنغلر) لـ (نيتشه) أخلاقية زارادشت (٥٨) ونعته كتاب (الفكر الألماني من لوثر إلى نيتشه بأنه حادثةٌ انفجارية)(٥٩) ورائد وجدان أوروبا الحديث، فإن صديقه الموسيقي (فاجنر) نعته قبل جنونه بـ (المجنون).

وقال عنه العلاَّمة الفرنسي (فيبييه): (إن مذهب نيتشه التعِس يؤدي إلى الجنون ونظريته بدلاً من أن تخلق الإنسان الأعلى أوجدت الإنسان السافل)(٦٠).

ثم ألم ينعت نيتشه العالم بأنه (دار جنون)؟ وسمَّاه (إقبال) بـ (المجذوب)؟[2] تُرى هل هذه الأوصاف التي ألصقت به إرهاصاتٌ تنبي بجنونه؟!

لقد عانى نيتشه مدًّاً فكرياً عاتياً متناقضاً يرتطم بشط مخزونه الدماغي

---

(١) ولقد ألّف مقطوعةً موسيقيةً أهداها إلى (الأسى). يقول فولتير (إني أضحك لأتقي الجنون).

(٢) قال عنه إقبال: إن عقله مؤمن وقلبه كافر.كما رأى إقبال أن نيتشه قد وصل إلى جزءٍ من الحقيقة ولم يتعد ذلك لأنه كان بحاجةٍ إلى مرشدٍ يقوده إلى الله (إنه كالحلاَّج دون خشبة صلب). واعتبره (كارل ياسبرز) بأن ظاهره إلحادٌ وباطنه إيمان وأن إلحاده إيمانٌ مقنَّعٌ بالحقيقة (أنظر كتاب د. حسن حنفي ج ٢ ص ٣١٤+ ٣٣٦ ط ١ لبنان دار التنوير).

وكأن في رأسه مطارق سوق الحدادين، فكان يقول:

(الضجة تشل الفكر). (متى تأتي ساعتي؟ ساعة انحداري وجنوحي؟؟) (٦١) حتى أتت ساعة انحداره وجنوحه فانهار عقلياً ثم جسدياً وظلَّ يعاني جنوناً دام أكثر من عشر سنوات قبل أن تطاله يد الموت. وكم خطر في ذهني رسمه تخيُّلاً وهو في ذروة جنونه. تصوَّروا معي رجلاً مجنوناً.. صدامياً.. دموياً.. (أنَويّاً).. عصبياً.. عُصابياً.. متعصِّباً.. يكزُّ على أسنانه كزَّ الرّحى على الرحى كمن يتشفّى من غريمه. عيناه غائرتان محدِّقتان في اللاشيء وكلٌّ منهما في اتجاه. مرَّةً يصارع أشباحاً وهمية، وأخرى يضرب بكل وحشيةٍ على علامات (البيانو) الموسيقية بكوعَيْه، حتى تستجير العلامات من ضربه الجنوني، مقرونٌ هذا الضرب بعواءٍ أشبه بنباح كلبٍ مسعورٍ أو بعواء ذئبٍ مجروح. مشهد يوقف شعرالرأس حين سماعه، فكيف حين رؤيته أيضاً قال نيتشه:

(على الإنسان أن يفعل شيئاً أفضل منه ثم يموت).إلاأن نيتشه قبل موته بل قبل جنونه ظلَّ يعلو.. ثم يعلو بـ (أناه) مترفِّعاً عمَّن (سواه) فما استطاع أن يحلَّ محلَّ (اللّه) وما استطاع أن يرى إنسانه (الشبيه أو البديل عن الإله). لكن إنسانه (الرّوبوتيّ) الفاقد للإنسانية والضمير والشعور والإحساس الذي يحتل أرضنا.. ويسرق خيراتنا.. ويقتل أطفالنا قد ظهرت في أفق العالم سراياه وتبدت للعالم خفاياه.

انتهـــــى ....

المصادر والمراجع

١- عصر الإيديولوجيا. هنري إيكن. وزارة الثقافة،١٩٧١، دمشق ، ص (٢٥٣).

٢- المصر نفسه ص (٢٢٥).

٣- المصدر نفسه ص ٢٥٤.

٤- المصدر نفسه ص ٢٥٣.

٥- المصدر نفسه ص ٣٥٤.

٦- المصدر نفسه ص ٣٥٦.

٧- على دروب زارادشت. استيبيان أو دويف.ط ١.١٩٨٢. دار دمشق + لبنان ص ١٠.

٨- كتاب الهلال. مصر ص ١١٣ ج ٢.

٩- الموسوعة الفلسفية المختصرة. مكتبية الإنكلو مصرية ص ١٦٩.

١٠- فريدريك نيتشه. نبي فلسفة القوة. الشيخ كامل محمد محمد عويضة ط أولى ١٩٩٣. دار الكتب العلمية ص ١٠.

١١ - عصر الإيديولوجيا. هنري إيكن.ص ٢٥٧.

١٢- على دروب زارادشت. استبيان أو دويف ص ٦.

١٣ - الموسوعة الفلسفية المختصرو ص ٣٧٥.

١٤ - على دروب زارادشت. استبيان أودويف ص ١٨١.

١٥ - أعلام الفكر الأوروبي. هنري توماس ج ٢ ص ٩٧.

١٦ - المصدر نفسه ص ١٠٤.

١٧ - هكذا تكلم زارادسشت. فريدريك نيتشه. المكتبة الثقافية لبنان. ص ٩٣.

١٨ - أعلام ا لفكر الأوروبي. هنري توماس.ج ٢ ص ٣٧.

١٩ - فريدريك نيتشه. نبي فلسفة القوة. الشيخ كامل محمد محمد عويضة ص ٣٦+٣٧.

٢٠- الفكر الألماني من لوثر إلى نيتشه. جان إدوار سبنله. وزارة الثقافة.١٩٦٨. دمشق ص ٢٢٣.

٢١ - فريدريك نيتشه. نبي فلسفة القوة. الشيخ كامل محمد محمد عويضة ص ٣٨.

٢٢ ـ الأمير. نيقولو مكيافلي ط ١١. ص ٣١.

٢٣ـ على دروب زارادشت. استبيان أو دويف.ص ١٢.

٢٤ـ من هيغل إلى نيتشه. كارل لوفيت. وزارة الثقافة.١٩٦٨. دمشق ص ٣٤.

٢٥ـ على دروب زارادشت. استبيان أودويف ص ٤٤.

٢٦ ـ تهافت الفلاسفة. السيد محمود أبوالفيض المنوفي. ط ١,١٩٦٧. دار الكتاب العرب. لبنان. ص ٢٥٨.

٢٧ـ الفكر الألماني من لوثر إلى نيتشه. جان غدوار سبنلةً ١٢٧ـ ١٢٩.

٢٨ ـ على دروب زارادشت. استبيان أودويف ص ٩٣.

٢٩ ـ فريدريك نيتشه نبي فلسفة القوة. الشيخ كامل محمد محمد عويضة.

٣٠ـ الأمير نيقولو مكيافللي ص ٤٠.

٣١ ـ على دروب زارادشت. استبيان أو دويف ص ١٤٩.

٣٢ـ المصدر نفسه ص ٨٤.

٣٣ـ أعلام الفكر الأوروبي. هنري توماس ص ٣٣.

٣٤ـ على دروب زارادشت. استبيان أو دويف ص ١٩٣.

٣٥ـ هكذا تكلم زارادشت. فريدريك نيتشه ص ١٠٢.

٣٦ـ على دروب زارادشت. استبيان أو دويف ص ٤٩.

٣٧ـ عصر الإيديولوجيا. هنري إيكن ص ٢٥٧.

٣٨ـ فريدريك نيتشه نبي فلسفة القوة. الشيخ كامل محمد محمد عويضه ص ٢٩.

٣٩ـ من هيغل إلى نيتشه. كارل لوفيت ص ١٦٥.

٤٠ـ فريدريك نيتشه نبي فلسفة القوة. الشيخ كامل محمد محمد عويضة ص ١٨.

٤١ـ قصة الحضارة. ول ديورانت. ج ٣٩.ص ٥٥.

٤٢ـ أعلام الفكر الأوروبي. هنري توماس ج٢ ص ١١١.

٤٣ـ هكذا تكلم زارادشت، فريدريك نيتشه ص ٦٥.

٤٤ـ عصر الإيديولوجيا. هنري إيكن ص ٢٥٧.

٤٥ـ فريدريك نيتشه نبي فلسفة القوة. الشيخ كامل محمد محمد عويضة ص ٣٢.

٤٦ـ على دروب زارادشت. استبيان أو دويف ص ٩٢.

٤٧ـ هكذا تكلم زارادشت. فريدريك نيتشه ص ٧٢.

٤٨- فريدريك نيتشه. نبي فلسفة القوة. الشيخ كامل محمد محمد عويضة ص ٣٣.

٤٩- هكذا تكلم زارادشت. فريدريك نيتشه ص ٢٣٩.

٥٠- المصدر نفسه ص ٣١٨.

٥١- على دروب زارادشت. استبيان أو دويف ص ١٣١-١٤١.

٥٢- المصدر نفسه ص ٨١.

٥٣- المصدر نفسه ص ٤٣.

٥٤- هكذا تكلم زارادشت.فريدريك نيتشه ص ٢٣١.

٥٥- فريدريك نيتشه. نبي فلسفة القوة. الشيخ كامل محمد محمد عويضة ص ٣٠.

٥٦- تهافت الفلاسفة. السيد محمود أبو الفيض المنوفي.ص ٢٥٩.

٥٧- هكذا تكلم زارادشت فريدريك نيتشه ص ٢٢٣.

٥٨- على دروب زارادشت. استبيان أو دويف ص ١٤٦.

٥٩- الفكر الألماني من لوثر إلى نيتشه. جان غدوار سبنله. ص ٢١٦.

٦٠- تهافت الفلاسفة. الشيخ محمود أبو الفيض المنوفي ص ٢٥٩.

٦١ هكذا تكلم زارادشت. فريدريك نيتشه ص ٢٢٥.

الفهرس

